
اليمن
من الباب الخلفي
هانز هولفريتز
ترجمة: خيري حماد
المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء

الطبعة الثالثة

١٩٨٥

المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع
شارع القصر الجمهوري ـ ص.ب. ٢٧٦٠ ـ صنعاء
الجمهورية العربية اليمنية ـ برقياً ـ المقحفي
تلكس : 2669 KASIM



من البـاب الخلفيّ

هانز هولفريتز

تعريب : خيري حمّاد

المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء

تقدمة المعرّب

فكرت طويلاً قبل أن أشرع في تعريب هذا الكتاب ، فاليمن قطعة غالية من الوطن العربي الحبيب والكبير ، والمؤلف ، بطبيعته الألمانية الصميمة ، ولبعده عن الأهداف الاستعمارية في هذا الجزء من الوطن العربي ، التي تتمثل في ما قد يكتبه المؤلفون الغربيون الآخرون ، الذين ينتمون إلى جنسيات ذات مصالح وأهداف استعمارية ، يحاول أن يكون موضوعياً كل الموضوعية ، في سرده للتجارب التي مر بها أثناء رحلاته ، ووصفه للأشياء التي رآها بنفسه ، ولكنه ، كأي أوروبي آخر ، يخرج أحياناً عن هذه الموضوعية ، إرضاء لغريزة الحديث عن كل ما هو عجيب وغريب ، واشباعاً لهواية وصف الشرق ، بأنه بلاد العجائب ، والغرائب ، فيورد قصصاً قد تكون من نسج الخيال وقد لا تكون ، ويسرد آراء فيها بعض الغلو في الاستنتاج .

ولكن هذا الكتاب في مجموعه ، لا يتحامل على العرب ، وعلى اليمن بصورة خاصة ، وإنك لتشعر وأنت تقرؤه ، أن هذا الرجل ، قد أحب هذا الشعب الذي عاش بين ظهرانيه شهوراً وأسابيع ، وأنه قد فهمه ، وحاول الدفاع عن بعض عاداته وتقاليده ، التي لا تتفق مطلقاً مع عادات الغربيين وتقاليدهم . واليمن ، بحاجة ، لسوء الحظ ، إلى التعريف للقارىء العربي ، فالعزلة المفروضة عليها منذ عهد بعيد ، ونأيها عن الأجزاء الأخرى من الوطن العربي ، يجعلانها مجهولة ، إلى الكثرة الغالبة من أبناء الشعب العربي إن لم نقل إلى مجموعه .

وقرّرت ان أعرب هـذا الكتـاب ، ففيـه تعـريف بـأجـزاء مـا زالت تعيش في غموض ، في مخيلة كل قارىء . إنه يتناول بقاعاً لم يطرقها غريب من قبل سواء أكان اجنبياً أو عـربياً من بلد عـربي آخر عـلى الـرغم من أن بعض المؤلفين من عـرب وأجانب ، قد قاموا بمحاولات اخرى تتناول بقاعـاً ثانيـة . وإذا كان في هـذا الكتاب أي خـروج على الحقيقـة أحيانـاً ، فإن هـذا الخروج ، كـما اعتقـد ، لم يكن بـدافـع التحامل الذي هو شأن الكثرة من مؤلفي الغرب على بلادنا العربية ، وإنما هو بـدافع البـراءة أو الجهـل بالحقيقة الصحيحة . ولـذا فقـد آثـرت أن أزوّد تعـريبي ببعض الشروح . تفسيراً لغموض ، او إيضاحاً لحقيقة ، او رداً على زعم .

وعلى الرغم من صدور هذا الكتاب عام ١٩٥٩ ، فـإنه لا يتحـدث عن اليمن في السنوات الأخيرة ، وإنما يتحدث عنها في عهد المرحوم الإمـام يحيى ، وبداية عهد الإمام أحمد . ولذا فإن ما يتناولـه من مواضيـع ، كان من المقـدر له أن يمـر بتطورات جديدة تتأثر بالاتجاه الذي اتجهت فيه البلاد بعد انضمامها الى اتحاد الدول العـربية ، وبعد عقدها للعديـد من معاهـدات المعونـة الاقتصاديـة مع كثـير من الدول الشـرقية والغربية على حد سـواء ، لو أن القـائمين عـلى الأمر فيهـا كانـوا جادين في اتجـاههم الوحدوي ، وكانوا صادقين في مساعيهم للنهوض ببلادهم .

ولقد قيل ان اليمن نفذت في السنوات الأخيرة عدة مشاريع انشائية ، منها بناء ميناء الحديـدة ، بالتعـاون مع الإتحـاد السوفيـاتي ، والطريق بـين الحديـدة وصنعاء ، الذي قامت على انشائه البعثات الفنية الصينية ، وإقامة بعض المصانع وما أشبه ذلـك من خـطط ترمي إلى النهـوض بالبـلاد في الميدان الاقتصـادي ، كالسـمـاح لشـركـات التنقيب عن الزيت من المانية وايطاليـة وامريكيـة ، بالبحث ، عن النفط والمعـادن في جبال اليمن وسهولها . ولكن جميع هـذه المشاريـع لم تتعد حـدود القول ، إلى العمـل الفعلي بسبب تقاعس السلطات المسؤولة في اليمن عن تنفيذها .

لكن هذا الكتاب غني بما فيه من معلومات عن تاريخ اليمن وجغرافيتها وطبيعة أرضهـا ، ومنـاخهـا ، وقبـائلهـا ، وطـرقـاتهـا ، وزراعـة البن فيهـا ، ومـوسيقـاهـا واحتفالاتها ، وأعيادها ، والأحوال الاجتماعية فيها ، وصناعاتهـا ، وطرائق معيشتها

واتجاهات التفكير فيها . ومثل هذه المعلومات ضرورية كل الضرورة لكل من يرغب في الاطلاع على أحوال اليمن ودراسة شؤونها . سواء أكان هذا عربياً أو أجنبياً .

وهذه المعلومات ، هي التي حملتني على الإقدام على تعريب هذا الكتاب . لأضع أمام القارىء العربي ، شيئاً يجهله ، عن قطعة غالية من وطنه العربي الكبير ، ولجلاء بعض النقاط الغامضة ، لدى كل متتبع لأحوال العرب وتاريخهم في هذا الجزء من الجزيرة العربية .

ولا ريب في أن المؤلف ، كان منصفاً كل الانصاف ، وعادلاً كل العدل ، عند حديثه عن الجنوب العربي بمجموعه ، وعن مطامع الدول الاستعمارية فيه وفي مقدمتها بريطانيا ، وعن الطريقة التي اتبعتها هذه في اغتصاب محمية عدن من الجنوب العربي وفرض سيطرتها على المحميات العديدة في حضرموت .

وإنني إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي القرّاء العرب ، آمل كل الأمل أن أكون قد وفقت في تعريبه ، وأن أكون قد أديت خدمة متواضعة للقارىء العربي الكريم .
١٩٦١/١٠/٩

خيري حماد

- ١ -

العَربية السَعيْدَة

ما زالت هذه البلاد التي يتناولها كتابي بالحديث ، أكثر زوايا العالم جهلاً ، لدى الناس في سائر أنحاء المعمورة ، وقد يدهش الكثيرون لهذه الحقيقة ، لأن البلاد العربية ، واليمن جزء منها ، تقع على عتبة أوروبا ، وتمر بها أكثر الطرق التجارية في العالم ضجيجاً ونشاطاً . ونحن نعرف فوق هذا أن الكثير من الحضارات القديمة ، قد نمت وترعرعت على تربة هذا الجزء الجنوبي من البلاد العربية ، وأن البحث عن بقاياها ، والتنقيب عن كنوزها الثمينة ، قد يبلغان من المتعة والإثارة ما بلغه التنقيب عن الآثار في مصر أو في بابل ، ولكن ثمة سببين ، أديا إلى التقاعس في هذا السبيل ، وإلى بقاء البلاد العربية مجهولة إلى العالم حتى عهد قريب .

وأول هذين السببين ، هو اختفاء البلاد العربية من الأفق الأوروبي ، بعد انتهاء الحروب الصليبية التي مثلت التصادم العظيم وغير الحاسم بين المسيحية والعالم العربي - الإسلامي . وانطوت البلاد التي ولد فيها الإسلام ، في زوايا النسيان ، كما تجاهلت أوروبا أيضاً ، تلك التأثيرات المهمة التي خلفها الفن والعلم العربيان في تطور الغرب الروحي في مطلع القرون الوسطى ، وفي إبان الحروب الصليبية أيضاً .

وتوقفت الجزيرة العربية التي تحكمت في مصير العالم عدة قرون عن أن يكون لها تاريخها الخاص بها . وقد خرجت من مسرح الأحداث ، وأصبحت جزءاً نائياً ومهملاً من الامبراطورية العثمانية . ومن المحتمل أن يكون الغرب قد عرف شيئاً عن مدينتي مكة والمدينة المقدستين ، ولكن كان من النادر أن يصل نبأ عن البلاد

العربية إلى أوروبا . وكان أقصى ما يمكن ظهوره في الصحف ، أن آخر سلاطين بني
عثمان العظام ، عبد الحميد مثلاً ، قد نفى احدى الشخصيات البارزة الميالة إلى
خلق الفتنة إلى البلاد العربية ، أو أن أحد الضباط الأتراك ، الذي تلقى علومه
العسكرية مثلاً في المانيا ، قد أرسل إلى اليمن ، لأنه كان من دعاة الإصلاح .

وبدت البلاد العربية معزولة . فهي بعيدة عن التيار الرئيسي للأحداث ،
والزمن يمر بها مر الكرام . ولم تقع أحداث سياسية تحمل على تركيز الاهتمام في شبه
الجزيرة العربية ، التي قدر لها في وقت مضى أن تؤثر على مصير الغرب بصورة
حاسمة ، كما هي الحالة بالنسبة إلى مصر أو إلى ما بين النهرين عندما تم بناء طريق
بغداد .

أما السبب الثاني فهو وجود عقبات لا يمكن تحطيمها في طريق اكتشافها . وأول
هذه العقبات طبيعي . فسلاسل الجبال الساحلية في البلاد العربية تخفي وراءها ،
صحارى شاسعة أو مساحات واسعة من الأراضي شبه الصحراوية ، وعبور مثل هذه
الفيافي النادرة الماء ، والكاملة الجدب ، والتي تمتد مئات الأميال ، مهمة شاقة ، ولا
يمكن تحقيقها إلا عن طريق مساعدة الأهلين ، أو تسامحهم الودود على الأقل ، ولكن
هنا تقوم العقبة الكأداء في القضية كلها . وفي مكنة الرجال التغلب على عداء الطبيعة
وعقباتها . كما أثبت لنا اكتشاف المناطق القطبية مثلاً أو غيرها ، بينما يجدون في
الغالب في عداء اخوانهم من البشر ، صعوبة لا يمكن تذليلها أو التغلب عليها
وينبثق هذا العداء في البلاد العربية من مصدرين اثنين ، فهو واضح جلي في الكيف
الاجتماعي لسادة الصحراء ، والمناطق شبه الصحراوية ، وهم البدو ، فالبدوي
يعتبر قبيلته الخاصة ، الجماعة الوحيدة التي يحس نحوها بالالتزامات الأدبية ، وكل
من لا ينتمي إلى هذا المجتمع الضيق بوشائج القربى يعتبر عدواً بصورة رئيسية ، لا
يجوز التعامل معه إلا على أساس قانون تنازع البقاء وبقاء الأقوى . وهكذا فإن غزو
القبائل الأخرى وسلبها ما تملكه ، ليس بالأمر المباح فحسب ، بل هو قاعدة أدبية
معترف بها بصورة عامة ، في معركة الوجود والبقاء . ومن حق المهاجمين أن يدافعوا
عن أنفسهم ، وإذا ثبت أنهم أضعف من مهاجميهم مراساً ، كان تغيبهم إلى مكانة
أوضع في مقياس الوجود .

ويخضع الاجنبي بالطبع ، لقانون الصحراء هذا أيضاً ، ولكن موقعه أكثر ضعفاً وسوءاً ، ذلك لأنه يفتقر إلى تأييد المجتمع القبلي وحمايته ، وعليه أن يأخذ معه جيشاً صغيراً من الرجال في الرحلات التي يقوم بها إلى الداخل . ليتأكد من سلامة رحلته المطلقة . ولكن حاكم البلاد ، لا يسمح له بذلك ، بالإضافة إلى عدد آخر من الأسباب لا يعد ولا يحصى ، يجعل مثل هذا الأمر ، شيئاً مستحيلاً .

وهناك أسباب أكثر عمقاً للعداء الذي يحمله العربي للأغراب ، إنها متأصلة في معتقداتهم التي تنظم حياتهم كلها . فالإسلام دين كثير الانطواء على نفسه . وقد يصدق فيه القول ، بأنه واقع تحت تأثير التعصّب السلبي . فالمسلم يظل متحفظاً أشد التحفظ في علاقاته مع غير المسلمين ، الذين لا يؤمنون بالله . وهو لا يعتبرهم مخلوقات أصلية ، ولذا فإن موقفه منهم ينطوي على عدم الميل وعلى الشك . وهو يرفض الاشتراك معهم في أي شيء ، كما ينكر عليهم حق الاطلاع على طرائقه في التفسير والاحساس . كما يمنعهم من دخول مساجده ومعابده ، ولا سيما في تلك الأجزاء التي احتفظ بها الإسلام بشكله الصارم المتزمت ، كالجزيرة العربية التي نشأ فيها . والإسلام على الرغم من اشتراكه مع المسيحية في الكثير من المثل العليا الروحية ، هو الدين الوحيد في العالم ، الذي يحظر على غير المسلمين الدخول إلى أماكنه الدينية ويعرّض من ينتهك منهم حرمتها (في بعض البلاد على الأقل) الى عقوبة الموت[1] .

وما يصدق على المساجد والأماكن المقدسة ، يصدق أيضاً على ما يسود البلاد من عقائد ، ومواقف عامة . فالغريب يشعر وكأنه محاط بجدار مطاطي غير مرئي ، يفصله عن جميع الجهات ، ولكنه ، يتراجع عندما يحاول هذا الغريب الاشتباك

---

(١) آثرت أن أنقل إلى القارىء العربي . كل كلمة قالها المؤلف في هذا الموضوع ، لأعرض عليه شيئاً من تفكير بعض هؤلاء الغربيين الذين يدعون الاستشراق ، ويجيئون للطواف بالبلاد العربية . ثم يعودون إلى بلادهم ، ليشبعوا خيال قرائهم بسرد الأشياء الغريبة ، وكيل المغالطات . واعتقد أن ما ورد في هذه الفقرة من مغالطات عن الإسلام والعرب ، غير جدير بأن يرد عليه ، لأن كل مطلع على حقيقة الإسلام ، يعرف ما فيه من مغالطة .

(المعرب)

معه . فهو يلقي مقاومة خفيفة في كل مكان ، وكل خطوة من خطواته عرضة للمراقبة التي تمتزج بالشك ، أعماله تثير الشكوك بسهولة ، حتى ولو اقتصرت على نسخ ورقة ، أو رسم نقش قديم يمت إلى عصور ما قبل الإسلام . وعندما يثور الشك ، تنفجر المقاومة السلبية بسرعة إلى كراهية عملية . وأرى لزاماً علي أن أشير هنا إلى ان التحفظ العدائي عند العرب ، قد ازداد بدلاً من أن ينقص ، وان كان لم يحل بينهم وبين الإفادة من الاختراعات التقنيّة الجديدة ، وهي ظاهرة تبدو بوضوح في العربية السعودية .

وهذه هي الأسباب المختلفة التي جعلت قلة من الرواد في المعرفة ، يفلحون في النفاذ عميقاً في باطن الصحراء العربية ، والتي سبّبت أيضاً بقاء الألوف من الأميال المربعة من هذه البلاد ، بعيدة عن المكتشفين .

ولكن العالم الجديد ، الذي انبثق عن الحرب الكونية ، التي أوقدت رصاصات سيراجيفو شرارتها ، جاء بتبدل جديد في الوضع . فقد حاربت القوات الأوروبية لأول مرة على التربة العربية من جديد ، بعد الحرب الصليبية ، وأوجدت اتصالاً فورياً مباشراً مع العالم الغربي ، كما أخذت الجزيرة العربية ، وهذا هو المهم أيضاً ، تضع لنفسها تاريخها الخاص بها . وقد استفاقت هذه الجزيرة العربية من سباتها في خضم أحداث الحرب الكونية الأولى ، وانساقت في طريق التطور ، الذي لم تظهر نهايته بعد . وصاحَبَ هذا الانسياق ، ارتفاع سدل الصمت التي كانت مخيمة عليها . وغدت بلاد الجزيرة العربية تذكر الآن تكراراً وبصورة متزايدة ، في الصحف ووسائل الإعلام ، التي تحدث الناس عن الأحداث العالمية .

ومع ذلك فقد برز أمران واضحان بصورة خاصة في موضوع يقظة العرب ، إذ اتضح أولاً أن الشعب العربي قد اكتسب قوة جديدة في فترة سباته الطويل . فقد عادت الصحارى ، والبوادي ، التي خلت من أهلها بفضل حملات الفتح التي قام بها الخلفاء الأول ، إلى الامتلاء تدريجياً بالناس في غضون ثلاثة عشر قرناً من السلام . وعندما تحطمت الحواجز ، وشرع عالم الشرق في الظهور . بعث شعب جديد غدا قوياً إلى الحد الذي يستطيع أن يطالب فيه بوجود فرد من جديد .

واظهر الإسلام ثانياً طاقة غير متوقعة على التجدد . فبعد انهيار الخلافة العثمانية انتقل مركز الثقل ، والحدث ، ثانية إلى أواسط الجزيرة العربية . حيث ولد الإسلام ، مكتسباً في عملية الانتقال هذه حيوية جديدة . وظهر في شخص ابن سعود ، حاكم قلب الجزيرة العربية ، مدافع وحام جديد . وبينما تميز العصر الجديد ، بالمزيد من الانفصال بين الدولة والكنيسة في الكثير من البلاد ، فإن وحدة القضايا الدينية والزمنية في الجزيرة العربية المتجددة ، قد احتفظ بها ، وغدت الديانة من جديد العامل الحاسم في حياة المجتمع ، الذي أقيم على دعائمه كيان الدولة كلها .

ونحن لا نعرف حتى الآن ، إلى اين ستمضي هذه القوى الغريبة علينا والصعبة على مداركنا وافهامنا ، كما لا نعرف أيضاً الأثر الذي ستتركه . ولكن ثمة شيئاً واحداً مؤكداً ، وهو ان بعث تعاليم الرسول النقية الصافية ، والإصرار الواعي على ما في هذه التعاليم من تقاليد ، ومن طريق خاصة في الحياة ، تعني الابتعاد عن الغرب . وبدأت القوى تحتشد في الجزيرة العربية كما في غيرها من أجزاء العالم الأخرى ضد أوروبا . ولقد ذكر هيرمان ستيغمان ، وهو من أدق المراقبين في عصرنا الحاضر ، ملاحظة في كتابه « الاتجاهات العالمية » ، ان « الإسلام المتجدد ، الذي سبك في أتون الجزيرة العربية ، قد اتخذ أيضاً شكل هجوم عنيف من جانب آسيا » .

واليمن هي أكثر أجزاء شبه الجزيرة العربية سعادة ، إذ حبتها الطبيعة بخيرها ، وأضفى عليها التاريخ شهرة وبروزاً . فهي البلاد التي خرج منها « ملوك الشرق الثلاثة » ، الذين جاءوا ليقدموا فروض الولاء للوليد الطفل ، الذي بعث لانقاذ العالم[1] ، وهي البلاد التي حكمت فيها ملكة سبأ المشهورة أيضاً[2] .

ولم يكن يعرف إلا القليل ، عن هذه البلاد الشرقية النائية مدة طويلة ، إذ

---

(١) قصة الملوك الثلاثة الذين وفدوا من الشرق ، ويقال أنهم جاءوا من اليمن إلى القدس ، في وقت ميلاد السيد المسيح ، وهي مستقاة من نبوءة أشعيا في العهد القديم .

(٢) إشارة إلى قصة بلقيس ملكة سبأ القديمة في اليمن التي جاءت إلى سليمان بن داود ملك العبرانيين ، وقد روى القرآن الكريم قصتها ، كما رواه سفر الملوك في العهد القديم .

ظلت يحجبها ضباب الأساطير ، والقصص الخيالية . وقد تمكن الماني هو ادوارد غلاسر (Eduard Glaser)[1] ، من أن يجمع عدداً من النقوش القديمة أثناء الرحلات التي قام بها في اليمن وفي البقاع الرئيسية من جنوب الجزيرة العربية ، وجعلها في متناول العالم العلمي . وآنذاك فقط ، بدأ الناس يدركون أن القصص الغريبة الواردة في التوراة ، ترتكز على أسس تاريخية ، وان امبراطوريات عظيمة ، قد ترعرعت قبل قرون على أرض هذه البلاد ، حيث نمت حضارة مزدهرة ومذهلة في عهد ملوك سبأ وخلفائهم .

ولكن أسرار هذه الحضارة ظلت محصورة بصورة رئيسية في هذه النقوش . ولم تسطع أضواء المعرفة بعد على الغموض الذي ما زال مسيطراً على ماضي جنوب الجزيرة العربية .

فاليمن حتى هذا اليوم ، ما زالت من أصعب بلاد العالم على التسلل والاختراق . ولقد ظل الملك الإمام يحيى ، وهو من ذرية الرسول ، يحكمها حتى عهد قريب . وما زال الإمام الحالي كثير الشكوك بالغرب ، وهو لهذا يريد اقصاء بلاده عن النفوذ الأجنبي ، ولا يسمح للأجانب بدخول البلاد ، أو يسمح لهم فقط ، بدخولها بموافقة الامام الشخصية ، عندما تقتضي ذلك الضرورات التجارية أو الدبلوماسية . ولكن حتى لو سمح لأجنبي بالدخول بأمر ملكي ، فانه يظل محروماً من حرية التنقل . فالسلطات تحدد له الطرق التي يجب أن يسلكها ، والأماكن التي يستطيع التوقف فيها ويظل دائماً تحت مراقبة دقيقة . ولا يسمح الملك للأجانب على الغالب ، بالتوغل في بلاده إلى ما وراء عاصمتها صنعاء . أما ما وراء صنعاء ، فأرض محرمة . وهي التي تؤلف اليمن ، بأجزائها التي ما زال بعضها غير مكتشف ، والتي يعتقد أن أثمن بقايا الحضارات القديمة الزائلة ، ما زالت مطمورة فيها . وتلقى جهود الملك في فصل اليمن عن العالم الخارجي عوناً فعالاً من عداء السكان لكل ما هو أجنبي ، ومن تعصبهم الديني ، ومن افتقار البلاد إلى الأمن والطمأنينة .

وكان استكشاف اليمن المجهول ، بما فيها من فردية ما زالت متماسكة ، ومن

(١) رحالة الماني مشهور ، قام بجولة في أنحاء الجزيرة العربية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

(المعرب)

ماض عريق ، هدفاً من أكثر الأهداف اغراء لي منذ عهد بعيد . وقد قضي على عـدد من الذين سبقوني في هـذا الميدان بـالعودة ، بعـد وصولهم إلى عتبـة البلاد ، دون أن يحققوا شيئاً ، بينما سقط البعض منهم ضحايا التخوف من أخـطار المغامـرة . ولكنني تمكنت أخيـراً بفضل المثـابرة التي لا تعـرف الكلل ولا الملل ، من اقتحام العـوائق ، والتوغل في الأرض المحرّمة . ومن الـواضح أن المغـامرة الجـريئة وحـدهـا ، هي التي أدت إلى هذه النتيجة ، وهي مغامرة قد يعتبرها الكثيرون من الناس ، مستحيلة وغير عملية .

وقد قمت أولاً بالاطلاع على لغة العرب وعاداتهم ، بعد رحـلات قمت بها في مصر والعراق وفلسطين . ثم تعـرفت بعد ذلـك على احـد السلاطين العـرب الذين حكموا امارة صغيرة في الجنوب الشرقي من شبه الجـزيرة العـربية . ومضيت في عـام ١٩٣٠ الى المكلا الواقعـة على المحيط الهنـدي ، لزيـارة هذا السلطان . وانتقلت من هناك الى حضرموت ، وهي البلاد التي تجاور اليمن من ناحيتها الشرقيـة ، والتي تقع تماماً وراء سلسلة الجبال الساحلية العالية . وتمكنت أثناء اقـامتي في حضرمـوت ، من المرور بتجارب ، والقيام بعدد من الاتصالات التي كانت نافعة لي ومفيدة في مغامراتي التالية الواسعة النطاق .

وكنت استهدف منذ البداية ، اليمن ، البلاد المحرّمة . وشرعت من جـديد ، فهبطت في الحديدة ، ميناء اليمن ، وشرعت أقرع باب المملكة المغلقة . وكنت سعيد الحظ ، فقد انفتح الباب ، وسمح لي بالذهاب إلى صنعاء ، عاصمة البلاد ، والإقامة فيهـا فترة طـويلة . ولكن جميـع محـاولاتي للتـوغـل إلى مـا وراء صنعـاء ، قـد منيت بالفشل ، فقد رفض الملك السـماح لي بذلك ، وتحتم علي أن أعود من نفس الـطريق التي جئت منها ، وأن أمضي إلى بلادي .

ولكن قناتي لا تلين بسهولـة ، ولن أرجع عن خـططي . فبعد نحـو من سنة ، كنت في طـريقي إلى العربيـة السعيدة مـرة ثانيـة . ولما كـان من المستحيل أن أدخـل اليمن بالطرق المشروعة ، فقد قررت أن أدخلها بصورة سرية . ومثـل هذا المشروع لا يمكن لـه أن يكلل بالنجـاح ، إذا بدأت الـرحلة من احدى المدن الـساحليـة ، كما

حاول بعض المستكشفين من قبل . ولهذا فقد رسمت خطتي على أساس الوصول إلى حدود اليمن ، بعد دورة واسعة في داخل البلاد . ولأحقق هذا الهدف ، تحتم علي أن أعبر منطقة صحراوية ، اعتبرت في الماضي غير مطروقة ، ولا يمكن اجتيازها . وتمتد هذه المنطقة على طول الجزء الشرقي من شبه الجزيرة ، وهي تمثل على خريطة الجزيرة العربية برقعة بيضاء .

ومضيت في طريقي وحيداً ، لا ألوي على شيء ، ولا أتصل بأحد ، وليست لدي إلا بعض الموارد المالية الطفيفة التي كسبتها من محاضراتي وكتبي الأولى . ولم يكن لدي سلاح ، ولكنني تزودت بجميع الوسائل السلمية للبحث العلمي العصري ، من آلة تصوير للأفلام ، وجهاز تصوير عادي ، ومسجل للأصوات ، وكان هدفي من رحلتي الحصول على أكبر مجموعة ممكنة من الوثائق عن أهل تلك المناطق وأعمالهم ، وطبيعة بلادهم ، وفنونهم ، وهندستهم ، وحياتهم اليومية ، ورقصهم وموسيقاهم .

وتخطو التقنية العصرية اليوم ، خطىً جبارة ، وستقرع ساعة المصير ، ان عاجلاً وان آجلاً للعربية السعيدة أيضاً . وآنذاك ستصبح من البلاد المتطورة في عالمنا . وستحيى على حساب حضارتها العريقة ، بالعلم التقني والحضارة الغربية ، وسيصبح لاسمها « العربية السعيدة » معنى جديد آخر ولكن هل ستكون حقاً سعيدة بهذه الحضارة ؟ ليس في مكنة انسان أن يدري .

- ٢ -

رحـــلة إلى المجهول

تعتبر أيام شهر شباط ، من أيام القرّ حقاً ، حتى على ضفـاف البحر المتـوسط الجنوبية ، فهناك ريح صرصر باردة تهب من الشمال الشرقي ، قادمـة من سهول روسيا التي تغطيها الثلوج ، عبر مضائق الدردنيـل والبوسفـور ، وقد لجأنا إلى قـاعة التدخين المريحة في الباخرة مولتون ، بينما كان حيزومها يمخر عباب البحـر ، بأقصى سرعة ممكنة ، متجهاً إلى المدخل الضيق المؤدي إلى عالم الشرق والأحلام .

وكان رفاق السفر حفنة من مواطني الأمبراطورية البريطانيـة . إنهم يجلسـون في نعيم وراحة على المقـاعد الجلديـة الوثيـرة . وهم لا يتحدثـون إلا نادراً . ولا تـنطلق الكلمات من أفواههم ، إلا برمة ، ولكن أعمالهم ، كما هـو معروف تمـاماً ، تتكيف وتستند ، إلى تقييم صحيح ودقيق لما يحسون بـه من قوة . وكثيـراً ما يكـونون دمثين وصرحاء ، عندما يلتقون أناسـاً من غير جنسهم ، وهي عـادة منبثقة من ثقـة فطريـة بـالنفس مصحـوبـة بـإحســاس صـادق بعضـويتهم في المجمـوعـة الأوروبيـة . وهي عضوية ، قد لا تبدو بوضوح إلا في هذه المناطق .

ومعظم هؤلاء البريطانيين من الموظفين الذين يقصدون عدن وسنغافورة وبعض مناطق الباسفيك الأخرى . وما زال هؤلاء الموظفون الذين يخدمون امبراطورية تغطي المعمـورة ، يذرعـون العالم ذهـاباً وإيـاباً عـلى الطريق التجـارية القـديمـة نفسهـا التي استخدمها الرومان في رحلاتهم . وما زلنا نشعر بما في الفراغ الـواسع المتفتح من قوة جـذب ، ولكن علينا أن نغـدو جوّالـين حقيقيين مـرة ثـانيـة ، وأن نشـرع في طـريق

المغامرات ، معتمدين على أنفسنا ، طلباً في تقصي المجهول ، وغير المنتظر ، وسعياً وراء المخاطرة . ولم يكن رفاق السفر يتوقعون شيئاً غريباً . فهم يعرفون ما ينتظرهم . إنه منصب أو مركز في جهاز أمبراطوري كامل الاعداد والتنظيم . وكل شيء في هذا الجهاز ، يسير سيره المنسجم المتسق ، بنعومة ويسر . فقد انتهت أيام الاندفاع إلى المجهول ، وتحقيق فتوحات جديدة . ولم يبق أمامهم الأن إلا واجب تثبيت مواقعهم في المناطق التي احتلوها والحفاظ عليها .

وانضم إلى زمرتنا ، مزارع استرالي يعمل في تربية الماشية ، بينما ظلت فتياته الأسرات الجمال ، يقمن بطوافهن الذي لا ينتهي ولا يلحق به كلال ، على ظهر الباخرة . وأخذ المزارع يحدثنا عن متاعب الأحوال الاقتصادية ، ورداءة العمل ، في لهجة قاسية ملأى بالإثارة . ولكن منظر كريماته ، وهن يمررن عبر النافذة المفتوحة ، قاده إلى الحديث في موضوع آخر . فروى لنا قصة زيارته للوطن الأم (انكلترا) ، التي يعود منها الآن مع أفراد أسرته . وعلى الرغم من أن حديثه حافظ على ما فيه من جفاف وواقع ، إلا أن التبدل الذي طرأ على لهجة الحديث كان واضحاً وملحوظاً ، فقد انطوى الآن على عاطفة مكبوتة خفية ، لا تخلو من الاصرار والتصميم ، وسرت عدوى هذا التصميم الى الآخرين ، فاكتسب حديثهم شيئاً من الحيوية . وسرعان ما وجدتهم يوافقونه على آرائه . وكثيراً ما سبق لي في الماضي التفكير ، بما في عالم الانكليز من ثبات ، وبما في تمسكهم بهذا العالم من التصميم ، وقد تكشفت لي الآن الحقيقة ، فجزيرتهم (أي انكلترا) ، تمثل لهم ، القطب الثابت الذي لا يتحرك ، والوحدة الصامدة أمام تيارات الوجود وتقلباته . فهي تحتل دائماً أفكارهم ، ولا تفارق صورتها مخيلاتهم حيثما ذهبوا ، لأنها المصدر الذي لا ينفذ لقوتهم وإيمانهم .

ودخل إلى القاعة في غضون ذلك ، ثلاثة رجال ، فارعو العود ، يرتدون عباءات مقصبة مشرقة ، وقد حملوا وجوهاً برونزية سمراء ، وعلت رؤوسهم قلنسوات مدببة الشكل . لقد استقلوا الباخرة في الجزائر . وبدا عليهم الارتباك ، فاقتعدوا زاوية من القاعة ، وشرعوا في حديث ناعم خافت . وفي غضون هذا الحديث الذي طال ، التفت إليّ الرجل الجالس الى جانبي ، وكان يرتدي عباءة

حمراء فضفاضة ووجه إلي سؤالاً ، بلغة فرنسية محطمة ، فرددت عليه الجواب بالعربية .

وأشرقت وجوههم فرحاً ، وقالوا : « يا سلام ! أين تعلمت العربية ؟ » . وحدثتهم عن رحلاتي السابقة ، وعن اعتزامي الآن الذهاب إلى اليمن .

فقالوا دهشين . . . « إلى اليمن ؟ » ولكن هل حصلت على الأذن اللازم من الإمام ؟

وتجنبت الإجابة . فلم يكن ثمة داع ، لإبلاغهم أنني أنوي الدخول إلى الأرض المحرمة من طريق سرية غير مطروقة . ومضينا نتحدث عن الملك الإمام ، الذي تفوق بلاده في عزلتها بلاد الدالاي لاما[1] .

وقال الرجل ذو العباءة الحمراء : « ان السبب في هذه العزلة أن الإمام لا يستطيع أن يضمن حماية الأجانب في بلاده » . . . وألقى نظرة طويلة على رفاقه الذين بدا وكأنهم يخالفونه في وجهة نظره .

ولا ريب في أن ثمة الكثير من الصحة ، في ما رواه الرجل عن قضية الأمن ، فقبل فترة قصيرة قتل مكتشفان المانيان ، فلحقا بأسلافهما من ضحايا تعصب الأهلين ، أو حالة الفوضى التي كانت تسود اليمن .

وسرعان ما عرفت أن الرفاق الثلاثة ، قادمون من مراكش ، وهم في طريقهم إلى القاهرة ، لحضور مؤتمر إسلامي فيها ، مما يشير إلى أن العالم الإسلامي ، قد بدأ يتحرك أيضاً . فها هم يسافرون ، مستخدمين كل مزايا العلم الحديث ونعمه ، ليجتمعوا ، إن سراً وإن جهاراً ، لاتخاذ قرارات تقوي من روابطهم المشتركة ، وتؤكد آمالهم وأعمالهم للمستقبل . ولا يدري إنسان ، ما وراء هذه الحركة الجامعة ، من أعاصير ، وما قد تتمخض عنه الأوضاع المصطنعة الراهنة - إن استمرت - من مشاكل .

---

(١) المقصود ببلاد الدالاي لاما ، التيبت ، وهي مملكة كانت تقع في قمة جبال الهيمالايا على الحدود بين الهند والصين ، ويحكمها الدالاي لاما الذي يقدسه شعبه . وقد احتلت القوات الصينية بلاده ، واضطر الدالاي لاما إلى الفرار منها إلى الهند ، وكانت التيبت معزولة عن العالم .

ورد رفاق السفر القادمون عبر المانش ، على تحية الرفاق الثلاثة الجدد ، رداً مقتضباً ، وعادوا إلى عزلتهم . وبدا وكأن جداراً من الزجاج قد ارتفع فجأة في القاعة ، فهؤلاء الانكليز يشعرون أنهم « الحكام » ، وان من الصعب عليهم بصورة خاصة أن يجتمعوا ، إلى رجال « ملوَّنين »[1] ، على قدم المساواة ، وأن يتعايشوا معهم كأفراد .

وسألني الاسترالي بعد ذلك عن اللغة الغريبة التي كنت اتحدث بها ، فأبلغته .

وهتف الرجل ، وهو يتطلع إلي بعينيه الزرقاوين المندفعتين . . يا لله ! هل هذا ممكن ! انني لا اتحدث إلا الانكليزية ، وفي وسع أي إنسان أن يجول جميع أنحاء العالم مستخدماً هذه اللغة . . .

وقد يكون الرجل محقاً في قوله هذا .

وما كدنا نجتاز بور سعيد ، ونبدأ في الاتجاه نحو الجنوب ، حتى بدا التبدل المفاجيء في المناظر مصدراً دائماً للدهشة . فقد اختفى عالم الخضرة المشرق الذي يميّز حوض البحر الأبيض المتوسط بما ينطوي عليه من احتضان ودود للمشاعر ، وكأن عصاً سحرية قد لمسته . وضاع الفضاء في أبعاد لا حدود لها . وامّحت الأشكال ، والقطاعات العرضية بحيث أصبح من المتعذر على العين ، أن تجد لها مستقراً في أي مكان . وطمس الضوء العنيف جميع الألوان ، وخفتت جميع الأصوات ، وكأن لا نهاية السكون قد ابتلعتها . وانقضت الأيام متتالية دون أن تثير أية هبة من الريح سطح البحر اللازوردي الذي يغطيه درع فولاذي من سماء ثابتة لا تتغير . وكما ان سكان المناطق الشمالية يبتهجون عندما يرون بصيصاً من أشعة الشمس تخترق حجب الغيوم ، فإن سكان هذه المناطق العرضية يتلهفون بيأس وقنوط ، لرؤية سحابة واحدة تعبر السماء الزرقاء لتلطف ولو لحظة واحدة ، من قيظ الشمس المحرقة .

وسرت عدوى الخمول الذي يلف العالم الخارجي ، إلى الباخرة ، ومن عليها ،

---

(١) هذا القول تطبيق لنظرية التمييز العنصري والعرقي واللوني . فالانكليز ينظرون الى العرب على أنهم من الملونين السمر .

وأخذت الأحاديث المتقطعة ، تجف كما تجف مياه الأنهار في الصحارى ، ولم يكن في وسعنا أن نصغي إلا إلى أصوات آلات الباخرة ، وهي تهدر هديراً غير منقطع . وبدا لنا أن ضجيجها أخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً ، وبدا أكثر إصراراً ، وكأن الباخرة على عجل من أمرها تريد الخلاص من هذا الجحيم ، وذلك على حد تعبير الأسترالي الذي كان يفصح حقيقة مشاعره .

وبدا خيط رفيع أصفر من الساحل عبر الأفق على سطح البحر البلوّري . وهو كما يظهر ، كان قاحلاً ومهجوراً ، وغير حقيقي بصورة مذهلة ، وسط هذا الهواء الذي يطمس كل معالم ثابتة وأشار الأسترالي بيده إلى الساحل . وكانت عيناه تومضان ببريق غريب ، لا يلبث أن يخمد وراء جفنيه اللذين لا يستطيعان الصمود أمام الضوء المتوهج وقال . . . وهذه هي البلاد التي تريد الذهاب إليها . حيث لا شيء فيها إلا الرمال والصخور . وإلا الحرارة التي تعلو كل شيء . إني لأرجو الله أن يقيني من مثل هذا المصير .

وقلت أرد عليه . . . « ومع ذلك فهناك الكثير من الأمور التي يمكن أن يعثر الإنسان عليها أيضاً في هذا المكان . . . مثلاً هناك ناطحات سحاب . وكانت قائمة هناك في الوقت الذي كان الهنود الحمر ، لا يزالون يطوفون في البقعة التي تقوم فوقها مدينة نيويورك اليوم » . وأخذت أحدثه عن الجزيرة العربية وعن حضارتها القديمة ، وعن أن إحدى ديانات العالم العظمى قد نبتت فيها ، وعن الخزان الذي يقوم في جنوب البلاد ، والذي يرجع في عهده إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام ، والذي لا يقل في حجمه ، وفي روعته التقنية عن خزانات المياه العصرية . ثم قلت منهياً كلامي : « أجل ، وكل من زار تلك البلاد مرة واحدة ، تجتذبه إليها ثانية » .

ورأينا في اليوم الثالث عدداً من البقع البيضاء ، الممتدة على الساحل نحو الميناء . وكانت هذه البقع تتراقص جيئة وذهاباً ، في الأفق الرجراج ، وكأنها تقف على لوالب و (زنبركات) . إنها بيوت جدَّة ، في ميناء مكة البحري . وأذكر أنني عندما هبطت إليها في المرة الأخيرة ، كانت هناك حطام باخرة تقعي بين الجنادل المرجانية في مدخل الميناء . وكانت هذه الباخرة قد جنحت إلى الساحل والتهمتها

النيران طعاماً ، عندما كانت ملأى بالحجاج . وقد قضى معظم ركابها نحبهم طعاماً للنيران ، أما أولئك الذين حاولوا إنقاذ أرواحهم ، بإلقاء أنفسهم في اليم فقد افترستهم كلاب البحر .

وفي وسع مدينة جدة أن تقيم الدليل الناصع ، على الطريقة التي بعث فيها العالم العربي فجأة ، بعد أن ظل يلفه الغسق عدة قرون ، وأن تظهر كيف توالت الأحداث واحدة إثر أخرى . في الحقبة والنصف الأخيرة . ولقد بدأت النهضة العربية في هذا المكان حقاً ، عندما هبط إليه الكولونيل (العقيد (لورنس ، وهو رجل أسطوري ، يتعلق بأهداب الخيال ، لينظم الثورة العربية ، وليحملها على أن ترفع الشعلة المتألقة جنباً إلى جنب مع راية الحرية . وهي عين الثورة التي أعلنها حسين أمير مكة ، على السلطات العثمانية ، والتي سار بها عبر مفاوضات طويلة وغير محددة ، وكانت لغماً من الألغام التي أدت إلى نسف بناء الأمبراطورية التركية العتيقة .

وقد تمكن العقيد لورنس حقاً من قيادة « نبيه وهو يحمل السيف » . فيصل بن الحسين ، وقائد الثورة ، منتصراً إلى أن وصل به إلى دمشق ، بينما انفجرت الجماهير التي تدفقت على المدينة في عاصفة من الفرح الزائد ، واعتقدوا تمام الاعتقاد بأن يوم التحرر قد حان ، ولان عهد الخلافة المجيد والقوي ، قد بعث . ولكنه كان مجرد حلم خاوٍ . وقبل أن يتمكن العرب من إدراك حقيقة الحلم ، وجدوا أنفسهم تحت الوصاية التي فرضها عليهم شركاؤهم الأقوياء . وأقيمت المحميات ، أو الدول المستقلة ، التي يرئسها أمراء محليون . وحتى الأمير حسين الطموح ، تسلم مملكته المحاطة من كل جانب والتي تضم مدينتي مكة والمدينة المقدستين . وتمكن عن طريق سيطرته على قلب العالم الإسلامي من أن يصبح خليفة للمسلمين بعد زوال الخلافة العثمانية . ولكن آماله في المستقبل ما لبث أن تحطمت ، وهي ما زالت في طور الارتقاء والصعود .

وتمكن ابن السعود ، وهو سليل عشيرة عريقة ، اعتنقت الوهابية ، من أن يستغل استغلالاً ناجحاً أوضاع الحرب الكونية الأولى ، واضطراباتها في بطن

الجزيرة العربية ، دون أن يميل علناً إلى أي من الفريقين المتحاربين ، وأن يقضي على أسرة أخرى تنافسه ، وأن يستعيد عرش آبائه وأجداده ، ويقيم مملكة داخلية ، لا يستطيع الوصول إليها أي جيش عصري قوي . ولكنه لم يكتف بهذا كله ، وزحف باتجاه البحر ، وتوغل في مملكة الحسين ، وسيطر على البلاد المقدسة . وتطلع الملك حسين عبثاً إلى حلفائه الأقوياء ، فلم ينجدوه ، واضطر إلى الفرار . وتوفي في المنفى[1]

وكان ابن السعود يسيطر الآن على معظم أجزاء الساحل الشرقي للبحر الأحمر . وكان من الواضح إن أي توسع إلى الشمال لم يكن ممكناً بعد إقامة دولة إسرائيل ، فاتجه سيد القسم الأكبر من الجزيرة العربية نحو الجنوب ، وتمكن بعد سلسلة من الاشتباكات ، من مغالبة الدولة المستقلة الوحيدة الباقية في الجزيرة العربية وهي مملكة الإمام في اليمن . وكان البريطانيون بدورهم ، قد حددوا ممتلكات الإمام في الجنوب عن طريق مركز أمامي أقاموه على ساحل المحيط الهندي . ووجد الإمام نفسه محصوراً بين جارين قويين ، وأخذ يحاول قيادة سفينة دولته الدينية القديمة الطراز وسط جميع هذه الأخطار . وسنرى فيما بعد ، مدى النجاح الذي حققه[2] .

وإلى الجنوب ، وعلى الساحل الأفريقي ، تمتد جبال أريتريا الجرداء موازية طريق المسافرين . وهي تخفي وراءها ، دولة غريبة من مخلفات القديم ، هي دولة الحبشة البدائية السوداء ، تقوم بمسيحيتها ، كجزيرة منعزلة وسط عالم إسلامي . وإذا ما ألقى الإنسان بنظرة إلى الماضي والحاضر ، اتضح له ، أن الانقسامات الجغرافية لم يكن لها شأن مهم في دنيا الواقع . فهذه المجموعات الأرضية التي تحيط بجسر البحر الأحمر ، كانت على الرغم من انقسامها بين قارتين تؤلف وحدة واحدة . لها مصيرها

---

(١) لم يكن المؤلف دقيقاً في حديثه عن نشوء المملكة السعودية ، فقد عقد المغفور له الملك عبد العزيز وكان سلطاناً لنجد اتفاقاً مع الانكليز في عام ١٩١٧ ، ووقف إلى جانبهم في محاربة ابن الرشيد خصمه وحليف تركيا .

(٢) يخلط المؤلف هنا أيضاً من الناحية التاريخية فعندما هاجم الملك ابن السعود اليمن في عام ١٩٣٤ ، لم تكن إسرائيل قد ظهرت إلى حيز الوجود بعد ، إذ أنها ظهرت عام ١٩٤٨ بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين .

وتاريخها المشتركان . وأساطير هذه المجموعة الأرضية وخرافاتها متشابكة بحيث تؤلف نسيجاً مشرقاً ملوناً . فأباطرة الحبشة مثلاً ، يعتبرون أنفسهم ، أحفاد بلقيس ملكة سبأ ، التي حكمت جنوب الجزيرة العربية ، والتي تحدث سفر الملوك الأول في العهد القديم ، حديثاً طويلاً عن تراثها وحكمتها . وكانت الملكة قد ارتحلت إلى بلاط الملك سليمان ، لتعقد معه حلف صداقة ، وتزوجت منه ، ثم حملت غلاماً ، كان هو مؤسس الأسرة المالكة في الحبشة . وهكذا فإن أباطرة الحبشة يعودون في أصلهم إلى الملك سليمان ، الذي يفخرون بانتمائهم إليه . وقد صك الأمبراطور منليك ، بمناسبة احتفاله بانتصاره على الإيطاليين في معركة عدوة ، في عام ١٨٩٦ ، نقوداً ، نقش عليها العبارة التالية التي أخذها من رؤيا القديس يوحنا « لا تبك ، فهوذا قد غلب الأسد في سبط يهوذا » . ونحن نعرف اليوم أن السبئيين ، توغلوا فعلاً في أفريقيا بعد أن انتقلوا إليها من جنوب الجزيرة العربية ، وأقاموا في الحبشة كطبقة حاكمة على الشعب الملوّن ، ولا ريب في أن هذه الحقيقة هي النواة التاريخية للأسطورة .

ومن الغريب ، أن الذكرى الوحيدة التي ظلت حية ، حتى اليوم ، عن جميع الملوك الذين حكموا ضفاف البحر الأحمر ، هي ذكرى هذه المرأة التي حكمت الجنوب ، والتي روى انجيل متى قصتها . وقد رويت عنها قصص عدة ، اختلفت في شكلها وطابعها . ومعظمها يخلو من الذوق والفن . وقد أعاد معظم الكتاب العرب ذكر هذه القصة التي رواها القرآن الكريم ، وهي أن بلقيس ملكة سبأ ، دخلت إلى قاعة في قصر سليمان ، وكانت أرضها من المرايا ، فحسبتها لجة من الماء ، فكشفت عن ساقيها ، أما الثعالبي فيروي القصة على نحو غريب ، إذ يقول ان حاشية الملك سليمان ، وكان رجالها يعارضون في قيام علاقات وثيقة بين المملكتين ، أوحوا له بأن الملكة الزائرة ليست من الأنس إنما هي من الجن ، وأنها شيطانة حقيقية ، وأن ساقيها مليئتان بالشعر كما هي الحالة مع الجن ، وأنها لم تجيء ، إلا لإغواء الملك الحكيم ، وتحطيمه والقضاء عليه ، فأراد الملك أن يتأكد من حقيقة القضية ، وقادها إلى أرض فرشت أرضها بالمرايا الزجاجية ، وعندما كشفت عن ساقيها ، رافعة ثيابها مخافة البلل مما ظنته ماء ، بدا ساقاها أمامه بجمالها الرائع .

وبينما اتجهت خيالاتي إلى قصة الملكة الجميلة ، بدت لي البلاد التي حكمتها ذات يوم على صفحة البحر الزرقاء ، كخيط من الأرض ، وراء الأفق البعيد . وقد أطلقت التوراة على هذه البلاد ، اسم « العربية الغنية » وأطلق عليها الرومان اسم « العربية السعيدة » وجهدوا بكل ما لديهم من قوة لدمجها في امبراطوريتهم . وكانت تمثل إلى العالم القديم الجسر المؤدي إلى الهند ، والسوق التي تباع فيها جميع سلع الشرق الأقصى ، من ذهب وأحجار كريمة ، وتوابل غالية الثمن . وقد ترعرعت فيها الحضارات واحدة إثر أخرى ، وظهرت فيها أعاجيب الاختراعات التقنية ، وسارت منها عبر القرون والأجيال ، والقوافل مثقلة ، وهي تتجه إلى الشمال ، حاملة إلى بلاطات ملوك مصر وبابل وأشور وفارس وأمراء آسيا الوسطى التواقة لكل مظاهر الرخاء والترف ، كنوز الثروة والحضارة . وكانت لها شهرة داوية في العصور القديمة حتى ان الاسكندر الأكبر ، اعتزم بعد إتمام فتح الهند ، الإقامة فيها . وظلت بوصفها بوابة الشرق ، مطمح الغزاة والفاتحين ، يأتونها من الشمال والشرق والغرب . ومعهم أساطيلهم الضخمة ، ولكن أياً منهم لم يفلح في فتحها فتحاً مبيناً تاماً ، حتى الأتراك الذين احتلوها احتلالاً اسمياً مدة خمسمائة عام[1] . وهكذا ظلت اليمن محجوبة وراء ستار خفي ، تماماً كذلك الألق المتوهج الذي يلف سواحلها .

والحديدة نفسها ، التي مررنا على مقربة منها ، تختفي أيضاً عن عيون ركاب البواخر العابرة . وهذا الميناء ، هو الباب الرسمي لليمن . ولا يصعب على المرء أن يقرع الباب هنا . ولكن لا جدوى من مثل هذا القرع مطلقاً . إذ لا يكاد الأجنبي يطأ بقدميه أرض الحديدة حتى يصبح تحت رقابة دائمة ، وهو لا يستطيع الحركة أو التنقل ، دون إذن رسمي ، كما لا تستطيع استقبال أي زائر دون موافقة الملك . وقد يسمح له ، بعد ترقب طويل ، بالوصول إلى صنعاء ، حيث يقيم الإمام ، ولكنه في انتقاله إليها يجب أن يكون مصحوباً بحراسة مشددة ، وأن يتبع طرقاً معينة تحدد له . وتقيم الدماثة والعناية الكيِّسة اللتان يحاط بهما الضيف ، ستاراً حوله لا يستطيع النفاذ

(١) احتل الأتراك العثمانيون البلاد العربية وبينها اليمن اربعة قرون لا خمسة . إذ بدأ احتلالهم لها بعد معركة مرج دابق عام ١٥١٧ ميلادي والتي هزم فيها سلطان المماليك قانصو الغوري على يدي السلطان سليم العثماني .

منه ، ويحول بينه وبين حرية الحركة والرؤيا . فهو لا يستطيع أن يرى ويسمع إلا ما يريد الإمام منه أن يراه ويسمعه

ولم أكن أجد من الجدوى في شيء ، أن أسير في البلاد ، وأنا مغمض العينين . فقد كنت أريد أن أثقب الحجاب ، وان استكشف الداخل المحرَّم في البلاد . وكان تنفيذ مثل هذه الرغبة ، يتطلب مني تخطيطاً سليماً . فعلى حدود اليمن الأقليمية منطقة صحراوية ، تحميها من المتطفلين الدخلاء ، وهي تمتد إلى الشمال . يصعب عبورها على أي إنسان . ولا يحلم امام اليمن مطلقاً ، بأن أي غريب يمكن له أن يطأ بقدمه ممكته ، قادماً من هذا الاتجاه ، وبالفعل ، لم يقم أي غريب من قبل بمغامرة من هذا النوع . وكانت هذه هي الخطة التي رسمتها بالفعل ، آملاً في أن تكون الحدود من تلك الناحية ضعيفة الحراسة . وعلى هذا ، فقد رميت إلى اجتياز تلك الصحراء ، والدخول إلى اليمن بصورة سرية من مؤخرتها . وكان ما يغريني على هذا المشروع أشد إغراء ، ويحملني على السير في هذه الطريق ، انني سأصل إلى بلاد ، لم تطأها قدما أي اوروبي من قبل .

وأخذ الساحلان الأسيوي والأفريقي يقتربان الآن من بعضهما شيئاً فشيئاً . إلى أن أصبحا لا يفصلهما إلا ممر ضيق تحيط به جلاميد من الصخور الصماء ، يسمى مضيق باب المندب ، أو « بوابة الدموع » . ولا أدري كيف اكتسب هذا المضيق ، هذا الأسم المحزن ، وهل كان السبب فيه ما ضاعت بين صخوره من أرواح ، غرقت مع البواخر التي كانت تستقلها . أو لأنه كان منذ عدة قرون الممر الذي تعبر عليه قوافل الشحنات البشرية من العبيد ، الذين يتم اقتناصهم في أفريقيا ، ثم ينقلون إلى أسواق آسيا ليباعوا في أسواق نخاستها . والذين كان ندبهم وعويلهم يرتفع إلى عنان السماء ، عندما يعبرون هذا المضيق ، مودعين بذلك أرض آبائهم وأجدادهم في أفريقيا . وما زالت حتى اليوم بعض المراكب الشراعية الصغيرة ، تتسلل خفية عبر المضيق الضيق ، في الليالي الحالكة السوداء ، وتفرغ شحناتها من العبيد ، في إحدى الخلجان التي لا عد لها ولا حصر على الساحل العربي . وقد أقامت ثلاث دول كبرى هي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، مستعمرات لها على طرفي هذا المضيق . وفي وسطه ، تقوم صخرة شاهقة كالبرج السامق ، تقف كنقطة مراقبة .

وهذه الصخرة الجرداء المتوهجة ، التي تتحمل خفقات الرياح ، تؤلف بقعة معتمة وسط زرقة البحر . وقال أحد الرفاق الأنكليز المسافرين معنا على الباخرة ، انها « صخرة بصقها الشيطان هنا » . إنها أشبه ما تكون بصخرة جبل طارق . وقد سلبها الأنكليز بمناورة بارعة من الفرنسيين في نفس اللحظة التي كان أول معول يضرب الأرض في حفر قناة السويس في الطرف الشمالي من البحر الأحمر ، في ظل إشراف الفرنسيين .

وانتهى اليوم في ألق رائع يقطع الأنفاس من الذهب والأرجوان ، وذلك عندما لاحت أمامنا ، مداخل المحيط الهندي . ومع هبوط الظلمة بسرعة ، أخذت أضواء الصخرة التي يطلقون عليها اسم « بريم » تتابع سير باخرتنا مدة طويلة ، وكأنها عين العناية الإلهية تتولى حراستنا .

ومررنا في الصباح التالي على مقربة من ساحل جنوب الجزيرة العربية وأخذت رطوبة جو البحر الأحمر ، القاتلة بحرها الشديد ، تنجلي عنا شيئاً فشيئاً . وغدا في وسع الإنسان أن يرتدي ملابسه في الصباح ، دون أن يغطي العرق جسده فوراً وهب علينا نسيم بليل منعش . واجتازت باخرتنا ، سفينة صغيرة ، كانت تتراقص فوق أمواج البحر . إنني أعرف هذه السفينة خير معرفة ، فهي « أفريقيا » التي تبحر دائماً من الحديدة . وانتشرت زوارق الصيد ، فوق مياه البحر اللازوردي ، وكأنها نتف من القطن مبعثرة هنا وهناك .

وحوّلت باخرتنا اتجاهها ، فسارت إلى ميناء عدن ، التي لاحت بيوتها متألقة بيضاء ، في شمس الصباح ، بين مسيّفين ضخمين من الصخور يحملان قمتين مدببتين ، ويمتدان مسافة بعيدة داخل البحر .

- ٣ -

الحكّام صغاراً وكباراً

قررت السفر من عدن مباشرة إلى المكلا ، مستقلاً الباخرة الساحلية الصغيرة ، وأن أمضي من هناك عبر حضرموت إلى الصحراء . ولكن عندما نزلت إلى الميناء من باخرتي ، التي كنت استقلها ، علمت أن هذه السفينة الساحلية قد أبحرت إلى المكلا في ذلك الصباح ، وأن السفينة الثانية لن تبحر قبل أسبوعين .

ولم تكن السلطان البريطانية راغبة في منحي إذن دخول إلى حضرموت كمجرد عمل شكلي ، وكان سلطان المكلا الذي أعتبره ، نصيراً كبيراً لي ، والذي كان لعونه الفضل في تمكني من إلقاء النظرة الأولى على جنوب الجزيرة العربية ، غائباً عن بلاده عند وصولي إلى عدن ، إذ كان يقيم في الهند ، مشرفاً على أملاكه في إمارة حيدر أباد ، وكان من المستحيل عليّ تبعاً لذلك ، الاتصال به . وكانت الدعوة الشخصية التي أحملها من سعيد الكاف ، حاكم تريم ، غير ذات جدوى مؤقتاً أيضاً . وقيل لي ان الوضع في البلاد في مجموعه ، غير آمن . وان الأوروبيين يعتبرون متطفلين لا يرحب بهم . ان الغزو والسلب ، هما العمل الرئيسي الذي يقوم به السكان . وقيل لي أيضاً ، والنظرة الشزراء لا تفارق عيون محدثي من ممثلي السلطان البريطانية ، ان السفر وحيداً ، في طرق البلاد ، وأوضاعها على هذا النحو ، جنون مطبق . ولكنهم على أي حال ، على استعداد لطرح الموضوع على ممثل سلطان المكلا ، وعلي أن أنتظر الرد .

وتعني كلمة « عدن » في اللغة العربية ، جنان النعيم والفردوس ، وهكذا فإن

ثمة نظريات تقول إن عدن ، هي نفس المكان المذكور في سفر حزقيال في التوراة . وكثير من الثروات التي كانت ترد من البلاد الأسطورية النائية ، كانت تنقل عن طريق عدن . وكان الفينيقيون يعرفونها ، ويعتبرونها أهم المراكز التجارية في جنوب جزيرة العرب ، وجاء الرومان بعد ذلك ، فاحتلوا شبه الجزيرة ، وظلوا قائمين على احتلالها حتى القرن السادس . وبعد فترة فراغ ، سيطر فيها الأحباش ، عاد الفرس ، فأعادوا عدن إلى حظيرة حضارتهم .

وتؤلف عدن اليوم إحدى النقاط الأربع الرئيسية التي تتولى حماية طريق بريطانيا البحرية الرئيسية ، التي تمتد من أعمدة هرقل على الأطلنطي (جبل طارق) ، عبر البحر الأبيض المتوسط إلى مضيق باب المندب ، أما هذه النقاط الأربع ، فهي جبل طارق ومالطه وقبرص وعدن .

وتقع عدن في شبه جزيرة بركانية صغيرة ، ضمن مخروط بركاني خامد ، يندفع بروزاً إلى داخل البحر .

وليس ثمة الكثير مما يقال ، في إطراء عدن اليوم ، والثناء عليها . فمن الواضح أن الصخرة البركانية الجرداء ، التي تتألف منها شبه الجزيرة الصغيرة ، قاحلة ومهجورة . ولا تنبت الأرض التي تكثر فيها الأملاح ، إلا القليل من الأعشاب الشوكية ، وإذا ما ظهرت بعض النباتات الخضراء في الحفر أو الأخاديد ، فإن حرارة الشمس سرعان ما تجففها . وقد تصلّب السائل البركاني ، وتحوّل إلى أبراج عالية من القنن الوعرة ، والجروف الحادة ، وتنشطر هذه القنن والجروف وتنقسم بواسطة أخاديد عميقة وشقوق واسعة ، تاركة فيها أثاراً جميلة . وإحساساً من العرب بما في بلادهم ، من فردية في مناظرها ، تتحدث أساطيرهم ، عن وجود قبر قابيل ، أول قاتل في البشرية[1] ، في هذه المنطقة الصخرية الجرداء . وهناك أخدود مظلم في طرف الجرف يشير إلى هذا القبر .

وكانت الأمطار تؤلف حتى عهد قريب مصدر المياه الوحيد . وتجمع مياه أي

---

(١) أسطورة قابيل وهابيل ولدي آدم ، فقد قتل الأول أخاه ، فكان أول من ارتكب جريمة القتل في العالم .

ينبوع صغير في بحيرات صناعية ضخمة ، تعود في أسسها التقنية الكاملة إلى أقدم عصور التاريخ ، وإذا لم يكن ثمة مطر متساقط ، كما هو الوضع الصحيح ، فإن المياه اللازمة يؤتى بها من البر ، عبر طريق انشئتْ خصيصاً لهذه الغاية . وأدى حفر الآبار إلى أعماق ضخمة في الوديان إلى اكتشاف عدد من الينابيع بعد الحرب الكونية الأولى . ويقول ابن جبير[1] في وصفه للبلاد العربية الذي كتبه عام ١٢٠٠ ، « إن مناخ عدن من السوء ، بحيث يتحول جميع النبيذ فيها إلى خلّ في أقل من عشرة أيام » . ولا ريب في أن هذه الملاحظة غريبة من نوعها من رحالة مسلم .

وإذا ما وقف المرء على قمة جبل جمر أو « جم جم) كما يسمى في عدن ، اتضح له ، لماذا تسابق الفاتحون دائماً على الاستيلاء على هذه البقعة من الأرض . فعند قدميه يمتد الميناء الذي يشبه المنجل العريض في شكله ، وقد حمى مدخله مسيّفان توأمان من الصخور البركانية . ويقع هذا الميناء على عتبة الغرب ، وهو من الاتساع بحيث يمكن للأسطول البريطاني كله أن يجد الملجأ الأمين فيه . وكانت سفن السبئيين تفد إليه ، تفرغ محمولها من كنوز الهند والجزر الشرقية والملايو ، أو تعد العدة للقيام برحلات جديدة إلى مستعمرات الساحل الأفريقي . وقد غدا في الإمكان مؤخراً التثبت من أن أهل سبأ بنوا المدن والمعابد في أماكن نائية وصلت اتحاد جنوب أفريقيا الحالي ، وكانوا يحملون من تلك البقاع ثرواتها المعدنية كغنائم .

وقد انقضى الآن نحو من قرن على العلم البريطاني ، وهو يرفرف على هذا الميناء . وقد تم احتلاله على النحو التالي : اجتذب أهل عدن اهتمام الأمبراطورية البريطانية التي كانت آخذة في الاتساع بصورة طائشة حمقاء ، إذ هاجموا باخرة بريطانية كانت جانحة خارج الميناء وسلبوها ما فيها ، جرياً على عاداتهم ، وأساءوا معاملة رعايا صاحبة الجلالة[2] ، ولما رفض السلطان الحاكم ، دفع التعويض ،

---

(١) ابن جبير : رحالة عربي مشهور عاش في القرن السابع الهجري وطاف في العالم المعروف في عهده ، وكتب مخطوطة ، رحلة ابن جبير .

(المعرب)

(٢) نسبة إلى الملكة فكتوريا ، التي حكمت بريطانيا القسم الأكبر من القرن التاسع عشر .

(المعرب)

وهدد باعتقال الموظفين الأنكليز الذين جاءوا للتفاوض ، ظهرت السفن الحربية البريطانية في الميناء وقصفت المدينة بمدافعها واستولت عليها . واضطر السلطان إلى الفرار ، واتخذ منذ ذلك التاريخ مقراً له في لحج الواقعة في الداخل . وقد روت كتب التاريخ البريطاني قصة احتلال عدن في عام ١٨٣٩ ، وجعلتها حدث مهي ، إذ أنها كانت الإضافة الأقليمية الأولى للأمبراطورية في عهد الملكة فكتوريا .

ويجب أن يقال مع ذلك ، وهو أمر يطري به العرب أن هؤلاء الذين كانوا يملكون في يوم من الأيام أمبراطورية يسمونها أمبراطوريتهم ، لم يرضوا عن هذا التطور في الأحداث .ـ وحاولوا طيلة عدة حقب متلاحقة محاولات جريئة ويائسة استعادة عدن أولاً بقيادة السلطان نفسه ، ثم بزعامة خلفه . واضطرت بريطانيا أخيراً إلى إقامة نطاق من الأمن حول شبه الجزيرة ، باحتلال مساحة شاسعة من أرض البر الواقعة على ساحل الجنوب العربي ، وفرض الحماية عليها ، وعوّضت الحكومة البريطانية على سلطان لحج الذي أضاع استقلاله ، بجعل سنوي ، أخذت تدفعه له مقابل الحماية التي فرضتها على بلاده .

وينظر البريطانيون من عسكريين ومدنيين إلى جزيرة عدن ، على أنها القاعة الخارجية المؤدية إلى الجحيم . أما أنا فقد كنت أنظر دائماً إليها على أنها الفردوس . وعندما كنت أؤوب إلى عدن ، بعد رحلات على ظهور الإبل ، تستغرق شهوراً طويلة ، وتستنفد الكثير من الجهود التي لا تحتمل ، كنت أرى فيها عصارة المدنية ، وأجد فيها جميع تلك « اللطائف » الصغيرة من الحياة العصرية التي يألفها كل من يعيش معها ، ولا يكترث بها ، ولكنه إذا ما افتقدها ، شعر بما لها من أهمية قصوى . وكنت ألقى فيها دائماً المسكن المريح في ضيافة الهر (م) ، وهو من كبار رجال الأعمال الألمان . وقد جال هذا الرجل أنحاء العالم وكان في الماضي يعمل في تجارة الفراء في أصقاع الاسكا النائية ، ثم انتقل منها ليعيش حياة التبطّل فترة من الوقت ، وعاد بعد عشرات وكبوات عدة ، فأوجد لنفسه تجارة جديدة ومربحة في مجالات النشاط في عدن . وقد رافقته مرة واحدة فقط إلى مقر عمله . فرأيت ألوف جلود الماعز ، وقد علقت في كوخ خفيض من الصفيح تنتظر من يبتاعها من أهل الساحل

العربي . وكان يقوم بفصل الجلود الجديدة المدبوغة طبقاً لجودتها وصلاحها للعمل . ويتطلب مثل هذا العمل خبرة فنية لا يملكها إلا الهر (م) نفسه . ويستغرق العمل عدة ساعات كل يوم . ولم يكن في وسعي أن احتمل الرائحة الكريهة أكثر من خمس دقائق . وكان علي أيضاً أن أشكر السيد (م) على الجهود الكبيرة التي بذلها لاستعادة بعض أشرطة الصور التي فقدتها في حضرموت وقد استطاع استرجاعها وإرسالها إلي في ألمانيا بعد بضعة أشهر من عودتي إلى الوطن .

وكان بيته مجهزاً بكل المعدات التي تعتبر ضرورية في المناطق الاستوائية ، كما كان يضم عدداً كاملاً من الخدم ، وبينهم طباخ ممتاز في مهنته وفنه ، ووصيف ، وعدداً من الكلاب والقطط ، وقردين ، وتقدم القطط أمثولة كلاسيكية رائعة ، لما تعنيه الحياة البيتية حقاً . وكنت أرى أحد هذه القطط ، يأتي كل يوم من حوض صغير للأزاهير أقيم في زاوية من زوايا المنزل . وفي ذات صباح ، سمعت صرخات خافتة وتبينت أن احدى القطط قد وضعت ستة مواليد جديدة تحت سريري في الليل . أما القردان فكان اسم أولهما ماكس والثاني موريتز ، وكان الجيران يتضايقون كل الضيق من حيلهما وألاعيبهما . وفي ذات يوم قاما بزيارة مصرف قريب ، ودخلا غرفة الصراف ، وأثارا الفوضى في رزمات من أوراق النقد كان الصراف المسكين قد قضى وقتاً طويلاً في حسابها ، وسرعان ما جلس موريتز فوق رأس الصراف . وكان هذا آخر ما قاما به من أعمال ، إذ أجبر صاحبهما على التحلص منهما .

وقمنا بعد ظهر ذات يوم ، بعد أن كانت حدة حرارة النهار قد خفتت ، برحلة إلى البر المقابل لعدن ، وبزيارة إلى سلطان لحج ، وكانت سيارة مضيفي من طراز سيتراون ، قديمة قد مضى عهدها ، وغدت خربة ، بعد أن فقدت الكثير من أجزائها وقطعها . ومع ذلك فقد سارت سيراً مرضياً ، وسرعان ما غرقت عجلاتها في أرض رملية رخوة ، ولكن عدداً من البدو سارعوا لمساعدتنا ، وهم يغنون ويهتفون ، وأخذوا يدفعون العجلة التي طمر نصفها في الرمل إلى أرض صلبة . وقد تكرر هذا الحادث عدة مرات .

وبعد أن اجتزنا الشيخ عثمان ، وهي أول المدن الواقعة في البر ، وفيها الكثير

من الملاّحات المنتجة والمهمة ، التي تشرف على إدارتها شركة إيطالية ، وصلنا إلى مركز للشرطة وحاجز للطريق ، وهما معزولان تماماً في منتصف المنطقة الخالية المكشوفة . التي لا طرق فيها . وكان علينا أن نبرز الوثائق الرسمية والأذونات التي نحملها . ولا يسمح الأنكليز ، لأي إنسان باجتياز هذه المنطقة ، دون إذن من حاكم عدن ، إذ أنهم لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن سلامة الأوروبيين وراء هذا الحاجز .

وظللنا نرتحل عبر الصحراء ساعات طويلة ، ولم نكن نرى شيئاً ، سوى الرمال الشاحبة الجرداء ، وقد انتشرت فيها بعض الأشواك والنباتات الصحراوية الجافة ، ومرّت فيها وديان صخرية خالية من الماء ، وانتثر فيها بيت أو بيتان من الشعر ، هنا وهناك ، يقيم فيهما البدو ، وليس ثمة في هذا المكان طائر يغرد ، أو نأمة لإنسان ، تبدد هذا الصمت المطبق ، وكان أكثر ما نراه قافلة من الجمال ، تمضي في طريقها صامتة ، تدوس الرمال ، وتسوقها بعض الحمير .

وفجأة ارتفع أمامنا في الأفق ، منظر رائع ، وكأن مسة سحرية قد أصابته ، فبعثته إلى الحياة ، إنها قصور ذات أبراج ، تشرق بيضاء لامعة ، كالمرمر وقد ارتفعت سقوفها المدورة وشرفاتها الرقيقة . وكان الشيء المدهش ، أن جميع هذه المناظر ، بدت عائمة في الهواء ، وكأنها مرسومة على نقطة إنحدار السماء الزرقاء نحو الأفق ، وقد ضمت أرق الألوان وأكثرها وداعة . وعندما اقتربنا ، أخذنا نبصر الخطوط العريضة للمدينة ببيوتها السمراء المربعة ، وقد تشابكت مع بعضها ، وثبتت أقدامها في الأرض . وتبينا سبب ما أصابنا من خداع النظر من بعيد ، فالبيوت كلها مؤلفة من أكثر من طبقة واحدة ، وجميع طبقاتها العليا مصبوغة باللون الأبيض أما الطبقات السفلية فلونها من لون التراب ، وهذا الذي جعلها تبدو لنا من بعيد وكأنها معلقة في الفضاء . وتغيّر منظر الأرض أيضاً بصورة مفاجئة ، وأخذ الوادي الجاف الذي كنا نسير بجواره منذ مدة طويلة ، يبدو فيه الماء شيئاً فشيئاً الآن ، وتسيل هذه المياه نحو الحقول التي تنتشر الخضرة فيها عبر عدد من القنوات والمجاري . وكانت هامات أشجار النخيل النحيلة ، وقد ثقلت بالأثمار المعلقة فيها ، تنحني فوقنا ، بينما اكتظت

الدروب ، بأبناء البلدة ، يعودون إلى بيوتهم من أعمالهم عند مغيب الشمس . ورايت أطفالاً سمراً من العرب تعرّت صدورهم ، يسوقون أمامهم الأبقار إلى زرائبها ، وحيّانا هؤلاء الغلمان تحية ودية ، بينما نظرت إلينا النسوة وكن يرتدين أوشحة زرقاء ، نظرات فيها الكثير من الخفر والحياء . ورأينا أمامنا بوابة واسعة من الطين سرعان ما ابتعلتنا ، فقد وصلنا إلى لحج .

وليس في وسع إنسان أن يزعم أن عظمة سلطان لحج ، السيد عبد الكريم ، يتمتع بمنصب خال من المتاعب على الرغم من حماية الأمبراطورية البريطانية ، إذ أنه على النقيض من ذلك ، يعيش في جو من القلق والمتاعب .

فلقد اختلفت الأمور أشد اختلاف عما كانت عليه قبل عام عندما قمت بزيارته زيارة قصيرة . فلقد كان ذلك اليوم ، عيداً إسلامياً ، دعيت لحضوره ، ومنذ ساعات الصباح الباكر جلس السلطان عبد الكريم على مقعد كالعرش في حديقة قصره الذي بناه حديثاً ، والذي كان ينطوي على مظهر البذخ أكثر من انطوائه على حقيقة الجمال ، ولا يحمل إلا آثاراً من أمجاد الفن العربي العريق وكانت حديقة القصر مرتبة أيضاً على نمط الذوق الأنكليزي . وأخذت وفود شيوخ البلاد وزعمائها تصل القصر لتقدم الولاء للسلطان ، وبين هذه الوفود عدد من السلاطين والشيوخ والأمراء ورؤساء العشائر ، التي تدين بالسيادة لسلطان لحج . وكانوا جميعاً يفدون في مواكب متكبرة وقد اعتلوا ظهور جيادهم ، أو هجنهم ، ومعهم مستشاروهم ووزراؤهم وجنودهم . وكان العرض كثير الألوان والزخرفة ، فبعض الوافدين نبلاء بارزون يرتدون الملابس الفاخرة ، الموشاة بالذهب ، ولا يقل رجال حاشيتهم ، عنهم في أناقة الثياب وزخرفتها . ثم يفد فريق آخر من شيوخ البدو أنصاف العراة ، وقد امتدت على وجوههم السمر ، جدائل من الشعر الأسود ، وهم وسط حشد كبير من الرفاق الذين لا يقلون عنهم خشونة ، ولكن جميع هؤلاء الوافدين ، حتى أشدهم فقراً ، كانوا يحملون أغلى الأسلحة ، من حراب ، وخناجر موشاة بالذهب لها مقابض مزخرفة ، وقرابات من الذهب أو الفضة ، وتجتذب هذه الأسلحة اهتمام الأوروبي لا بمادتها بل بما في أشكالها من روعة فنية ، وصناعة ماهرة ، وهما لا تتحققان إلا بعد أجيال طويلة من التدريب على العمل اليدوي ، الذي يصحبه

الذوق السليم من التخطيط والتنفيذ ، وقد ذاع صيت صناع الأسلحة العرب حتى أقدم عصور التاريخ .

وأخذ هؤلاء الوافدون من الشيوخ والوجوه يترجلون عند مدخل الحديقة ، ثم يتقدمون على رأس أتباعهم ، فيركعون على أقدامهم أمام السلطان ، ويقبلون يده ، واستمرت عملية تقديم الولاء هذه ، أكثر من ثلاث ساعات ، وكانت العملية كلها ، تمثيلاً رائعاً ، لا يعدو أن يكون إيماءة طيبة ، لا تتجاوز المظاهر ، فلا تتعدى سلطة السلطان في الحقيقة ، حدود مقاطعته في لحج نفسها . فجميع هؤلاء الأمراء والشيوخ . يعملون في إمارتهم ما يريدونه ، إذ أنهم يحكمون قبائلهم حكماً مطلقاً ، وهم يواصلون السير على تقاليدهم كسادة إقطاعيين فيشتبكون في حروب محلية عديدة ، وقد غدا النهب والغزو من موارد عيشهم الطبيعية .

وبعد انتهاء هذا الاحتفال الشكلي الذي يشبه احتفالات القرون الوسطى ، ظهر عرض من طراز آخر ، يمكن أن يقام في أي جزء حديث من أجزاء أوروبا . فقد جاء ناظر مدرسة لحج مع طلابه ، ووقف بين عظماء المملكة ، وبعد أن أنشد الطلاب مجتمعين ، عدداً من الأناشيد ، أخذ بعضهم يتقدمون فرادى ، فيتلون قصائد شعرية تتحدث عن سير الأبطال وأعمال البطولة ، في عربية طنانة رنانة ، لا يمكن أن تظهر إلا في مثل هذه الألحان المختلفة . وكانت الطريقة التي أدى فيها هؤلاء الغلمان الذين لا يتجاوز عمر الواحد منهم الثانية عشرة أدوارهم ، باعثة على الدهشة ، فقد كانوا يؤكدون القصص البطولية التي يسردونها بإشارات طبيعية من أيديهم لا تخلو من الجلال . وكانت أجسامهم تهتز كلها مع الشعر اهتزازاً على الفن التعبيري الرائع ، الذي يتفق مع المواقع التي يسردونها .

وسيطر علينا نحن معشر النظارة ، سحر هذا المنظر الأخاذ ، وكنا نصغي وقد تقطعت أنفاسنا ، وكأن الحوادث التي يصفها هؤلاء الطلاب ، تقع فعلاً أمام أعيننا ، حقاً إنه إنجاز ثقافي من طراز كلاسيكي رفيع ، وكان أحد حكماء الصين ، قد تحدث عن المواهب الخاصة والبارزة لمختلف الشعوب ، فذكر أن الأوروبيين

يتفوقون في القوى العقلية ، وأن العرب يتفوقون في استخدام اللسان ، أي في التعبير بالكلام .

ولقد كان الشعر والبطولة حقاً القطبين الرئيسيين اللذين تدور حولهما الحياة العربية منذ أقدم عصورها . وكان الزعيم الحقيقي ، هو ذلك الرجل الذي يستطيع البرهنة على نبوغه فيهما . وما زال هذا القول ينطبق على الوقت الحاضر ، إلا إذا اعتبرنا أن اتصالات هذه الأيام ، قد أسفرت عن انخفاض في مستواهما ، إن لم نقل عن تقهقر وانحطاط . ولقد كان ابن سعود محقاً تمام الحق ، عندما أصر على إبعاد بعض التأثيرات الغربية المعينة عن أواسط مملكته العربية .

وتجلّى العنصر الحربي في الوجود العربي في احتفالات بعد الظهيرة في أعمال الفروسية ، وهي جزء لا غنى عنه من احتفالات العرب التي لا يسمح للنساء بمشاهدتها . فقد اشعلت نار ضخمة وسط الساحة الكبيرة القائمة أمام قصر السلطان الصيفي خارج البلدة ، وقد جلس حولها الموسيقيون . وكانوا يدفئون جلود طبولهم المعدنية الضخمة على النار بين الفينة والفينة ، ليحافظوا على ما في هذه الجلود من توتر وليحولوا بينها وبين الاسترخاء . وكان عدد من الفرسان الفرادى ، يندفعون على نغمات الموسيقى إلى الحلبة ، ويقومون بأعمال فروسية تشير إلى منتهى الجودة والجرأة . وكنا نرى الفارس يندفع بفرسه في غارة سريعة ، ثم لا يلبث أن يختفي عن ظهر الجواد فجأة إذ انقلب تحت بطنه تاركاً قدمه معلقة في الركاب ليس إلا ، ثم يعود بعد لحظات ، فيقف منتصباً على الجواد ، وهو يطلق النار من بندقيته . ولم يكن الهجانة أقل براعة من الفرسان ، فكثيراً ما كان الهجان ينطلق راكضاً إلى جانب هجين راكض ، وسرعان ما يمتطي صهوته بقفزة واحدة ، دون أن تتخلى يده لحظة واحدة عن البندقية التي يحملها بها . أما كيف كان هؤلاء يقومون بمثل هذه الأعمال ، فما زال ذلك سراً لم استطع حله أو اكتشافه . وسرعان ما رأيت فريقين يشتبكان في معركة صورية ، تدور فيها حركات الهجوم والفرار والمطاردة والكر . وانتهى الاحتفال كله وسط عاصفة صاخبة من الغبار ، وصهيل الجياد ، وقرقعة الفرسان ، ودوي الطلقات ، وقرع الطبول . وكاد النظارة وقد استبد بهم الحماس يهرعون إلى الحلبة ، للإشتراك في هذا الصخب العجاج .

كان هذا كله في الزيارة الأولى ، وكان السلطان في أوج سطوته وعنفوانه ، أما اليوم وفي هذه الزيارة الحالية ،فكانت سحابة قاتمة سوداء تجلل بيته وأسرته . ومع ذلك ، فقد استقبلني الحاكم ، الذي كان قد ابيضّ شعره ، بما عهدته فيه في المرة الماضية من لطف ، في قاعة القصر الكبرى ، التي يستقبل فيها عادة مستشاريه ورجال حاشيته ، قبل أن ينسحب في المساء إلى قصر الحريم . ورأيت في عينيه علائم الحزن والجهد ، وسرعان ما سمعت بالحادث المؤلم ، الذي كان في الحق ، سبباً كافياً لما يشعر به من انحطاط في قواه . وكانت الشيخوخة قد جعلت أعباء الحكم منهكة له ولقواه . فأراد أن يتنازل عن العرش ، وأن يسلّم مقاليد الحكم لولده ، ليضمن خلافته له ، إبان حياته . فالتقاليد في البلاد العربية لا تحتم انتقال العرش بالوراثة ، وتنص هذه التقاليد ، على اختيار الحاكم من أكثر أفراد أسرته كفاية وجدارة ، وقد افادت بعض العشائر النبيلة القوية من هذا التقليد ، وأسمت مرشحاً لها لخلافة السلطان رجلاً من شيوخها ، لقي الكثير من التأييد لدى الأهلين . وهكذا ظهر فريقان ، وأخذت الخلافات تشتد حدة يوماً بعد يوم ، إلى أن وصلت حد إطلاق النار والقتال ، في اجتماع كان الأمير فضل نجل السلطان يشهده ، فأصيب بجراح ثخينة ، وأدت إصابته برصاصة في رأسه إلى ضياع إحدى عينيه ، وسرعان ما نقل إلى عدن ، حيث قام الأطباء البريطانيون على العناية به وتعهده بالعلاج والرعاية . ولما كان شفاؤه الكامل غير متوقع أبداً ، فقد أصبح بصورة أوتوماتيكية آلية ، محروماً من ولاية عرش لحج .

وأصيب نفوذ السلطان بضربة قاصمة أخرى ، من ناحية ثانية ، فسخاء الحاكم أو كرمه ، هو الفضيلة الرئيسية وفقاً لتقاليد العرب وتفكيرهم . والأمير الذي لا يقوم بتوزيع الأموال بسخاء وبذخ ، في شكل عروض من الأبهة والعظمة ، أو صدقات وهبات يقدمها إلى الكبراء ، يفتقر إلى أهم مقوّمات المنصب . وكان هذا لسوء الحظ ، هو الوضع الذي وجد سلطان لحج نفسه فيه الآن . فإمام اليمن ، الذي غدا حاكماً مطلقاً بعد زوال الأمبراطورية العثمانية ، أخذ يطالب بالمناطق الساحلية الواقعة تحت الحماية البريطانية على أساس أن هذه المناطق كانت دائماً جزءاً من اليمن منذ أقدم عصور التاريخ ، وإنها تبعاً لذلك يجب أن تضم إلى مملكته ، ولما كان إمام

اليمن ، من الحكمة بحيث رأى أن لا يخوض المعركة مباشرة مع القوة الطاغية (أي انكلترا) ، فقد رأى أن المعركة يجب أن تخاض مع تابعها أي مع سلطان لحج . فاصدر أمره ، بوقف جميع القوافل عن المرور في سلطنة لحج ، وبدأت تجارة اليمن تنتقل منذ ذلك الحين بطريق البحر من عدن إلى الحديدة مباشرة . وكانت لحج تستوفي رسوماً على البضائع التي تنقل بطريق التجارة العابرة (الترانزيت) ، في أراضيها . وكانت هذه الرسوم ، تأتي لها بدخل طيب ، إذ كانت صادرات اليمن من الجلود وحدها تربو على المائة ألف جنيه في العام الواحد . وقد فقد سلطان لحج بسبب هذا الإجراء المعادي الذي قامت به حكومة اليمن المورد الرئيسي لدخله ، وكانت مساعدات بريطانية المالية له من الضآلة ، بحيث لا تستطيع أن تفي بالواجبات المترتبة عليه بوصفه سلطاناً للمنطقة طبقاً لعادات البلاد وتقاليدها .

وحللنا في ضيافة السلطان في أحد بيوته الكثيرة ، وكان قد خصصه ، لإقامة رجلين ألمانيين ، هما الأوروبيان الوحيدان اللذان يعيشان في لحج .

وكان هذان المواطنان قد اضطرا إلى الخروج من المانيا طلباً للعيش في الخارج ، كغيرهما من الألمان الذين انتشروا في مشارق الأرض ومغاربها . وكانا قد جاءا من الحبشة قبل ثلاث سنوات ، وأفاد منهما السلطان في بلاطه ، فهما يقومان بكل عمل تقريباً ، من الأعمال الفنية ، إذ يديران مضخات المياه ، ويتوليان إصلاح سيارات السلطان وأجهزة الحكي في قصره ، وقد أقاما له محطة توليد كهربائية . وكان السلطان يقدر لهما خدماتهما كل تقدير ، ولكنه لم يعد قادراً على أن يدفع لهما رواتب كافية ، بسبب الضائقة المالية التي يعانيها . وقد اضطر الرجلان بعد وصولنا إلى حزم متاعهما ، ومغادرة البلاد سعياً وراء الرزق ، إلى حيث تنقلهما أقدامهما ، وقد سمعت فيما بعد ، أنهما قد ذهبا إلى الهند .

وتمكنا قبيل غروب اليوم التالي ، من إعداد سيارتنا ، فسارعنا إلى مغادرة لحج . ولم نكن قد أبلغنا السلطان ، برغبتنا في مواصلة الرحيل إلى داخل البلاد ، إذ كان مجرد الحصول على ترخيص بذلك ، سيؤدي إلى مفاوضات لا نهاية لها ، تدور على النحو العربي المألوف . وكان مثل هذا الترخيص ، يقضي بإيفاد حرس لمرافقتنا

وهذا ما كنا نحاول الابتعاد عنه ، لما قد يؤدي إليه من عرقلة لمشروعنا .

ومضينا في سيارتنا عبر الوادي الخصيب الذي يسيل فيه نهر طيبان والغني بما فيه من أشجار الموز والمانجا . ولكن الصحراء تبدأ مباشرة وراء أطراف هذه البساتين ، وليست هذه الصحراء ، بالشيء الميت كما يبدو ، ولكنها وجود خطر ينبض بالحياة ، فالرمال ، وهي عنصرها المتحرك ، والتي تهتز من أقل هزة من الريح ، دائمة الحركة ، والتنقل تنقلاً مريباً مشؤوماً ، ساعية إلى دفن كل ما يقف في طريقها . وهكذا فإن ثمار الجهد الإنساني تظل مهددة دائماً بالدمار ، ولا يستطيع الناس إلا عن طريق الكد المستمر والذي لا ينتهي ، من اقتناص لقمة العيش اللازمة لوجودهم من قبضة الطبيعة التي لا ترحم . ولا ريب في أن حديث الناس المألوف عن كسل أهل المناطق الاستوائية ، يبرهن في هذه البلاد ، على أنه مجرد خرافة ليس إلا .

ووصلنا عند المساء إلى قرية كبيرة تسكنها قبيلة « الحوشابي » . وكان منظر الأكواخ الحقيرة المبنيّة من الطين يوحي بانطباع سيء ، ولكن جدرانها السمراء كانت مزخرفة باللون الأبيض ، وقد رسمت عليها صور غريبة كما كانت الجوانب المتلويّة ذات الرؤوس المدببة التي لا حد لها ولا حصر ، والتي تحيط بأبواب الأكواخ ، ترمز إلى تصاميم غير مألوفة في حاضرنا ، وقد تعود بأصولها إلى أيام ملوك سبأ . وقد يكون هناك ما يؤيد هذه النظرية ، إذ أن أفراد قبيلة « الحوشابي » قد احتفظوا بعدد من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصور ما قبل التاريخ . فبالإضافة مثلاً إلى القبور الإسلامية المألوفة ، هناك على مقربة من قرى هذه القبيلة ، إهرامات طويلة مدببة الرؤوس ، ومنفصلة عن بعضها البعض . وليست هذه الأماكن إلا مثاوي شيوخ القبيلة أو الشخصيات التي يتمتع أصحابها باحترام خاص ، لأنهم كانوا قادرين على شفاء المرضى ، وكانوا تبعاً لعرف القرون الوسطى من السحرة الذين يتمتعون بقوى غيبية . وعلى مقربة من القبور الحقيقية ، تقوم مجموعات من الحجارة الناعمة . ويأتي سكان هذه القرى ، في أيام معينة من السنة ، في جماعات في الليل ، ويدهنون هذه الحجارة بالزيت ، وهو تقليد معروف منذ أقدم عهود الوثنيين .

وما كدنا نصل إلى القرية ، حتى أحاط جميع سكان القرية بسيارتنا . وقد رحبوا بنا ترحيباً ودياً ، وعرضوا علينا أحد منازلهم لنحل فيه ، ولكننا آثرنا قضاء الليل في العراء ، تحت قبة السماء ، ويبدو أن سلوكنا قد أساء إلى الأرواح التي تخيّم على المكان ، فبعثت إلينا جيوشاً كاملة من البعوض ، ومن ذباب الرمل ، عقاباً لنا على سلوكنا . وحالت هجماتها بيننا وبين النوم ، وإذا ما تجاهلنا ذلك ، كانت الليلة رائعة . وكانت النجوم اللألاءة ، تلقي ضوءاً أزرق خافتاً . وكان المخروط الطويل ، لأحد اهرامات المدافن ، يقف على طرف الصحراء الصامتة ، وقد أحاطت به هالة سحرية . وضاع الزمن ، في هذا الخواء الذي لا نهاية له ، وأخذت أفكر في التشابه القائم بين الديانات البدائية ، التي آمن بها الجنس البشري ، إيماناً سطحياً لا عمق فيه . وأذكر انني قرأت في التوراة حديث دهن الحجارة بالزيت ، وهذا ليس بالمستغرب ، فالعرب والإسرائيليون يمتون إلى نفس الجنس السامي ، ولكن هذه العقيدة القديمة توجد أيضاً عند الهندوكيين في الهند . وكانت الإدارة الأنكليزية تجد صعوبة كبيرة ، في حماية الحجارة البيضاء التي توضع كعلامات فارقة للطرق من الدهانات بالزيت ، وكان الهندوكيون كثيراً ما يأخذون هذه الحجارة في الليل بصورة خفية ، وينقلونها إلى المعابد والأماكن المقدسة حيث يقيمونها هناك ، ليدهنوها بالزيت في بعض الاحتفالات الدينية . ومن المحتمل أن يكون الزيت ، قد استخدم بديلاً عن الدم الذي كان يراق في السابق في مثل هذه الاحتفالات . ولكن هذه الرواية ليست موثوقة تماماً . إذ لا تزال الأضاحي معروفة حتى اليوم في الإسلام في بعض المناسبات الهامة ، بينما يمنع الدهان بالزيت منعاً باتاً ، على اعتبار أنه من عادات الوثنية . فعندما يمد خط حديدي مثلاً ، تراق بعض دماء الأنعام ، فوق الخط الحديدي ، وذلك كضمان حماية العناية الإلهية للخط .

وكانت التماثيل الحجرية هي الطقس الأساسي ، في جميع الديانات القديمة في كل مكان . ولم تكن هذه الأشكال الحجرية تستخدم في إقامة المذابح حيث تقدم القرابين ، وإنما تستخدم في تمثيل الألوهية أيضاً . وكان مجرد نحت رأس ، بصورة لا فن فيها ، يعتبر كافياً ، ثم ما لبثت هذه العادات أن تطورت إلى نحت تماثيل كاملة ، توضع إلى جانبها حجارة ثانية تستخدم لتقديم القرابين ، والمدهش في هذا

الأمر ، أن سير التطور هذا يمكن أن يعثر عليه عند عدد من الشعوب ، التي عاشت متفرقة ، ولم يقم بينها أي اتصال أو ارتباط . وكلنا يعرف أن هذه الطقوس التي جاءت من ضباب التاريخ الغابر ، قد انتقلت إلى اليونان ، واتخذت عندهم شكل ذلك الكمال في إقامة تماثيل الآلهة ، التي تعرض دائماً وإلى جانبها المذابح الحجرية .

ولننتقل خطوة أخرى ، كان الوثنيون العرب يحترمون الأشجار ، على أنها مقر أربابهم ، وكانوا يقيمون احتفالاتهم الدينية تحتها ، ويعلقون أسلحتهم على أغصانها ، وما زالت بعض هذه الأشجار المقدسة التي تغطي فروعها بمختلف النذور المربوطة إليها ، قائمة في جوار الكثير من المدن والقرى . وتحاط هذه الأشجار عادة بأسيجة من الحجارة ، تحيط بباحة مقدسة ، وكان الوثنيون العرب ، يعرفون هذه الأماكن المقدسة ويؤمونها لتقديم النذور ، وهي عادات ظلت متبعة حتى بعد مجيء النصرانية والإسلام . ونحن نعرف كذلك ، أن بعض شعوب الشمال ، كالألمان مثلاً ، كانت تقدس الأشجار أيضاً ، على أنها مثاوي الآلهة ، وأن هذه الأشجار كانت تحاط بباحات مقدسة ، يقيمون فيها احتفالاتهم الدينية .

وبدأنا الحركة من جديد في اليوم التالي . ووصلنا إلى المنطقة الجبلية ، التي ترتفع بصورة عمودية ، من السهل الساحلي المنبسط . وأخذت سيارتنا تزمجر ، وهي تصعد وادياً تغطيه فتات الصخور المتفرقة . ولم تكن هناك طرق معبدة ، أو غير معبدة . وأخذت المنحدرات تزداد حدة شيئاً فشيئاً ، والجبال تسمق بصورة تدريجية . وأخيراً توقفت سيارة « السيتراون » عن السير . وكان علينا أن ندفعها دفعاً حتى نصل بها إلى قرية « مسيمير » القريبة . وهنا توقفت نهائياً عن السير . ورأينا أمامنا سلاسل جبلية ترتفع إلى علو يتراوح بين ستة آلاف وتسعة آلاف قدم . وهي تقوم بمثابة الستار الحاجز ، الذي يفصل بين مملكة الإمام وبين العالم الخارجي ، ويحول دون أي اختراق لها من هذه الناحية . أما مسيمير هذه ، فمن الإمارات الصغيرة جداً ، التي تتبع لسيادة سلطان لحج ، وقبل أن نمر بها مرور الكرام ، قمنا بزيارة إضطرارية للأمير الذي يحمل أيضاً لقب السلطان . وكان من الصعب العثور على قصره ، إذ أن هذا القصر لا يختلف كثيراً عن أكواخ الطين التي يقيم فيه رعاياه ، ولكن السلطان يتميز عن رعاياه بشيئين . أولهما المدفع القديم الذي يقف أمام منزله ، وثانيهما الحذاء

الجلدي الذي يضعه في قدميه ، ويبدو أنه كان أكثر زهواً بحذائه منه بمدفعه .

وفـور عودتنـا إلى عدن ، كـانت السفينة التي طـال انتظارهـا ، قد جـاءت من المكـلا ، ولكنها لم تكن تحمـل أي رد عـلى الـطلب الـرسمي ، المتعلق بـالسمـاح لي بدخولها ، وكان من المقدر أن أظل في عدن إلى أبد الآبدين ، لو لم تسمح لي الحكومة البريطانية بالرحيل إلى المكلا ، موعزة لي بالحصول على الترخيص اللازم بدخولها عند وصولي اليها . وهكذا عندما آبت السفينة من رحلتهـا المعتادة إلى الحـديدة بعـد نحو من أسبوعين ، صعدت إليها متجهاً إلى حضرموت دون سابق إعداد .

٤

في بلدان البخور والعطور

وصلنا بعد رحلة استغرقت يومين إلى ميناء المكلا ، وكان وقت وصولنا ، عند صلاة الصبح ، وكانت البلدة البيضاء ، المتلألئة ، وقد احتشدت بيوتها على مساحة ضيقة من الأرض ، ترتفع فوق سطح البحر العميق الأزرق ، وتمتد إلى جدار جبلي سامق يطل بلونه الأحمر . وتقوم على الساحل ، منارة عالية ضخمة تسيطر على البلدة ، وتدعو من قمتها المؤمنين إلى الصلاة . وتسبح فوق مياه الميناء المتماوجة المراكب الشراعية العربية أو الزوارق ، بدفاتها الكبيرة ، وسطوحها المرتفعة . وتقوم هذه المراكب ، بنقل الحركة التجارية الناشطة مع الهند ، فالجنوب العربي يؤلف المرسى الذي يقوم عليه الجسر الحضاري والروحي ، الذي يمتد من بلاد العرب إلى الهند المسلمة وإلى جزر الملايو . وهناك جسر بارز آخر يصل بين الجنوب العربي وبين الساحل الأفريقي ، عابراً منه إلى قلب القارة . . ويدرك الإسلام قوة الروابط التي تسمو فوق الحدود ، والسياسة ، والتي تؤلفها فلسفة مشتركة وواضحة لها قواعدها الدينية الوثيقة الوشائج ، والمستندة إلى موقف مشترك متماثل في مختلف القضايا الإنسانية النهائية . فالمسلم يعتبر الأجنبي الدخيل ، أستاذاً يبشر بعقيدة أخرى ، لا مجرد إنسان ينتمي إلى بلاد أخرى أو عنصر غريب[١] .

---

(١) اعتقد ان المؤلف تجاوز الحقيقة في قوله هذا سعياً وراء إرضاء أهواء قرائه الغربيين ، إذ لم يعرف عن المسلمين قط أي عداء تجاه غير المسلمين من الناحية الدينية في مختلف العصور . وهذا ما شهد به كافة المستشرقين المنصفين .

(المعرب)

وعلي حكيم ، شخص هندي ، هو مدير ميناء المكلا ، وطبيبها ، وهو رجل قصير ممتلىء الجسم ، يرتدي طربوشاً وعباءة بيضاء . وعندما اكتشف أنني على ظهر السفينة أعرب عن فرحه الجم ، وصب علـيَّ سيلاً من كلمات الترحيب العذبة . وكان يعيش في قصر السلطان القديم القريب من المسجد ، والذي لا يبعد كثيراً عن الميناء . وقد استضافني في منزله ، وسرعان ما رأيت نفسي اقتعد مقعداً على شرفة ، وأنظر إلى البحر الأزرق الجميل ، فأرى منظراً جميلاً رائعاً ، كما أرى البلدة البيضاء ، وما وراءها من جبال حمراء براقة . وسرعان ما انتشر نبأ وصولي ، وجاء الكثيرون من معارفي القدماء لتحيتي . وكم كانت سعادتهم كبيرة كسعادة الأطفال ، عندما أعطيتهم بعض الصور التي أخذتها لهم ، أثناء زيارتي السابقة لبلدتهم . ولكن قامت هناك عقبة جديدة في طريق رحلتي ، فالوزير الذي كان عليَّ أن أتقدم إليه بطلب الترخيص في غياب السلطان ، قد غادر البلدة قبل مدة قصيرة في رحلة ، وكان من المتعذر الوصول إليه . وواصل علي حكيم ، التدقيق في رسالة حكومة عدن ، التي أوعزت إليَّ إيعازاً غامضاً بالحصول على إذن الدخول إلى البلاد من الميناء نفسه . وأخيراً ، اقترح علي أن أمضي إلى الشحر ، وهي الميناء التالي على الساحل إلى الشرق ، حيث سأجد الوزير حتماً .

ولم يكن ثمة مجال لدي ، إلا إتباع نصيحته . وعندما وصلت إلى الشحر في اليوم التالي ، علمت بأن الوزير قد غادرها عائداً إلى المكلا . وكان الواجب يحتم عليَّ اللحاق به فوراً ، ولكن القيام بمثل هذا العمل ، غلو في اتباع النظام . وهبطت دون الكثير من الضجيج في الميناء ، مع جميع متاعي ، ولم يسألني أحد عن إذن الدخول . ولعل السبب في هذا ، أن الجميع في الشحر كانوا يعرفونني أيضاً معرفة طيبة . وسرعان ما عثرت على دليل يقودني إلى حضرموت ، وهي هدفي التالي . وكان الدليل بدوياً شاباً من قبيلة بني تميم ، وهو فتى كثير الأنفة ، ذو جسد شديد السمرة ، ولا يرتدي فوقه إلا مئزراً أبيض يستره إلى وسطه ، بنطاق عتاد بندقيته . وبدأنا حركتنا في الصباح التالي . وانضم إلى قافلتنا الصغيرة بجمالها ، تاجر حضرمي ، جاء مؤخراً من جرده ، ومعه ولده الذي لا يعدو الثامنة من عمره .

وكان علينا أن نعبر أولاً سلسلة جبلية ترتفع صعداً من السهل الساحلي ، إلى

علو نحو من ستة آلاف قدم . وأخذنا نرتقي الجبل فوق الجنادل والصخور والحصى ، سائرين بمحاذاة مسيل جاف خال من المياه ، وسط متاهات رائعة من القمم الجرداء المدببة ، والجروف الصخرية العمودية ، والمهاوي الفاغرة أفواهها ، والمضائق المتعرجة . ولم يكن الدليل يسمح لنا إلا بفترات قصيرة من الراحة إذ ظل يحثنا على الغذ في السير . فلقد كان عيد الفطر . يقترب ، بعد أن دنا شهر الصيام من نهايته ، وكان علينا أن نصل إلى هدفنا قبل حلول العيد . وإلا فإننا سنضطر إلى إقامة مخيم لنا في طريق رحلتنا ، والانتظار فيه نحواً من ستة أيام ، ولا يسمح لأي مسلم بأن يخترق حرمة العيد ، بالسفر في أيامه .

وبعد مسيرة أربعة أيام منهكة ، وصلنا إلى القمة . وامتدت أمامنا إلى أقصى ما يصل النظر إليه ، هضبة صفراء ميالة إلى اللون البني . وقد تقاطعت الأخاديد المخططة في هذه الهضبة ، وفي قعرها ، حيث تختفي بعض الرطوبة دائماً ، تنتشر الأماكن التي يأهلها الانسان ، والتي تبدو كحبات العقد من لآليء بيضاء وزمردات خضراء ، في الأفق البعيد .

« والحضارمة » ، وهو الأسم الذي تطلقه التوراة على هذه البقعة من الأرض ، كانت معروفة لدى الأقدمين . وقد أطلق عليها بليني (Pliny) [1] اسم « الحضارة العليا » عانياً به معنيين أحدهما ارتفاع المكان وعلوه ، وثانيهما رخاء أهله وأوضاعهم . ولا ريب في أن حضرموت كانت وافرة الثراء للغاية ، إذ كانت المصدر الرئيسي لنتاجين كانا من أهم المنتجات في العصور القديمة ، وكان الأقدمون يدفعون فيهما أغلى الأثمان وهما البخور والمر . وأصبحت حضرموت منذ ذلك الحين تسمى بلاد البخور ، وبينما كان البخور يستخدم في الأغراض الدينية لاسترضاء الإلهة ، ودفع الأرواح الشريرة ، كان المر أو ما يسمى بالراتينج ، يؤلف مادة لا غنى عنها من مواد الترف والبذخ . وكان زيته الذكي الرائحة ، الذي يضم مختلف العجائن

(1) بليني الأصغر (٦٢ ـ ١١٤ م) . خطيب ومؤلف روماني مشهور . نشأ في كنف عمه بليني الأكبر (٢٣ ـ ٧٩ م) . العالم الروماني المعروف في التاريخ الطبيعي . اصبح بليني الصغير محامياً ثم عضواً في مجلس الشيوخ فحاكماً في سوريا في عام (١٢) م . ثم اصبح قنصلاً في عهد الأمبراطور تراجان في عام (١٠٠) وحاكماً في الشرق . وطبع كتاباً عن البلاد التي حكمها وبينها الجنوب العربي .

(المعرب)

والدهانات ، المصدر الثمين لمختلف أنواع العطور وأدوات التجميل التي استخدمتها نساء مصر واليونان وروما أيضاً ، والتي كن يعرفن طريقة استعمالها في الاحتفاظ بجمالهن . وما زال معظم البخور الذي يستعمل في الكنائس المسيحية حتى اليوم يستورد من حضرموت . ولكن ثمة نوعاً آخر أروع من العطور ، يأتي من شجيرات صغيرة تنبت في الهند ولا تعرفها أوروبا . ويقوم العرب باستيرادها ، ويحافظون عليها محافظتهم على كنوز ثمينة . وتفرز هذه الشجيرات مادة حلوة رقيقة ، لها رائحة مثيرة ، تهدىء الأعصاب وتدغدغها ، بحيث لا تشبه مطلقاً ، ما نستعمله من روائح ثقيلة وكثيفة .

وما كان أمر حضرموت ليشتهر بين الأقدمين ، لو أنها اكتفت بجمع الثروة وتكديسها . ولكنها بفضل ما توافر لديها من قوة روحية وحث على التعبير عن سكانها ، تمكنت من أن تثمر حضارة حوفظ على تقاليدها حتى اليوم في طراز أبنيتها الرائعة ، وما يبدو فيه من زخرف . ولا ريب في ان هذه الأبنية ليست إلا بقايا مجد تليد عظيم . وقد رأيت بنفسي عدداً لا يحصى من الخرائب ، التي تعود تاريخها إلى قرون طويلة ، قبل أن يعرف التقويم الذي نستعمله ، والتي تمتد عدة أميال في الوديان تنتظر معاول علماء الآثار ، ويرمز إليها عادة سور ينبعث وسط الرمال التي تحيط بهذه الخرائب . ولكن ما يتميز به السكان من تعلق بالخرافات ، وشكوك بالأجانب ، قد حال حتى الآن دون اكتشافها .

وكنا لا نزال نغذ السير نحو بلدة « تريم » ، وقد أضنتنا الرحلة السريعة التي نقوم بها ، عندما فوجئنا مفاجأة سارة . فقد ظهرت أمامنا في الأفق البعيد ، نقطتان سوداوان ، أخذتا تقتربان منا بسرعة ، وتصحبهما سحب غامرة من الغبار . ولم تكن هاتان النقطتان ، إلا سيارتين ، بعث بهما أبو بكر الكاف ، مع ولديه ، لاستقبالي عندما سمع نبأ زيارتي ، وقد علمت بأن هاتين السيارتين قد وصلتا من سنغافورة إلى الشحر ، بطريق البحر . وهناك فككت أجزاؤها ، ونقلت على ظهور الإبل ، عبر هذه المناطق الجبلية التي لا طرق فيها ، وعندما وصلت إلى « تريم » تم تركيبها بصورة صحيحة من جديد . وهكذا عندما وصلت إلى تريم ، كان وصولي بطريقة مريحة وغير مألوفة في تلك البلاد .

ويحكم عدد من الأمراء الاقطاعيين الذين يلقبون بالسلاطين ، منطقة حضرموت وإن لم يكن لهم شأن يذكر في إدارة دفة الأمور فيها . فسيطرتهم تقتصر على العموم على قصورهم الضخمة الرائعة ، حيث يقضون حياة ممتعة ، ومرفهة ، مع وزرائهم ، ومستشاريهم ، ورجال بطانتهم . أما حكام حضرموت الحقيقيون ، فهم خمسة أخوة من أسرة « الكاف » ، وهي أسرة من التجار ، تنحدر من أعرق الأسر النبيلة في البلاد . وهؤلاء يديرون حركة الاتجار في البلاد كلها ، ويملكون ممتلكات شاسعة في الهند وما وراءها ، إذ يملكون مثلاً أكبر فندقين في سنغافورة ، وتتيح لهم الثروات الهائلة التي يملكونها سلطات لا تقل عن سلطات الملوك . وفي وسع الانسان أن يطلق عليهم اسم أسرة مديتشي حضرموت[1] .

وقد شعرت أثناء إقامتي في تريم . حيث يسكن أبو بكر ، أكبر الأخوة ، إنني أعيش في بلاط أحد أمراء آل مديتشي في القرون الوسطى . فقد استقبلت هذه المرة أيضاً ، بمنتهى الحفاوة والإكرام اللذين يليقان بهذا السيد العظيم . وعشت في أيوان رائع مشيّد على الطراز الهندي ، وتحيط به غرف لا عد لها ولا حصر . وتحت تصرفي نحو من خمسين خادماً ، وقد غمرتني الهدايا والهبات .

وكنت أقضي الصباح من كل يوم ، كما هي العادة في قصر مضيفي المجاور . وكنت أرى أبا بكر ، مستلقياً على أريكة ، تغطيه الملابس الجاوية ، في رواق واسع ، ينفتح على حديقة ، تضم جميع النباتات الداخلية المستوردة من كل مكان .

---

(١) اسم اسرة مشهورة في فلورنسة ، بدأت شهرتها في عهد جيوفاني الذي يعتبر مؤسسها والذي عاش بين عامي (١٣٦٠ ـ ١٤٢٩) ، ثم خلفه ولده كوزيمو (١٣٨٩ ـ ١٤٦٤) . وقد تولى كوزيمو شؤون إمرة فلورنسة ، وحماها من أهوال الحروب ، كما رعى شؤون الفن والأدب فيها . إذ أقام مؤسسة لدراسة الفلسفة الأفلاطونية . وقد اشتهر أمر حفيده لورنزو (١٤٤٩ ـ ١٤٩٢) الذي رعى الفنون والأدب ، وعمل كثيراً على خلق النهضة الحديثة التي جاءت بنهاية القرون الوسطى . وظهر من الأسرة أيضاً جوليو (١٤٧٧ ـ ١٥٣٤) . الذي غدا البابا كليمنت العاشر . . وجيوفاني (١٤٨٥ ـ ١٥٢١) الذي اعتلى الكرسي البابوي باسم ليو العاشر . وجاء بعد ذلك اليكساندرو (١٥١٠ ـ ١٥٣٧) ، الذي غدا دوقاً لفلورنسة وحكمها إلى أن خضعت لامبراطورية شارلكان عام ١٥٣٠ ، لكن ولده كوزيمو أصبح دوقاً اعظم لتسكانيا في عام ١٥٧٠ . واخذ أمر هذه الأسرة يضعف بعد ذلك التاريخ .

(المعرب)

كان الأصدقاء والمعارف يجلسون حوله ، والرسل يفدون ويمضـون . والأحداث تنقـل وتبحث ، دون وجـود أي صحف ، والصفقـات التجـارية تعقـد ، وشؤون البلاد تنـاقش . وكل شيء يسير بطريقـة كريمـة وهـادئـة ، دون تسـرع ، ودون صخب أو ضجيج ، أو خروج عـلى ضبط الأعصاب ، حتى عنـد وجود خـلافات في الـرأي ، وكان أبو بكر يتخذ قراراته ، على ضوء تلك المشاورات الودية التي تعتبر حتماً شيئاً من أصول الحكم .

ولم أكن أعرف حقاً ، عدد زوجات أبي بكر أو جواريه . فعدد ما يملكه الرجل من جوار ، يعتمد دائماً على موارد الانسان المالية ، وقيـاساً عـلى هذه المقـاييس ، فإن عدد جواري مضيفي يجب ان يكون كبيراً ، فقد رأيت له عدداً لا يحصى من الأطفال في مختلف الأعمار . وهناك مثل آخر . ففي سيئـون ، يعيش رجل ثـري ومحترم كـل الاحتـرام ، في التسعين من عمـره ، وقد أصـابه العمى ، ومـع ذلك فلديـه أكثر من سبعين زوجة وجارية .

وهكـذا أتيحت لي الفرصـة لأطلع على طـراز الحيـاة المترفـة الفـردية والمليئـة بالزخارف . في بلاط أحد كبار رجال الجنوب العـربي ، وقد أتيـح لي وقت أطول من اللزوم للإطلاع على بعض هذه الخفايا أكثر مما كنت أريـد حقاً . ذلـك لأنني لم أتقدم خـطوة إلى الأمام في تحقيق مشـروعي . وكنت كثيراً مـا أدرس الخطة مـع أبي بكـر ، ولكنه واصل إسداء النصح لي ، بعدم القيام بهذه المغامرة ، وحذرني من المخـاطرات التي تنتظرني . وأضاف أنه لا يستطيع إسداء كبـير عون لي ، ذلـك لأن سلطته تنتهي في حدود حضرموت . ولم تكن المخاطر لتثنيني عن عزمي ، إذ أنني كنت أتـوقع مثـل هذه المخاطر في حالات كهذه . ولكن ظروفـاً أخرى نشـأت ، ولم أكن مستعداً لهـا . هددت بشل جميع خططي ومشـاريعي . فقد كنت في حـاجة إلى دليـل ، وكان عبـور الصحراء بدون هذا الدليل ، أمراً مستحيلاً . ولكن العلاقات بين اليمن وحضرموت لم تكن في هذا الوقت بـالذات عـلاقات حسن جـوار طيبة ، بـل كانت متـوترة أشـد التوتر . وكان اليمانيون يعتمدون على القاعدة القائلة بأن الحق للقوة ، فكانوا يفدون كثيراً إلى حضرمـوت ولكنهم لا يسمحون لإنسـان بالتسلل إلى بـلادهم . ولم يكن في وسع أي حضرمي أن يزور الأرض المحرمة ، حتى ولو كـان في صحبة إنسـان غريب

غير مؤمن ، وأن يعود منها على قيد الحياة ، وهكذا كان العثور على مثل هذا الدليل في اي مكان . وعلقت آمالي في البداية على سيّد محترم من أهل اليمن ، كان يقيم في قصر ابي بكر ، للقيام ببعض المبادلات التجارية ، وكان قد جاء إلى حضرموت بطريق البحر ، قادماً من الحديدة إلى المكلا ، وقد عرضت عليه خطتي ، فتحمّس لها في البداية ، مؤكداً استعداده للمجيء معي ، وأن مثل هذه المكسرة طالما استهوته ، وانني لن ألقى صعوبات في رفقته وقضينا ساعات طويلة ، نبحث كل تفصيل دقيق من تفاصيل الرحلة . ولكن عندما وصلنا إلى مرحلة معينة ، وشرعنا في اتخاذ الاعدادات لها . أصيب بعلة في قدمه ، وآثر العودة إلى بلاده ، بطريق البحر ، الأكثر أمناً وسلامة . ولم يكن ثمة مناص من الصبر والأمل ، في العثور على بدوي آخر من أهل اليمن ، تقذف به الصدفة الطيبة في طريقي .

ولم تكن الفترة الطويلة التي قضيتها في غضون ذلك في تريم خالية من التنوّع والطرافة . فمثلاً مررت بتجربة خيّل للأهلين أنها معجزة ، بينما هي في الحقيقة ، لا تعدو أن تكون بالنسبة إلينا في الغرب ، حادثاً مألوفاً . فقد ظلت الحرارة المشفوعة بالرطوبة الشديدة ، تخيم على الجو طيلة النهار . وتضايق سكان البلدة الصحراوية . على الرغم من تعودّهم على الحر الشديد ، وحبسوا أنفسهم داخل منازلهم . وغدت الشوارع مقفرة مهجورة وساكنة ، في حرارة الشمس اللاهبة المحرقة . وفجأة أظلمت السماء بعد الظهيرة ، وامتلأت السماء بالغيوم السوداء الكثيفة ، وهبت زوابع رملية هوجاء . وسرعان ما تحولت إلى عاصفة من نوع العواصف الاستوائية الأصلية . وأخذ وميض البرق يتوالى ، وهزيم الرعود ، يحيل الجو إلى جحيم مرعب . وسرعان ما انصبت الأمطار من السماء انصباباً ، وكانت زخّاته قوية وعنيفة ، لم تر البلدة مثيلاً لها منذ قرون . إنه أشبه ما يكون بالمطر الذي سبق طوفان نوح .

ولما كانت معظم المدن والقرى في هذه الناحية مبنية من الطين ، ففي وسع الإنسان الإنسان ان يتصور ما بدت عليه « تريم » في صباح اليوم التالي . فقد جرفت السيول سبعة عشر بيتاً ، كما جرفت أجزاء من سور البلدة ، وسدّت عدداً كبيراً من الآبار . وبدا قصر ابي بكر ، في منظر حزين أيضاً ، فقد سالت سيول من الماء المصبوغ بحمرة الوحل ، على جدران القصر البيضاء ، وانهار عدد من السقوف .

لكن هذه الكوارث الثانوية ، لم تكن شيئاً يقاس بما جادت به السماء من نعمة نادرة ، أغرقت في أغداقها هذه المرة . وتحوّل الحادث إلى عيد حقيقي . ولم يسبق لي أن رأيت قط ، مثل هذا الفرح وذلك الابتهاج اللذين عما البلدة العربية . فقد خرج أهل البلدة شيباً وشباناً ، وصغاراً وكباراً ، وأخذوا يخوضون في سواقي المياه التي كانت تسيل في الشوارع . وبدا وكأن الأهلين ، لم ينعموا قط بهذه النعمة الفجائية ، التي حبتهم بها السماء ، والتي كانوا لا يرون منها إلا النزر اليسير . وسارع كل من يملك بستاناً أو حديقة إلى خارج أسوار البلدة ، لتحويل مجرى السواقي والجداول والنهيرات التي تكوّنت في كل مكان لسقاية أشجاره ونباتاته . ولم تمض بضع ساعات ، حتى اندفعت الخضرة في جميع الجوانب ، في هذا الجو الاستوائي الذي تغمره الرطوبة .

وتمكنت بما أبداه لي أبو بكر من لطف وكرم ، من إعداد حمله صغيرة ، جُلْتُ معها الأقسام الشرقية من حضرموت ، وهي منطقة لم يسبق لأي أجنبي أن زارها قبلي . وقد رافقني فيها أحد البدو ، والخادم عمر ، الذي رافقني في رحلة سابقة . ومعنا حمار واحد ، وجمل . ولم أكن في حاجة إلى حراسة قوية ، إذ كنت أنعم بحماية أسرة الكاف القوية . وقد سرنا مع وادي العدم ومررنا ببلدتي عنات وقاسم . وكنا نمر بالخرائب العريقة في القدم في كل مكان ، والتي تتجاوز القرى المأهولة في حجمها وعددها . وكان ما أدهشني ، روعة أسلوب البناء ، ورفعة الذوق وهما يبدوان في البنايات الفخمة التي ما زالت آثارها باقية . وكانت بلدة القاسم مثلاً ، تضم عدداً من القصور الرائعة ، وبوابة جميلة تمتاز بالزخارف البيضاء التي تبدو على الآجر الطيني الأحمر . ولا ريب في أن هذه الروائع هي البقايا الحضارية لشعب كان يتمتع بالثراء ، وكان يستطيع أن يعود بذكرياته إلى تقاليد طويلة ومتكبرة . ولا ريب أيضاً في أن أحوال العيش قد تدهورت مع مرور الزمن . فقد هجر القسم الأكبر من أهل حضرموت ، وأكثرهم كداً ونشاطاً ، البلاد إلى جزر الملايو والهند الشرقية ، منذ عهد طويل ، واستوطنوها حيث أقاموا جاليات مستوطنة ضخمة . ويؤلف الحضارمة المسلمون ، عنصراً كبير الأهمية بين سكان جزيرتي جاوه وسومطره . ونداء الهجرة إلى الأصقاع النائية قوي عند العرب ، مثل قوته عند الأقوام النوردية الشمالية . فقد

وصلوا قبل الأوروبيين بعهد طويل إلى أفريقيا ، وإلى الشرق الأقصى وأقاموا امبراطوريات عاشت قروناً عدة . ومن المهم أهمية خاصة أن النفوذ العربي في أفريقيا الوسطى ، ما زال آخذاً في الازدياد حتى يومنا هذا .

وكانت بلدة « الفرت » أيضاً من الأماكن التي يزيد عدد الخرائب والبيوت المهدمة فيها على عدد البيوت المأهولة . وقضينا ليلتنا هناك ، في بيت مرتفع من الطين يملكه أحد البدو . واحتشد جميع أفراد الأسرة من الذكور ، لتناول وجبة العشاء ، وانتشرنا في حلقة ، على « حُصُرٍ » من القش ، وأمامنا « صحفة » معدنية كبيرة ، ملأى بالأرز واللحم ، وأخذ كل فرد منا يغرس يمناه في الصحفة ، ليتناول منها طعامه . ومما يخالف آداب السلوك أشد مخالفة ، أن يستخدم الإنسان يسراه في تناول الطعام . وكان صاحب البيت إكراماً منه لي بوصفي ضيفه ، يكوّر بيمناه كرات صغيرة من الأرز . مع قطع صغيرة من اللحم ، ويعدها بأصابعه التي لعقها ، ثم يدفع بها إلى فمي . وقد لقيت عناء كبير في ابتلاع هذه الكرات . ولا يسمح للنساء ، إلا بأكل ما يتبقى من الطعام ، في غرف المنزل الخلفية . بعد أن يفرغ الرجال من الطعام . واختلاط الجنسين عند الطعام . خروج على المألوف والتقاليد ، لا يمكن التسامح به . وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على خيمة البدوي ، وعلى قصر السلطان .

وظل كبير القوم طيلة تلك الليلة ، يشير إشارات غامضة الى مشروع سري يعتزم القيام به . وفي الصباح انتحى بي الرجل جانباً ، وقال ان في وسعي أن اجني مالاً وفيراً ، إذا قمت له باسداء معروف . وعندما سألته دهشاً عن هذا المعروف الذي يطلبه ، طلع عليّ بالقصة التالية . هناك قلعة قديمة في « الفرت » ، وهي مهدمة وخربة . وكان آخر أصحاب هذه القلعة ، قد جمع مالا وفيراً ، بطرق مشبوهة وغير مشروعة . وقد قتل أهل المنطقة الرجل ، ولكنهم لم يعثروا على ثروته ، التي كانت هدفهم من قتله . ولا ريب في أن الكنز دفين في الأرض ، في مكان ما تحت البناء . ولا يستطيع الأهلون حفر الأرض والتنقيب عن الكنز ، مخافة الأرواح الشريرة ، والجن ، إذ أنهم يخشون أن تقطع ايديهم إذا حاولوا ذلك . وهو العقاب المألوف الذي ينزله الجن عادة بمن يجرأ على مملكتهم .

لكن هذه الكوارث الثانوية ، لم تكن شيئاً يقاس بما جادت به السماء من نعمة نادرة ، أغرقت في أعماقها هذه المرة . وتحوّل الحادث إلى عيد حقيقي . ولم يسبق لي أن رأيت قط ، مثل هذا الفرح وذلك الابتهاج اللذين عما البلدة العربية . فقد خرج أهل البلدة شيباً وشباناً ، وصغاراً وكباراً ، وأخذوا يخوضون في سواقي المياه التي كانت تسيل في الشوارع وبدا وكأن الأهلين ، لم ينعموا قط بهذه النعمة الفجائية ، التي حبتهم بها السماء ، والتي كانوا لا يرون منها إلا النزر اليسير . وسارع كل من يملك بستاناً أو حديقة إلى خارج أسوار البلدة ، لتحويل مجرى السواقي والجداول والنهيرات التي تكوّنت في كل مكان لسقاية أشجاره وبساتينه . ولم تمض بضع ساعات ، حتى اندفعت الخضرة في جميع الجوانب ، في هذا الجو الاستوائي الذي تغمره الرطوبة .

وتمكنت بما أبداه لي أبو بكر من لطف وكرم ، من إعداد حملة صغيرة ، جُلْتُ معها الأقسام الشرقية من حضرموت ، وهي منطقة لم يسبق لأي أجنبي أن زارها قبلي . وقد رافقني فيها أحد البدو ، والخادم عمر ، الذي رافقني في رحلة سابقة . ومعنا حمار واحد ، وجمل . ولم أكن في حاجة إلى حراسة قوية ، إذ كنت أنعم بحماية أسرة الكاف القوية . وقد سرنا مع وادي العدم ومررنا ببلدتي عنات وقاسم . وكنا نمر بالخرائب العريقة في القدم في كل مكان ، والتي تتجاوز القرى المأهولة في حجمها وعددها . وكان ما أدهشني ، روعة أسلوب البناء ، ورفعة الذوق وهما يبدوان في البنايات الفخمة التي ما زالت آثارها باقية . وكانت بلدة القاسم مثلاً ، تضم عدداً من القصور الرائعة ، وبوابة جميلة تمتاز بالزخارف البيضاء التي تبدو على الآجر الطيني الأحمر . ولا ريب في أن هذه الروائع هي البقايا الحضارية لشعب كان يتمتع بالثراء ، وكان يستطيع أن يعود بذكرياته إلى تقاليد طويلة ومتكبرة . ولا ريب أيضاً في ان أحوال العيش قد تدهورت مع مرور الزمن . فقد هجر القسم الأكبر من أهل حضرموت ، وأكثرهم كداً ونشاطاً ، البلاد إلى جزر الملايو والهند الشرقية ، منذ عهد طويل ، واستوطنوها حيث أقاموا جاليات مستوطنة ضخمة . ويؤلف الحضارمة المسلمون ، عنصراً كبير الأهمية بين سكان جزيرتي جاوه وسومطره . ونداء الهجرة إلى الأصقاع النائية قوي عند العرب ، مثل قوته عند الأقوام النوردية الشمالية . فقد

وصلوا قبل الأوروبيين بعهد طويل إلى أفريقيا ، وإلى الشرق الأقصى وأقاموا امبراطوريات عاشت قروناً عدة . ومن المهم اهمية خاصة ان النفوذ العربي في أفريقيا الوسطى ، ما زال آخذاً في الازدياد حتى يومنا هذا .

وكانت بلدة « الفرت » أيضاً من الأماكن التي يزيد عدد الخرائب والبيوت المهدمة فيها على عدد البيوت المأهولة . وقضينا ليلتنا هناك ، في بيت مرتفع من الطين يملكه أحد البدو . واحتشد جميع أفراد الأسرة من الذكور ، لتناول وجبة العشاء ، وانتشرنا في حلقة ، على « حُصُرٍ » من القش . وأمامنا « صحفة » معدنية كبيرة ، ملأى بالأرز واللحم ، وأخذ كل فرد منا يغرس يمناه في الصحفة ، ليتناول منها طعامه . ومما يخالف آداب السلوك أشد مخالفة ، أن يستخدم الإنسان يسراه في تناول الطعام . وكان صاحب البيت إكراماً منه لي بوصفي ضيفه ، يكوِّر بيمناه كرات صغيرة من الأرز . مع قطع صغيرة من اللحم ، ويعدها بأصابعه التي لعقها ، ثم يدفع بها إلى فمي . وقد لقيت عناء كبير في ابتلاع هذه الكرات . ولا يسمح للنساء ، إلا بأكل ما يتبقى من الطعام ، في غرف المنزل الخلفية . بعد أن يفرغ الرجال من الطعام . واختلاط الجنسين عند الطعام . خروج على المألوف والتقاليد ، لا يمكن التسامح به . وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على خيمة البدوي ، وعلى قصر السلطان .

وظل كبير القوم طيلة تلك الليلة ، يشير إشارات غامضة الى مشروع سري يعتزم القيام به . وفي الصباح انتحى بي الرجل جانباً ، وقال ان في وسعي أن اجني مالاً وفيراً ، إذا قمت له باسداء معروف . وعندما سألته دهشاً عن هذا المعروف الذي يطلبه ، طلع عليَّ بالقصة التالية . هناك قلعة قديمة في « الفرت » ، وهي مهدمة وخربة . وكان آخر أصحاب هذه القلعة ، قد جمع مالا وفيراً ، بطرق مشبوهة وغير مشروعة . وقد قتل أهل المنطقة الرجل ، ولكنهم لم يعثروا على ثروته ، التي كانت هدفهم من قتله . ولا ريب في أن الكنز دفين في الأرض ، في مكان ما تحت البناء . ولا يستطيع الأهلون حفر الأرض والتنقيب عن الكنز ، مخافة الأرواح الشريرة ، والجن ، إذ أنهم يخشون أن تقطع ايديهم إذا حاولوا ذلك . وهو العقاب المألوف الذي ينزله الجن عادة بمن يجرأ على مملكتهم .

واختصاراً للحديث ، رأى البدوي أن الفرصة متاحة له ، ليصبح مالك الكنز المدفون منذ عهد بعيد . وقال ان في امكاني ان اكتشف بسرعة ، أين يوجد الكنز ، وانه سيعطيني مكافأة لي على عملي تسعة ريالات (نحواً من خمسة عشر شلناً) .

وعلى الرغم من هذه الهبة السخية (!) ، فقد تحتم عليَّ ، أن احبط ما علقه الرجل علي من آمال . فمما يخالف مبادئي ، ان أقحم نفسي ، في البحث عن كنز مشكوك فيه . ورددت عليه ، انني على الرغم من عدم إيماني ، فان الجن ، قد لا تفرق بين المسلم وغير المسلم ، وانني قد اتعرض لثأرهم . وأكدت له أن يدي اثمن بكثير من الهبة السخية التي وعدني بها .

وواصلنا السير في حضرموت الشرقية حتى وصلنا الى حصن العور ، حيث توجد آثار قلعة ضخمة ، بنيت من احجار مربعة . على مرتفع صخري ومن العسير أن يقدر المرء ، إلى أي عصر يعود بناء هذه القلعة . ومع ذلك فإن طريقة البناء ، وتقسيم الغرف ، يشبهان الى حد كبير ، طريقة البناء وتقسيم الغرف في خرائب مايكيني(Mycaene) [1] - ولا ريب في أن تقدير مدى العلاقة بين هذه الآثار وبين الحضارة الإغريقية القديمة ، إذ أن وجوه الشبه قوية للغاية - أمر يعود الى البحاثين في المستقبل .

وفي طريق العودة ، ظهرت لي أمثلة عدة تؤيد الحقيقة القائلة بأن التقاليد الدينية متشابهة في مظاهرها على الأقل ، لدى جميع شعوب الكرة الأرضية . ففي « دار القوص » ، وهي قرية صغيرة ، لقيت فيها حضارة البفة . رأيت الناس قد ألفوا ، عادة تثبيت قرون الوعول ، في زوايا بيوتهم . ويذكر الإنسان عند رؤيته ذلك فوراً ، عادة أهل سكسونيا السفلى ، الذين ينحتون العارضات المندفعة في سقوفهم الهرمية ، على شكل رؤوس الجياد . ولهذه العادة أصول دينية هنا وهنالك ، فلقد

---

(١) مايكيني من اقدم مدن الاغريق . مشيدة على تل عال يطل على سهل ارعيف . وقام اهل ارغوس ، وهم أعداء مايكيني التقليديون في عام ٤٦٨ قبل الميلاد تدميرها . وظلت منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا اطلالاً وخرائب .

(المعرب)

كان الوعل من الحيوانات المقدسة ، وكان رأس أحد الآلهة . يمثل رأس وعل . وقد عثر في مذابح السبأيين على الكثير من رسوم رأس الوعل . ومن المحتمل أن يكون شعار إله القمر عند البابليين ، الذي انتقلت عبادته إلى الجنوب العربي ايضاً . ومن المعروف ان الوعل يمثل أحد الأبراج الفلكية العشرة أيضاً .

وعندما عدت الى تريم ، أيقنت من استحالة بذل أية محاولات أخرى لاكمال مشروعي . ونصحت بأن أعدل عن هذا المشروع نهائياً ، وبالفعل فقد وصلت الى هذه النتيجة ، إذ كانت أشهر السنة قد تقدمت ، واقتربت ذروة الصيف مما جعل عبور الصحراء فيه أمراً مستحيلاً . ومع ذلك فقد أردت أن أقوم بمحاولة أخيرة . وقررت المضي الى شيبام التي تقع الى الغرب . فقد سمعت أن بعض البدو يفدون احياناً من اليمن الى هذه البلدة . وإذا ما فشلت في هذا الأمل ايضاً ، فإن المشروع بكامله ، سيغدو غير عملي .

- ٥ -

الربع الخالي

تقوم مقبرة صغيرة لا اهمية لها ولا شأن في الصحراء ، أمام اسوار بلدة تريم . ولا ترتفع هذه المقبرة عن أرض الوادي الصخرية . وقد أقيمت فيها بعض القبور الضخمة الكبيرة . وهذا هو كل ما فيها .

وفي هذه المقبرة يثوي محاربو حضرموت ، الذين استشهدوا دفاعاً عن تريم ، أمام احدى غزوات البدو . وكان الأعداء قد احتلوا الوادي بكامله أثناء الحرب ، وقطعوا إتصال تريم ببلدتي سيئون وشبام الكبيرتين . وليحافظ الأهلون على إتصالهم بسيئون ، بنوا طريقاً جديدة فوق الجبال ، ليتجنبوا المرور بالوادي الذي كان مسرحاً للحرب . ويؤلف الوادي قوساً شديد الانحناء ، أشبه ما يكون بركبة الإنسان ، عبر السلاسل الجبلية المرتفعة . وفي هذا الوادي ، أمام تريم ، تقيم القبائل المعادية . وهكذا مضيت عبر هذه الطرق الجبلية الجديدة ، يرافقني حمار وهجين وجندي واحد البدو .

واقتضانا عبور هذه السلاسل الجبلية بتشكيلاتها الرائعة نصف يوم . ووصلنا قبيل المغيب إلى الوادي ثانية حيث قضينا الليل في « تريبة » وهي بلدة صغيرة تشبه القلعة ، ويحكمها حاكم حملت اليه رسالة من أبي بكر الكاف . وقد استقبلني الحاكم في منزله استقبالاً رائعاً ، واحتفى بي أعظم حفاوة . وأعدت لي خيمة على شرفة المنزل التي تسمق فوق سطوح منازل البلدة كلها . وأعد لي في الخيمة فراش وثير ، استلقيت فيه والى جانبي مضيفي ، وهو إنسان ذكي وانيق وشديد التحفظ ، وتناولت

معه الطعام والشراب . وجلس البدو بعيداً عنا ، في الظلام . يبدون بقاماتهم السوداء الفارعة ، وشعورهم الطويلة ، يصغون الى حديثنا ، ولم يكن أحدهم ، ليتكلم إلا إذا وجه اليه « الحاكم » سؤالاً . وما زلت أذكر شاباً بدوياً كثير الإعتزاز بنفسه ، وقد تدخل في حديثنا دون سؤال ، وكانت تبدو عليه مخائل النبل والشرف ، أكثر من أي انسان آخر ، ومع ذلك لم يكن هذا الرجل أكثر من مجرد إبن الصحراء العادي البسيط . وكان اسمه « سنفيس » .

وفجأة قطع علينا حديثنا صوت طلقات نارية عدة . . . وقيل لي : لا بأس ، فهناك حرب ثانوية تدور في هذه المنطقة في هذه الآونة .

فلقد كانت هناك ثارات قبلية بين بلدة تريم وبين بعض قبائل البدو المجاورة لها . وكان الخلاف يشتد أحياناً حول الماء ، وكثيراً ما أدى الى وقوع اشتباكات ثانوية في الليل . وكانت لبعض البدو بيوت مقابل البلدة ، بحيث كان في الإمكان تبادل إطلاق النار من نافذة إلى أخرى . وكان هناك حاجز مرتفع ، يقينا ، ونحن على الشرفة ، من الطلقات المعادية الممكنة . ومثل هذه المنازعات القبلية ، هي الأمر اليومي المألوف في حضرموت ، ولذا فإن السلطان والنبلاء لا يكترثون كثيراً بمثل هذه الخلافات . وكثيراً ما يجهل أهل تريم سيئون حقيقة ما يقع في المناطق المجاورة لهم وحبذا لو تمكن هؤلاء الناس من تسوية خلافاتهم بين بعضهم البعض . وقد سبق لي في العام السابق ، أن ارتحلت في هذه المنطقة دون أن أرى أثراً لحرب فيها . ولكني في رحلتي هذه المرة الى سيئون وجدت عدداً من القرى ، وقد دمرت تدميراً كاملاً ، بعد أن كانت في العام الماضي ، سليمة لا أثر لخراب فيها .

ووقع لي حادث تافه في الطريق ، أثناء توقف قصير في بلدة سيئون فقد كنت أتجول في الشارع التقط بعض الصور ، يحيط بي لفيف من الصبية الذين يندفعون بوجوههم الضاحكة أمام آلة التصوير ، عندما رأيت فجأة سيارة ، تدخل درباً ضيقاً . وسرعان ما تفرق الأطفال ، واقتربت السيارة مني ، وقبل أن أعرف ما حدث ، رأيت عدداً من العرب ، يمسكون بي ، ويسحبونني إلى داخل السيارة . التي مضت في طريقها مسرعة .

وقال لي الرجال : « إنك أجنبي ، والماني ، ولذا فأنت مهندس ، وستتولى إصلاح مضختنا لنا . وقد توقفت عن العمل منذ سنتين ، ولم يعد في وسعنا الحصول على الماء » .

وضاعت جهودي في إقناعهم ، بأنني لست بالمهندس ، وانني لا أفهم شيئاً عن المضخات ، ادراج الرياح ، فهؤلاء الناس يرون في الأوروبيين والتقنيين شيئاً واحداً لا ينفصم ، كما أنهم يفترضون ايضاً أن كل اوروبي طبيب بطبيعته ، وان رفضه مداواة أحد المرضى وإيلاءه العناية الطبية ، ناجم عن سوء النية . وهكذا يضطر الأوروبي عادة ، الى التنزود بعدد من العلاجات في رحلاته . وهي من النوع الذي لا يمكن أن يحدث ضرراً . وكثيراً ما تنجح هذه العلاجات ، بالنظر إلى إيمان المريض إيماناً مطلقاً بصلاحها .

وسرعان ما وصلنا إلى أحد بساتين النخل الواسعة خارج البلدة ، ورأيت أن الأشجار في حاجة ماسة حقاً إلى الماء . وقد علمت أن هذه ملك للسيد هود ، وهو رأس عائلة من عائلات سيئون الثرية والنبيلة ، وكان أحد انجاله الشباب ، هو الذي تولى عملية اختطافي في سيارته « الأوستن » الصغيرة ، وكانت المضخة التي قادوني اليها متصلة بواسطة نطاق جلدي طويل ، الى آلة حراثة (تراكتور) ضخمة ، وكان المقصود أن تؤمن هذه الآلة ، القوة المحركة للمضخة ، وقد ثبتت على قاعدة حجرية قوية ، وقد تمكن آسري اخيراً من تدوير الآلة ، ولكن عندما بدأ الدولاب في الدوران ، طار النطاق الجلدي . وقد ذكروا لي أن هذا يحدث بصورة دائمة ، وانهم قد جربوا كل وسيلة للتغلب على هذه الصعوبة ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل .

ولم يكن العثور على مكان الخطأ ، يتطلب أية معرفة تقنية . فعلى الرغم من القاعدة الضخمة التي ثبتت عليها الآلة ، فقد تحركت بعض الشيء ، ولم تعد في نفس المستوى مع المضخة ، وهذا يفسر السبب في طيران النطاق الجلدي . وسرعان ما نفذ عدد من العمال الذين جيء بهم فوراً ، تعليماتي فأعيدت الآلة الى وضعها الصحيح ، وأعيد تثبيتها . وتم في غضون ساعات اعداد كل شيء . وبدأت الآلة عملها ، وأخذت المضخة التي ظلت عاطلة عن العمل سنتين ، تقدم الماء بكميات وافرة . وأقيم في المساء إحتفال ضخم في الهواء الطلق ، في بستان السيد هود الذي

بعث الى الحياة من جديد . واحتشد أهـل البلدة صغاراً وكبـاراً ، ليروا المعجـزة التي حققها الألماني .

وحللت في شيبام ضيفاً عـلى صديقي القـديم حسين أبـو بكر الاهجم ، حيث نزلت في منزلـه اهلاً وسهـلاً . وقد غمـرني بلطفه كسـائر معـارفي الأقدمـين . ولكن عندما تحدثت اليه عن مشروعي ، هز رأسه ، وأعلن ان المشروع غير عملي مطلقاً .

لكن لمحة خاطفة من حسن الطالع ، شاءت أن تساعدني في اللحظة الأخيرة . فبعد أن كنت قد قضيت عـدة أيام في البلدة ، وكنت أطـوف ذات صباح ارجـاءها ، وقد وصلت نهاية حدود الصبر والعقـل ، وسيطرت عـليَّ حالـة نفسية من التشـاؤم . كـادت تحملني عـلى التخـلي عن أمـلي ، رأيت ، إذ وفـدت عـلى سـوقهـا ، ضـابط الجمرك ، يتحدث الى جماعة من البدو ، بدأوا في مظهرهم غرباء عن البلدة ، وليسوا من أهلها ، وكنت أعرف الضابط ، فلما سألتـه عنهم ، عرفت أنهم من البـدو ، ومن قبيلة « بني عجيـل » التي تعيش عـلى مقـربـة من حـريب ، وهي البلدة الأولى ذات الأهمية ، التي تقع الى ما وراء حدود اليمن ، وكانوا قـد وفدوا الى شيبـام مع احـدى القوافل ليبيعوا ما انتجته أيديهم ، من بسط حاكوهـا من صوف المـاعز ، ذات الـوان يختلط فيها البياض والسواد ، ونسيجها دقيق كـل الدقـة . وأضاف الضـابط أن أهل حضرموت لا يعرفون صناعة البسط .

وغلبني السرور ، لهذا اللقاء السعيد ، فأوضحت مشروعي لليمانيين ، وعزمي على إستخدام احدهم ، دليلاً لي . ولم يرض أي منهم في بداية الأمر ، بـالقيام بهـذه المهمة ، إذ أن المسؤولية كانت أضخم من أن تحتمل . إذ تنص شريعة البادية ، عـلى أن البـدوي مسؤول بحياتـه أمام قبيلتـه . كضمان لسـلامة أي غـريب بكل سـلامته وحمايته اليـه ، وقد عـرفت المنطقـة التي كان من المتـوقع أن نجتـازها في طـريقنا إلى صنعاء ، بعداء أهلها ، لكل رجل أبيض البشرة ، واخيـراً ، بادر رجـل ضئيل منهم يحمل لحية بيضاء طويلة ، ووجهاً يلوح فيه المكر ، يدعى صـالح ، فـأعلن استعداده للقيام بدور الـدليل . وقـد تمت الصفقة بعـد نقاش ودي دار مـع ضابط الجمـرك ، الذي يتحتم على البـدو أن يكونـوا على خـير علاقـة معه ، حتى لا يجني منهم رسـوماً

عالية وبعد أن عرضت عليه مبلغاً سخياً في مقاييسهم ، هو اثنا عشر جنيهاً ونصف الجنيه مقابل العمل . وأتممت مع الرجل كافة الاعدادات اللازمة ، واتفقنا على أن يتولى عمل الدليل لي حتى نصل إلى صنعاء ، ودفعت اليه المبلغ المقرر . وكان هذا آخر ما أحمله من مال . ولم يكن في وسعي الحصول على أي مال آخر قبل الوصول إلى صنعاء . حيث استطيع أن آخذ ما أريد من وكيل تاجر يوناني في عدن . ولكن الإفتقار إلى المال ، ليس بالشيء السيء في هذه الرحلة ، إذ سأكون خالي الوفاض مما يطمع اللصوص في سرقتي .

كانت الفرصة الأخيرة ، وقد اهتبلتها في أدق اللحظات وأحرجها . فقد كان من المقرر أن يشرع البدو في رحلة ايابهم في اليوم التالي . ولم تكن هناك أية قوافل اخرى متوقعة من اليمن في القريب العاجل ، إذ ان جميع حركات التنقل عبر الصحراء ، تتوقف إبان الصيف .

وعندما حلت الساعة المتفق عليها ، وهي الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي ، إذ أن الرحلات لا تبدأ عادة إلا بعد أن تكون حدة حرارة الشمس قد انطفأت ، لم يبد صالح أمامي ، وهو الذي استأجرته دليلاً لي ، وإنما بدا أخوه مبارك ، وهو رجل ضئيل آخر ، يحمل لحية بيضاء طويلة كذلك . وبدا لي هذا التبدل غريباً ، وفسر لي مبارك القضية ، بأن اخاه صالح ، قد سبقنا مع القافلة ، التي سنلتقي بها في اليوم التالي ، عند أحد الآبار .

وأثقل ظهر الجمل ، الذي كان سينقلني بمتاعي ، وكان يتألف من صندوقين يضمان أدوات التصوير ، ومن سرير سفري يستعمل في المخيمات ، وبساط ، وبطانية من الصوف ، وكيس يضم بعض البن والشاي والبسكويت ، وبعض علب الفاكهة المحفوظة . وقد عشت الأسابيع الثلاثة التي قطعنا الصحراء في غضونها ، على هذه المؤن . واقتعدت مكاني على ظهر البعير فوق جميع هذه الحاجيات . وقد بدوت مثل سانشو بانزا[1] (Sancho Panza) بساقيّ الممدودتين ، وهب الجمل على

(١) شخصية مضحكة في الأدب الاسباني .

رجليه ، ثم مضى في طريقه .

وكنت على وشك العدول عن الرحلة في اللحظة الأخيرة . فقد أصبت في الليلة الفائتة ، بالدوزنطاريا ، وهو من الأمراض الاستوائية التي يخافها الأوروبيون أشد الخوف ، ومن المحتمل أن يكون المرض قد لحق بي من جراء ماء شيبام المالح والسيء ، وعندما طلع الصباح ، كان الاعياء قد أخذ مني كل مأخذ ، وارتفعت درجة حرارتي بحيث لم استطع الوقوف على ساقي . ولكنني أردت أن انتهز فرصة هذه القافلة المسافرة إلى اليمن ، مهما كان الثمن ، وتحتم عليَّ ، أن لا أبدي أية دلالة على إصابتي بالمرض ، وإلا فإن رجال القافلة سيمتنعون عن أخذي معهم ، ولا ريب في أن الجهد الذي بذلته كان عظيماً في قضاء عدة ساعات ، في مثل هذا الوضع ، وأنا جالس فوق ظهر البعير وقد جمعت ساقي الى بعضها ، ونصبت قامتي ، رغم اهتزاز البعير تحتي ، وكان علي أن استنفر كل ما لدي من طاقات للحفاظ على نفسي من الإنهيار . وقد جرت عادة البدو من الناحية الأخرى ، على قطع المسافات الكبرى ، من رحلاتهم في الأيام الأولى . إذ تكون حيوانات القافلة ما زالت مستريحة ، ولا تحتاج إلا الى فترات قصيرة من الراحة . ومثل هذه الرحلات ، قاسية على الأوروبي ، الذي لم يألف هذا الطراز منها . ولم تضعف سرعة السير إلا في المراحل المتأخرة من الرحلة ، وأخذت فترات الراحة في الإزدياد ، إذ سيطرت حالة من الانهاك والتعب . وتحتم علي أن أكافح المرض أربعة أيام تغلبت في نهايتها عليه بفضل عقار ممتاز كنت أحمله معي ، وان كنت قد اضطررت الى استهلاك كل ما لدي منه .

وسرنا في طريق حملتنا الى واد عريض مكتظ بالقرى الصديقة . وظلت خطوط بلدة شيبام بمنازلها من ناطحات السحاب تمثل أمامنا في الأفق مدة طويلة . ولكنها أخذت تدريجياً ، تتحول إلى حشد أسمر من اللون من المرئيات ، تعلوه سقوف القصور العالية البيضاء ، وقد علتها حمرة الشفق عند المغيب . ثم ما لبث هذه المرئيات أن اختفت وراء ما في سماء المساء الاستوائية من ألوان قرمزية زرقاء .

ووصلنا عند هبوط الظلام الى « القطان » وهي آخر بلدة لا بأس في حجمها في

طريقنا الى الصحراء . وعلى مقربة منا تقوم قلعة « الحوطة » وهي المقر الصيفي لسلطان شيام ، الذي يعتبر من كبار الإقطاعيين في حضرموت ، ويعود في جذوره الى القبائل العربية التي كانت تعيش فيها قبل ظهور الإسلام . لكن سيطرة هؤلاء الإقطاعيين آخذة في الذبول ، مهما تمسكوا بمظاهرها . فالإتجاه شديد في الخليج العربي نحو الوحدة العربية ، وعلى جميع هؤلاء الأمراء الصغار ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، ان يستسلموا لهذا الإتجاه ، كما وقع في الغرب تماماً ، إلا إذا كان ما يلقونه من تأييد من بعض الدول الأجنبية ، سيعطيهم جرعة مقوية مصطنعة تمكنهم من العيش وقتاً ما .

وكان السلطان علي يحمل لي أصدق الود والعطف ، بعد أن كنت قد شفيته في العام الماضي . من هجمة عنيفة من الدوزنطاريا . ولهذا السبب ، رغبت في زيارته . لأقدم له فروض الاحترام . ولكن مبارك ، بوصفه الدليل المسؤول عني ، لم يوافق على هذا التأخر في رحلتنا ، ذلك لأنه كان يخشى أن لا نتمكن من اللحاق بالقافلة التي سبقتنا في الطريق . ولم يذعن لطلبي إلا بعد أن وعدته وعداً قاطعاً ، بأن لا نقضي في « الحوطة » اكثر من ساعة واحدة .

وكانت هذه الساعة التي قضيناها في قصر السلطان ، بمثابة الوداع لآخر مظاهر الحياة الحضارية في العالم الخارجي . فقد جلست للمرة الأخيرة في قاعات مؤثثة تأثيثاً جميلاً . واسترخيت في أرائك حريرية ، حيث تناولت الشاي وجميع أنواع الحلوى ، من صحاف ثمينة ، ويقوم على خدمتنا عدد من حرس السلطان بثيابهم الفاخرة ، الذين أبدوا عناية فائقة في خدمتي ، لما يعرفونه ، عن المعروف الذي سبق لي أن أسديته لسيدهم .

وحاول السلطان الصديق ، بكل ما أوتي من بلاغة ، اقناعي بالعدول عن هذه الرحلة ، ورأيته يتطلع إلي بعينين يشع منها العطف ، وكأنه واثق من أنه لن يراني حياً ثانية . ولكنه كان على استعداد على أي حال ، لمساعدتي ، إلى أقصى ما يستطيع من حول ، وسلمني رسالة إلى رئيس قبيلة « حريب » . ولكن هذه الرسالة لم تصل قط ، الى الشخص الموجهة اليه . فقبيل وصولي الى حريب ، كانت البلدة قد

سقطت في أيدي الجنود اليمانيين ، ونقل شيخ القبيلة العجوز ، الى السجن في صنعاء . وعنيت عناية شديدة ، بأن لا أشير الى هذه الرسالة في قليل أو كثير ، وأبقيت عليها مخفية في ثيابي . إذ كان وجود هذه الرسالة معي ، كافياً لاقامة الدليل على انني دخلت الى البلاد في خدمة دولة أجنبية لتقيم ببعض النشاط الخياني ، الذي كنت متهماً به على أي حال .

ورافقني خدم السلطان إلى أبواب بلدة القطان حيث كان مبارك في انتظاري . ومضينا في سيرنا طيلة الليل ، ولم نتوقف إلا قبيل شروق الشمس . واستلقيت على الرمال في النقطة التي ترجلت فيها عن البعير ، وقد تدثرت ببطانيتي مرتجفاً من الحمى التي اصابتني . ولم أكد أمضي في إغفاءة عميقة ، حتى كان رفيقي يهزني هزاً عنيفاً ، فسارعنا الى السير من جديد .

ووصلنا عند الظهيرة الى قرية شريجان ، التي تضم عدداً متفرقاً من أكواخ البدو ، التي تبدو عليها مظاهر الفقر والتعاسة . وكان من المقرر ان ننضم الى القافلة هنا ، ولكنها ، كانت قد سبقتنا واستأنفت سيرها . وكان بئر شريجان ، آخر ما سنلقاه من مصادر المياه للايام السبعة التالية . وهكذا ملأنا كل ما نحمله من أوعية وآنية ، بالماء الثمين ، وحملناها على ظهري جملين من جمالنا الثلاثة وعندما يشرب الماء هنا رأساً من مصدره ، يكون هذا الماء عذب المذاق ، ولكنه عندما يخزن في الأوعية المصنوعة من جلد الماعز ، يكتسب من هذا الجلد بعض المذاق العفن ، الذي يزداد كلما طال أمر خزن الماء وحفظه . وعلى الإنسان أن يألف هذا المذاق ، قبل أن يستطيع التلذذ بشرب هذا السائل الفاتر ، ولكن الظمأ القاتل ، كفيل على كل حال ، بالتغلب على رداءة المذاق .

وعندما اقترب المساء ، كنا نواصل رحلتنا . وتابعنا السير مع وادي الدفر الواسع الذي يضيع بصورة تدريجية في الصحراء . وكانت الضفة الشمالية للوادي قد اختفت ، أما الضفة الجنوبية ، فكانت تظهر كخيط قاتم بعيد . وقضينا الليل بطوله نغذ السير من جديد دون توقف أو انقطاع . وكان مبارك يحثني على الإسراع في السير مخافة أن لا نلحق برفاقه من رجال القافلة .

والتقينا عند الفجر اخيراً ، ببعض الجمال المتفرقة ، وهي تمضغ العروق الجافة

لبعض النباتات الشوكية القاسية ، بشفاهها الطويلة . وأخذ عدد هذه الجمال ، في الإزدياد ، ورأيت مبارك ، يتنفس الصعداء اخيراً ، فقد لحقنا بالقافلة ، التي كانت تخيم طلباً للراحة . واخذت ابحث عن صالح ، ولكن بحثي ضاع سدى ، فقد تبين لي أن الرجل ظل في شبيام ، وكانت له بالطبع ، دوافعه الخاصة للبقاء . وقد اقترح أخاه مبارك ، بدلاً منه ، عامداً متعمداً ، ذلك لأن هذا لم يكن قد اتفق معي ، ولذا فهو غير مسؤول ، طبقاً لشرعة البادية ، أمام قبيلته عن سلامتي . ولو سئل في اليمن ، عن الأسباب التي دفعته الى الإتيان برجل غريب الى البلاد معه ، لكان في إمكانه أن يقول ، وهو مرتاح الضمير : « رجل غريب ؟ ماذا تعني ؟ أنا لا أعرف شيئاً من هذا . لقد بعث بي أخي كدليل مع شخص يدعى عبد الله » . (وكنت قد اطلقت على نفسي اسم عبدالله) . وإذا ما استثنينا هذه الحقيقة ، فلقد اثبت مبارك انه خير دليل ، وقد عني بي عناية فائقة ، وكان يهتم بجميع الالتزامات التي القى بها أخوه على عاتقه .

وكنا قد وصلنا الى منطقة الربع الخالي ، وهي تلك الأرض الصحراوية المرتفعة الفسيحة ، التي تمتد على طول الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية من اليمن في الجنوب ، الى الخليج العربي في الشمال ، والتي تبدو على خريطة البلاد العربية ، وكأنها قطعة بيضاء ، لا يعرفها احد ، ولم يسبق ان اكتشفها إنسان . إنها بلاد صحراوية خالية ، لا سيد عليها ، ولا مسود فيها ، ولم يسبق لأي حاكم أو سلطان ، أن فرض حكمه عليها ، انها منطقة حرام تضم محيطات لا إعماق لها من الحجارة والرمال . وكان الجزء الذي وصلنا اليه من هذه المنطقة الآن يسمى بالبحر السافي . ومن المعتقد ، كما يقول البدو ، ان هذا البحر موجود في الحقيقة ، وانه يضم مساحة هائلة . تحيط بها الرمال من كل جانب . وقد تحدث وريدWrede نفسه ، عن خطوط القياس والوزن ، التي ابتلعتها رمال البحر السافي . ويقول البدو ، ان قوافل بكاملها قد ضاعت فريسة هذه الرمال الخادعة التي ابتلعتها . ومع ذلك فحيث توجد أية وسيلة لاقتناص الحياة ، وحيث تتعطف الطبيعة ولو بنقط ضئيلة من الرطوبة ، التي تكفي لاخراج أقل ما يمكن من العشب من الأرض لإطعام الماشية ، أولـزراعة حفنات من القمح في الأرض القاحلة ، أقام البدو ، مؤلفين مراكز أمامية صغيرة

وضائعة ، على أطراف هذه الأرض التي سيطروا عليها . وقد يختفي هؤلاء الناس ثانية من هذه الأماكن عبر القرون القادمة ، أو قد يجمعون حولهم اتباعاً ، ثم يندفعون إلى الأمام ، وسط الصحراء ، ولكن كل شيء يعتمد على إمكان تحسن الطقس أو تدهوره في سير الدورة الكونية .

وقد يكون هؤلاء الناس الذي يعيشون على أطراف الصحراء ، السلالة الباقية المنحدرة من قبائل قوية وضخمة العدد كانت تقيم في هذه النواحي ، في الماضي . ولكنهم كثيراً ما يكونون مهاجرين جاءوا اليها من أماكن اكتظت بسكانها ، بسبب التزايد الطبيعي ، في عدد السكان ، مما ارغم البعض منهم على الهجرة طلباً للرزق ، وهم يعيشون وكأنهم في جزر صغيرة ، بعيدين عن ضجيج العالم وعجيجه ، ولا يخضعون لأية سلطة خارجة عن محيطهم . ويعتمدون كل الاعتماد على أنفسهم ، ولما كان الحفاظ على الوجود ، يتطلب بحكم الضرورة ، وثوقاً من الترابط بينهم ، فإنهم يملكون احساساً جماعياً . هو جزء من كيانهم ووجودهم ، مع تحفظ معادٍ تجاه العالم الخارجي . ويحمل ابناء الطبيعة هؤلاء ، إذا شاء لنا أن نطلق عليهم هذه التسمية ، كراهية خاصة ، يبدو انها متأصلة في دمائهم ، لكل انسان ليس منهم ، ولا سيما اذا كان يمت الى عنصر غريب . وهم يعتبرونه أجنبياً عنهم ، لا تنطبق عليه شريعة البادية ، ولا اوامر الدين ووصاياه . وقد كدت أن أمر بمثل هذه التجربة ، عندما عبرت كرجل ابيض للمرة الأولى الجزء الجنوبي من صحراء الربع الخالي .

ويؤمن الربع الخالي ايضاً المأوى لطراز آخر من السكان . إنه الطراز الذي يضم العصاة والمنشقين على القانون ، الذين نبذتهم مجتمعاتهم القبلية لأخطاء خطيرة ارتكبوها . ومثل هذه العقوبة ـ عقوبة النبذ ـ هي أقسى ما يمكن أن يلحق بالبدوي من قصاص ، تماماً ، كما كانت الحالة لدى شعوب الشمال في الماضي . فالمنبوذ ، يزول عرفاً من الوجود ، وللتعبير عن زواله ، يقيم له ابناء قبيلته في مدافنهم قبراً ، وكأنه قد مات ، ودفن فيه . ومن الجرائم التي تستحق عقوبة النبذ ، الاعتداء على النساء واغتصابهن . ففي المجتمعات التي تقوم على روابط الدم ليس إلا ، تتمتع المرأة بمكانة محترمة الغاية إذ أنها التي تلد النسل ، وتحفظ القبيلة .

ومثل هؤلاء الرجال لا بيوت لهم ، والخارجين على القانون ، لا يجدون المأوى ، إلا في صحاري نائية كالربع الخالي ، حيث لا سيطرة لانسان عليها . ومثل هؤلاء الرفاق ، الذين يتشابهون في المصير ، يلتفون إلى بعضهم البعض ويشكلون عصابات تكرس نفسها لوسائل الوجود الوحيدة الباقية لديها ، وهي المتمثلة في الشحادة والسرقة ، وهما مهنتان تسيران جنباً إلى جنب ، حتى في البلاد المتحضرة أيضاً ، ولا يدري انسان كيف يعيش هؤلاء المنبوذون وأين يعيشون . فهم يظهرون فجأة ، ثم يعودون إلى الاختفاء في الصحراء غير المطروقة ، ويقطعون مسافات طويلة على هجنهم السريعة ، التي لا غنى لهم عنها ولديهم حاسة شم غريبة ، إذ يشعرون بكل قافلة تدخل المنطقة الصحراوية .

وتفرقت قافلتنا في جبهة واسعة ، وقد انشطرت إلى مجموعات فردية . وكانت كل مجموعة تضم سبعة أو ثمانية من الجمال مربوطة إلى بعضها ، وقد رفعت رؤوسها المتكبرة ، المشدودة بحبل إلى أذناب بعضها البعض ، وقد ازدانت هذه الاذناب بعقد صغيرة مزخرفة . والغريب في هذه الحيوانات ، إن المرء لا يفلح في اقامة علاقات صداقة شخصية معها ، كما هي الحال مع الجياد مثلاً . وهي تؤدي عملها بصبر وهدوء ، ولكنها تحيط نفسها دائماً ، بموجة من عدم الرضى والسخط ، وفي وسع الانسان ان يحكم فوراً ، بأنها تكره وجودها كجمال ، ولكنها في الوقت نفسه ، تحتقر جميع اشكال الحياة الاخرى ، حتى حياة الجنس البشري ، وكل ما يصدر عنها من عواطف ، يعبر عن الكراهية والسخط ، وإذا ما اثقل ظهرها بالاحمال ، أو نخزت للوقوف ، صدرت عنها اصوات غاضبة حانقة ، وكشرت عن اسنانها الصفراء الطويلة ، وكأنها تحاول أن تعض من يقف أمامها ، حتى ولو كان صاحبها الذي يعني بأمرها ، ويوليها اهتمامه . وعندما تصل مرحلة الجهد والانهاك ، تصدر عنها أصوات ناحبة تقطع نياط القلوب ، ولكن على الرغم مما في هذه الحيوانات من بشاعة منظر يتمثل في تشقق شفاهها العليا ، وفي سنامها القبيح ، وفي ليّات ركبها الكثيرة التجاعيد . وفي رائحتها النتنة التي تفرزها ، فان في عيونها الباكية ، التي تحيط بها اهداب طويلة ، جمالاً لا يضاهى . وفي هذه العيون نظرات تائهة ، تتطلع الى الخواء ، دون اكتراث بما حولها أو ما يحيط بها . وكثيراً ما تلتفت برؤوسها الى

الوراء ، وتتطلع إلى راكبيها في وجوههم بنظرات قاسية متفرّسة . وفي هذه النظرات كل معاني الألم الممزوج بالاتهام والازدراء . وليس في وسعي أن أتصور شيئاً يمكن له أن يفسد عليها حالتها النفسية .

وكانت أنوف الجبال لا تزال تسير متوازية مع اتجاهنا . وسرعان ما اخذت موجاتها الخافتة ، تنبسط شيئاً فشيئاً ، وتترهل حركاتها ، حتى تحولت أخيراً ، إلى ومضات خافتة على السطح المنبسط ، الذي برز أمامنا على شكل سهل ينتشر حولنا في كل مكان ، إلى اقصى مدى يبلغه النظر ، وكانت الأرض تتألف من الوحل الجاف القاسي ، وقد انتشرت فوقه مساحات من الرمل الرخو ، وكان في وسعنا أن نرى آثار بعض القوافل الاخرى بوضوح في الاماكن التي تقسو فيها الارض . إنها آثار اقدام الجمال التي وطئتها عبر القرون الطويلة . فهذه هي الطريق التي عبرت فيها القوافل القديمة ، مارة في الجنوب العربي ، عبر اليمن الى الشمال . ولكن حتى في هذه الاماكن التي طمست الرمال المتنقلة آثار اقدام القوافل فيها مسافة اميال عدة ، كان البدو يعرفون طريقهم الصحيح فيها آناء الليل وأطراف النهار ، بتعيين لا يتطرق اليه شك . وكان سعيهم وراء الحفاظ على الوجود هو الذي يضبط قيافتهم للآثار ، ضبطاً يصل حدود الكمال ، إذ أن أقل خطيئة في الصحراء المجدبة ، تعني الموت الاكيد .

وكنا نغذ السير كل يوم بين أربع عشرة وست عشرة ساعة . وكنا عندما نشرع في رحيلنا عند الفجر الشاحب ، يحدونا البدو بحدائهم الرتيب ، ذي النغم الواحد غير المتقطع ، المشفوع ببعض التهدجات الصوتية ، والذي يدفع بنا الى الامام وكأننا نستقل ارجوحة طفل ناعمة . وعندما تصعد الشمس في كبد السماء ، وتلسع جلودنا بأشعتها المحرقة ، كان كل شيء يهدأ ، فنواصل السير الى الامام ، وكأننا قافلة من الاشباح التي لا حراك بها ، ولا يقطع ما حولنا من سكون ، إلا صيحة عارضة ، يهتف بها أحد البدو ، حاثاً الابل على المسير . وفقدنا مقاييس الزمان والفضاء في هذا الانسجام الخالد في كل ما يحيط بنا ، والذي لا يقطعه مرأى أية شجرة أو نبات أو تبدل في طبيعة الأرض . ولم نعد نعرف في أي مكان من الارض نحن ، كما لم تعد لدينا أية فكرة عن الساعات أو الايام أو الشهور . فكل شيء قد اختلط في يمّ لا حدود له من الشكيّة وعدم اليقين . وكان الضوء الساطع المتعكس على الرمال

البلورية ، ينفذ إلى عيوننا الملتهبة ، كحراب مدببة ، وكانت اجفاننا التي امتلأت بالغبار ، تصر صريراً مزعجاً ، لدى أقل حركة . وكانت أطرافنا قد جهدت بالآلام والمتاعب . التي أخذت في التزايد ، حتى أننا وصلنا إلى حالة من الخدر الجسماني العام ، فلم نعد نشعر بشيء . ولكن حواسنا كانت متيقظة أشد يقظة . وكثيراً ما يخيل الى الواحد منا أنه يرى بيتاً على مبعدة ، بمنتهى الجلاء والوضوح . وعندما يعود إلى النظر في عين الاتجاه ، يجد ان ذلك البيت قد اختفى ، وبانت مكانه موجات شاحبة صفراء من الهواء ، ترتفع وتهوي ، متغضنة وقافزة . وكثيراً ما يصاب الواحد منا بالفزع والرهبة ، عندما يرى سحابة من الرمال ، لا تزيد في حجمها على حجم السحابة العادية ترتفع في عمود نحيل ، ثم تنتشر في الهواء . وتمتد في رقصة عمودية دائرة ، وكأنها تتحول إلى ذراعين ممدودتين ، ثم لا تلبث أن تختفي في ومضة عين لتعود إلى الظهور ثانية والتحويم في مكان آخر . وكان البدو ينظرون الى هذه الدوامات الهوائية ، نظرة الرعب والخوف ، إذ يعتقدون أن افراد الجن يتقمصونها . وهم يعتقدون أن الصحراء ، مأهولة بمختلف أرواح الموتى ، والشياطين والأبالسة الذين يؤلفون ملكوتاً هو بين الموت والحياة . وكثيراً ما خيل إلي بأنهم على صواب في هذا الرأي ، ويكره العربي الصفير ، لأنه يخشى من دعوة الارواح .

وعندما تميل الشمس المحرقة نحو المغيب في السماء ، وتحين ساعة الانتقال السريع الى الليل ، يصبح المرء وكأنه يستيقظ من كابوس مرعب . فالخدر البدني ، يأخذ في الاختفاء . وتبدأ ثورة الاعصاب في الخفوت شيئاً فشيئاً في موجات رخية طويلة . وعندما يقام المخيم لقضاء الليل ، ويستلقي الانسان والحيوان طلباً للراحة ، ويسود الهدوء الكامل ، ويختفي القريب والبعيد اختفاء جزئياً في ضوء النجوم الازرق الخافت ، وهي تبدو قريبة من الارض ، وأكبر حجماً من المعتاد ، يشرع الانسان في سماع أصوات منشدة ، ترتفع خافتة ثم تنخفض الى حد الاختفاء . إنه صوت الرمال التي تغني ، والتي تقفز وتركض ، وتحملها أقل نسمة من النسمات طائرة في الهواء . ويحس الانسان بشعور غريب من التجلي والتكشف الصوفي ، ويشعر بالحياة الخفية التي تفح بها الصحراء ، التي تبدو متينة في ظاهرها . وعلى الرغم من ان الانسان لا يمسك بهذه الحياة الخفية بأحاسيسه العادية الخارجية ، إلا أنه يجدها تملأ

عليه كل أفكاره ومشاعره . وأصبح في امكاني أن افهم لماذا آثر العرب غيرهم من الشعوب ، أن يروا في هذه الأراضي غير المأهولة ، موطناً لكائنات غيبية وغير مرئية . وقد أثرت في هذه القوى المنبعثة من الأرض والهابطة من السماء ، وتركتني أسيراً لسحرها . وقد اتضح لي شيء آخر على الأقل ، فقد تحررت من جميع روابط الوجود الانساني ، وأحسست بدنوي من وجود غيبي آخر ، وتفهمت فجأة . لماذا وصلت مفاهيمنا عن الله ، منتهى الصفاء والنقاء والنبل في بلاد الصحارى ، ولماذا قامت ديانتان من اعظم ديانات العالم ، في مكانين قريبين من بعضهما كل القرب من هذه المنطقة .

وفي ذات مساء ، وكان الظلام قد خيم ، ولكن القمر لم يكن قد طلع بعد ، وكانت القافلة لا تزال ماضية في سيرها في صمت عبر الصحراء،بعد مسيرة يوم طويل كامل . التفت الى رفيقي أريد سؤاله عن أمر ما ، ولكنني ما كدت افتح شفتي ، حتى همس في اذني : « صه ، اللصوص . إنهم قريبون ، لا تتكلم » .

وجلت بنظري في كل مكان ، فلم أر ما يريبني ، في جنح الظلام . ولكن عندما توقفنا ، واشعلنا النيران ، افزعنا صوت طلقة نارية صادرة عن قائد القافلة وسارع كل واحد منا إلى الاختباء مع بندقيته وراء الجمال التي كانت مقعية في دائرة . ورأيت الآن أشباحاً غير واضحة ، تظهر في الظلام ، أحصيت عدداً من الرجال يمتطون الابل المهرولة ، وكل رجلين منهم على ظهر هجين واحد ، وكان هؤلاء هم اللصوص ، الذين حذرنا من مجيئهم ، ولكنهم عندما رأونا على استعداد لمقابلتهم بالرصاص ، وإننا نفوقهم عدداً ، ترجلوا عن ابلهم ، واقتربوا منا . يحملون رايات السلام ، ويطلبون منا الرفد والاستقبال الحسن . واعطيناهم بعض الخبز والماء ، وجسلوا إلى جانب نار المخيم بعض الوقت ، يتحدثون الينا وكأنهم من خيرة اصدقائنا ، ثم عادوا يختفون في ظلام الصحراء بصورة مفاجئة ، لا تقل مباغتة عن الطريقة التي جاءوا فيها .

ولكن هؤلاء الاعراب لم ينقطعوا عن ملاحقتنا لحظة واحدة منذ هذه الدقيقة . فعندما بزغ الفجر ، رأينا أشباحهم القاتمة تظهر أمام الافق ، وكانوا يطلعون علينا هنا أو هناك ، يرقبون فرصة سانحة ، يكسبون فيها غنيمة هينة . وجاءنا هؤلاء

الضيوف الثقلاء ، ذات يوم اثناء قيلولتنا ، وأطالوا زيارتهم أكثر من المعتاد ثم ظلوا معنا الى اللحظة التي هدمنا فيها المخيّم . وتحلّقوا علي أنا الرجل الابيض ، واخذوا يوجهون إلي أسئلة تتناول كل أمر من الأمور ، وكان البدو في غضون ذلك منشغلين في اعداد الابل للمرحلة الثانية ، وقد وضعوا أسلحتهم جانباً ، حتى مع وجود هؤلاء اللصوص الذين كانوا يحملون بنادقهم على أكتافهم طيلة الوقت . ولكن هؤلاء الأعداء قد استقبلوا كضيوف ، وقانون الضيافة مقدس في جميع الظروف والاحتمالات . وهذا أمر يستطيع الانسان أن يعتمد عليه كل الاعتماد دائماً . فحتى هؤلاء العصاة ، الذين نبذهم المجتمع الانساني يطيعون شرعة الصحراء .

وبعد أن ظللنا نحوّم في الصحراء غير المأهولة ستة أيام ، وصلت القافلة أخيراً ، الى سلاسل الجبال التي تقع في طرف الربع الخالي . وبدت بعض آثار الخضرة المتفرقة ، تظهر على الأرض من جديد ، مما يشير إلى وجود بعض الرطوبة فيها . وحيثما يوجد هذا المتطلب الأساسي الأول من متطلبات الحياة ، وهو الماء ، ففي وسع الانسان أن يتأكد من وجود البشر ايضاً ، مهما كانت أوضاع الحياة التي يعيشون فيها تعبة وقاسية . وسرعان ما ظهرت أمامنا مستعمرة بدوية تدعى شبوة . وكان الوقت عند الظهيرة ، وكانت الشمس قد وصلت كبد السماء ، وأخذت ترسل أشعتها عمودية على الأرض . وأخذت ، أنا الذي ألف مناخاً الطف من هذا المناخ ، أتطلع ، بعين خيالي الى ظل أحد هذه الاكواخ التي تتراقص أمامي على مبعدة ، لأهرب ، ولو لفترة راحة قصيرة، من هذا الألق القائظ الدائم ، ولكن أملي سرعان ما طاش . . .

- ٦ -

في أرض سبأ القديمة

وبينما كنت أركز نظرة الاشتهاء والرغبة ، على أكواخ القرية البعيدة ، انحرفت القافلة انحرافاً فجائياً ، متجاوزة شبوة التي أضحت على مسافة بعيدة ، في ليّة واسعة . وقد علمت أن أهل هذه المنطقة يكرهون الاجانب كراهية خاصة ، ولم يكن في وسع رجال قافلتي ، أن يغامروا بدخولها ، وفي رفقتهم نصراني أوروبي . وكان هذا القول ينطبق ايضاً على « إرمة » التي وصلنا اليها فوراً بعد شبوة . وقد أقمنا استراحة الظهيرة على مبعدة من القرية ، وتحتم علي أن اختفي في أجمة ، عندما ذهب اثنان من رجال القافلة ، إلى القرية ، بحثاً عن الماء . وعندما عاد الرجلان وتناول كل منا جرعتين من الماء البارد ، مضينا في طريقنا في اقصى السرعة من جديد .

وكنا نسير الآن بحذاء أحد الوديان ، وهو منخفض ضحل ، لم يكن يختلف كثيراً عن الأراضي التي تجاوره . وكان في الامكان تمييزه فقط كنهر جاف يابس ، من الاعشاب الشوكية الكثيفة النامية في قعره . وتقدمت الجمال السبعون في خيط طويل ، احدها وراء الأخر ، وقد ربط رأس الواحد منها بذيل الذي يسبقه وكان بعيري آخر واحد في القافلةوتقدم منا الاهلون رجالاً ونساءً واطفالاً ، على ابلهم ، يسيرون في صف واحد . وحيا الرجال إخوانهم من رجال قافلتنا ، وبدا أن أياً منهم لم يأبه بوجودي .

وشرعت أفكر ، بأن كراهية أهل المنطقة للاجانب ، لم تكن على ذلك النحو من السوء الذي وصف لي ، ولكنني على كل حال ، ظللت جالساً على عرشي

المرتفع ، وقد احنيت رأسي ، لأظل مختفياً قدر الامكان عن عيون الزائرين . وفجأة اقترب بدوي ، كان يقف إلى جانب الطريق منا ، وعندما وصل إلى نهاية الخط الطويل . رآني ، فتردد لحظة واحدة ، ثم حل هجيني دون أن يقول كلمة ، وقاده جانباً إلى الأجمة ، ثم بدا يركض بسرعة هائلة ، وهو يجر الجمل وراءه ، وأنا على ظهره . ولم تكن حامية القافلة قد رأت شيئاً مما دار حتى الآن . وعندما صرنا على بعد لا بأس به . توقف هذا الرجل عن الركض ، وافهمني أن أي أجنبي لا يستطيع المرور بسهولة من أرضه بأية حالة من الأحوال ، وأنني قد غدوت مع متاعي ملكاً له ، وإنه سيعاملني كما يجب أن يعامل الاجنبي وفقاً لعادات بلاده . ثم استل خنجراً معقوفاً بيده وقام بحركة لم أخطىء في فهمها .

وأرى لزاماً علي أن أقول هنا ، أنني لم أكن أحمل أي نوع من السلاح معي طيلة الرحلة ، وإن ثمة أكثر من سبب واحد لذلك . فعندما يشك البدو في أن الغريب يحمل سلاحاً ، يتطرق الشك إلى قلوبهم فوراً ، ويحاولون كل ما في وسعهم الحصول على السلاح الذي يحمله . وهم إما أن يلحفوا في طلب هذا السلاح الحافاً شديداً ، بحيث يتحتم على الغريب أخيراً اعطاءهم إياه ، أو أنهم يسرقونه منه بصورة سرية . على أي حال ، يكون الغريب بلا حول ولا طول ، وهو وحيد أمام مجموعة ضخمة من البدو ، هذا إذا وقفوا منه موقفاً عدائياً . وإذا ما استخدم الغريب سلاحه في لحظات الخطر ، وقتل رجلاً من أهل البلاد فإنه يصبح خاضعاً لقانون الثأر الذي لا يستطيع الفكاك منه أي انسان . يضاف الى هذا أن حراسي دائماً مسلحون ، وإن سلاحهم يكفي لمواجهة أية حالة طارئة . وعلى أي حال ، فقد اظهرت لي التجارب دائماً إن من حسن السياسة والتصرف ، ان لا أحمل السلاح مطلقاً وانا وحيد في بلاد غريبة .

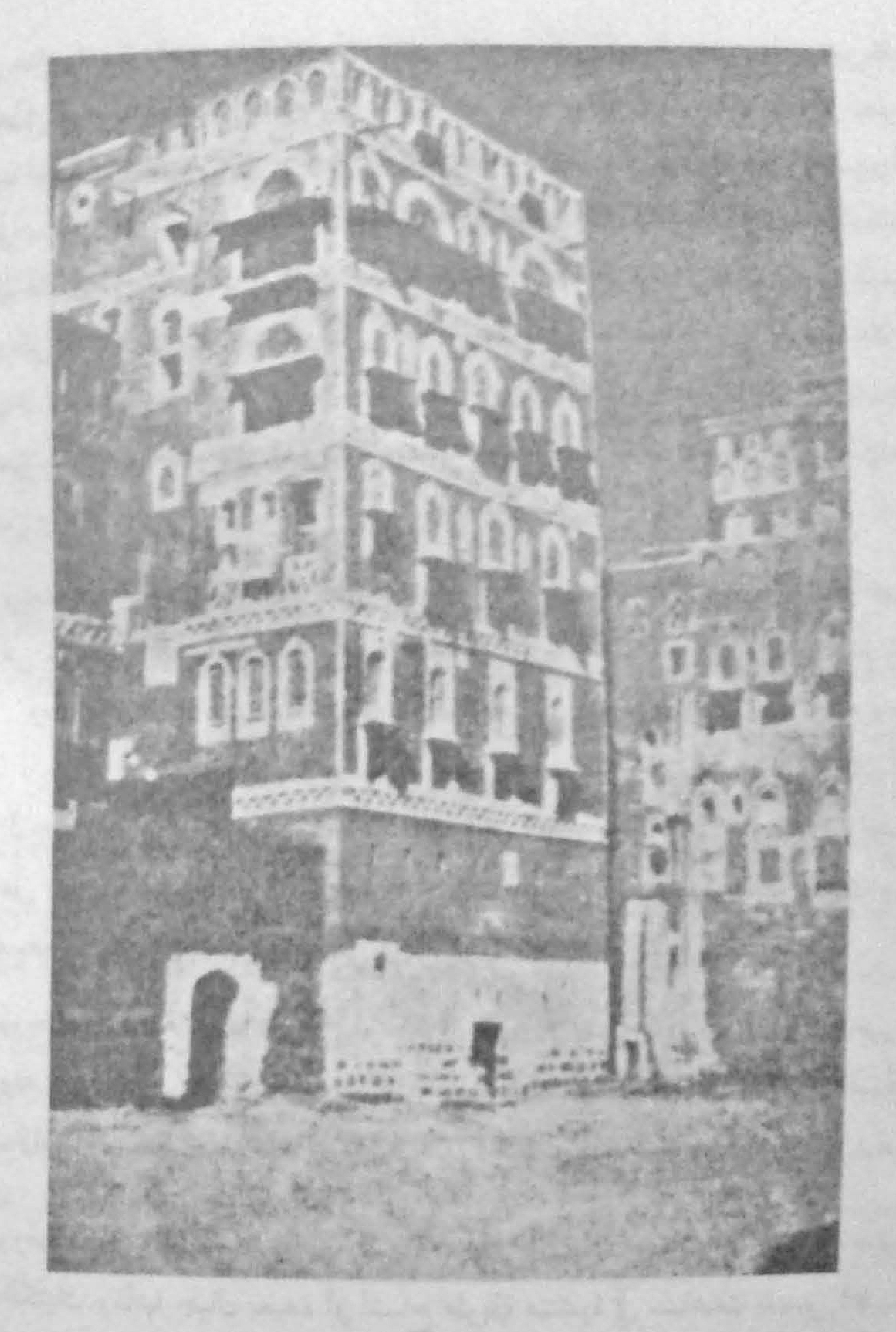
وعندما ادركت أن الرجل قد اختطفني ، قفزت من فوق ظهر البعير وأخذت اصرخ علىْ رفاقي ، بكل ما لدي من قوة . وقد ادركوا الآن حقيقة ما وقع . وجاءوا لنصرتي ، بمنتهى السرعة . ومضى خاطفي هارباً ومعه بعيري وما عليه من احمال . وبعد عملية بحث طويلة ، عثرنا عليه مختفياً وراء اجمة من الشوك ، وهو يقوم

بتفتيش متاعي . وهاجمه مبارك ، وقد انتضى خنجره . ولكن الرجل دافع عن نفسه وهو يحمل في يسراه آلة تصويري ، وكأنها كنز ثمين . مع انه لم يكن يعرف حقيقتها . ولا أي شيء هي . ومن المحتمل ، أن يكون الرجل قد تصور آلة التصوير ، سلاحاً سرياً . وبعد الاشتباك الأولي الذي لم ترق فيه أية دماء ، استعد الفريقان للتفاوض . وطال النقاش عدة ساعات ، وانطوى على الكثير من السباب العنيف من الفريقين . وأعلن الرجل أخيراً استعداده لاعادة المتاع لي لأنه لم يجد فيه اي مال . ولكن ظلت هناك قضية جهاز التصوير ، الذي أراد البدوي الاحتفاظ به باي ثمن . وأخيراً سوِّيت هذه القضية ايضاً . فقد تسلم الرجل ريالاً واحداً كتعويض واعاد الجهاز الينا .

وبعد أن اضعنا طيلة قبل الظهيرة بسبب هذا الحادث ، واصلنا السير بأقصى ما لدينا من سرعة ، لنتخلص من هذه المنطقة التي تكره الغرباء والتي تضم شبوه وإرمة . ومع ذلك فقد انضمت الينا رفقة ليست من النوع الذي نرغب فيه ، فقد لحق بنا أربعة من بدو شبوه ، يريدون السير مع قافلتنا حتى بيجان . وكان أحد هؤلاء الرجال الاربعة متعباً بصورة خاصة ، فقد اقعى على ظهر جمل عجوز وامتدت ساقاه على ظهره . ويبدو أن شكلي قد اعجبه ، فقد ظل يتطلع إلي طيلة الوقت ويشير علي باصبعه مكرراً القول : « يا له من رجل غريب . إن له بشرة بيضاء » .

ورحت افكر بأن هذا الرجل لو بدا في شوارع مدينة اوروبية ، فإن الناس فيها سيجدونه غريباً ايضاً . يضاف الى هذا أنه كان قد دهن نفسه بشحم ضأن ، اندفعت رائحته ، فأضحت مما لا يستطيع المرء احتماله مدة طويلة من الزمن .

ووصلنا في الصباح التالي ، الرملة ، وهي منطقة صحراوية رملية اصلية . وبدت الكثبان وكأنها جبال بعيدة أو أشباح طويلة منتشرة في ساعات شمس الصباح الباكر . وكانت هذه المنطقة هي آخر ما سنقطعه من مناطق تخلو من الماء والخضرة ، كما كانت رحلتنا فيها من اشق الرحلات . وكان رجال القافلة وحيواناتها قد وصلوا آخر حدود الانهاك ، والضعف من جراء ما انقضى من اجزاء رحلتنا . ولم نتمكن من صعود هذه الكثبان والهبوط منها ، في صفوف متلاحقة ، إلا باستنفار كل ما تبقى



ناطحات السحاب في صنعاء ، النوافذ من البلور المزخرف



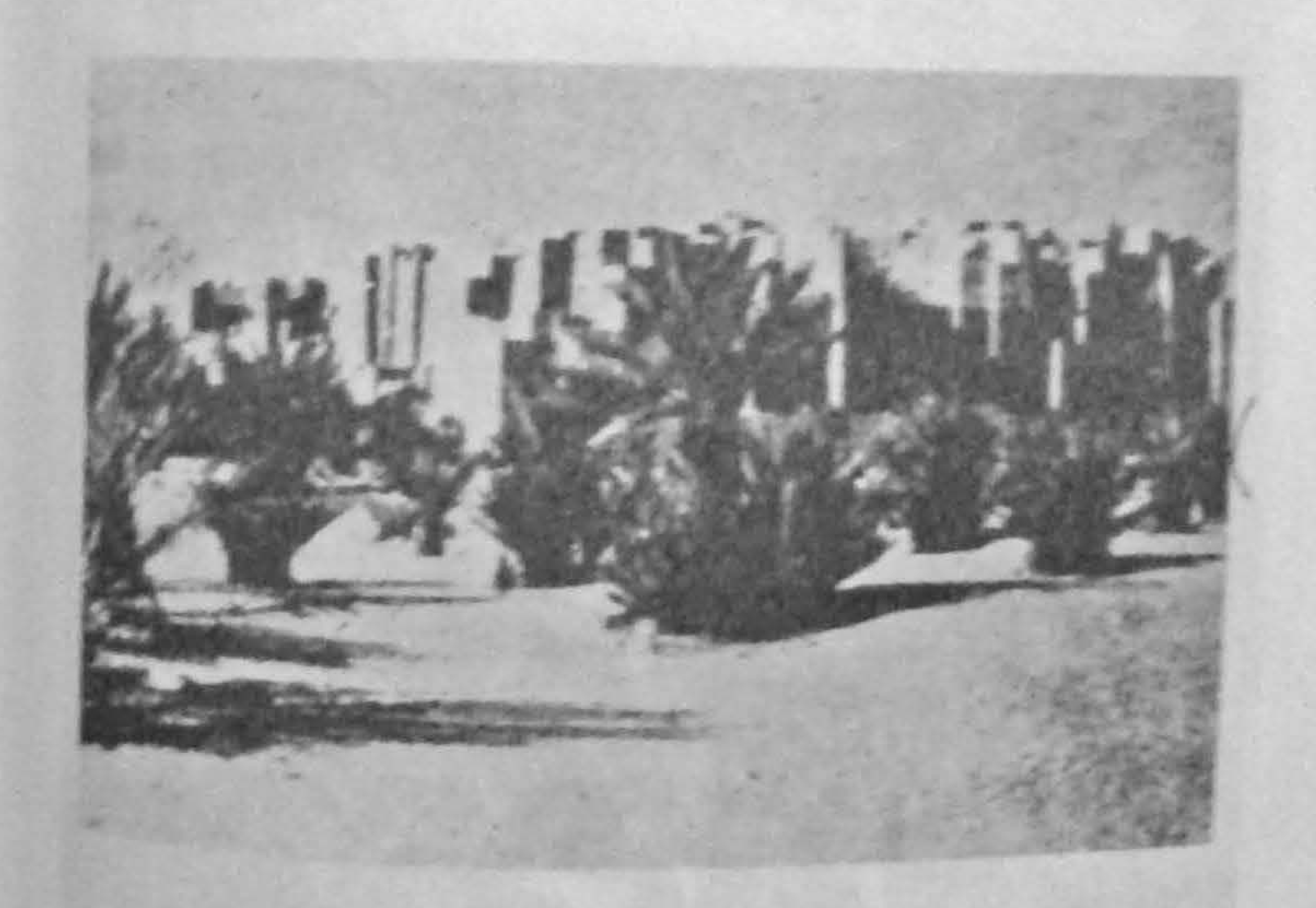
قرية من قرى جبل حراز



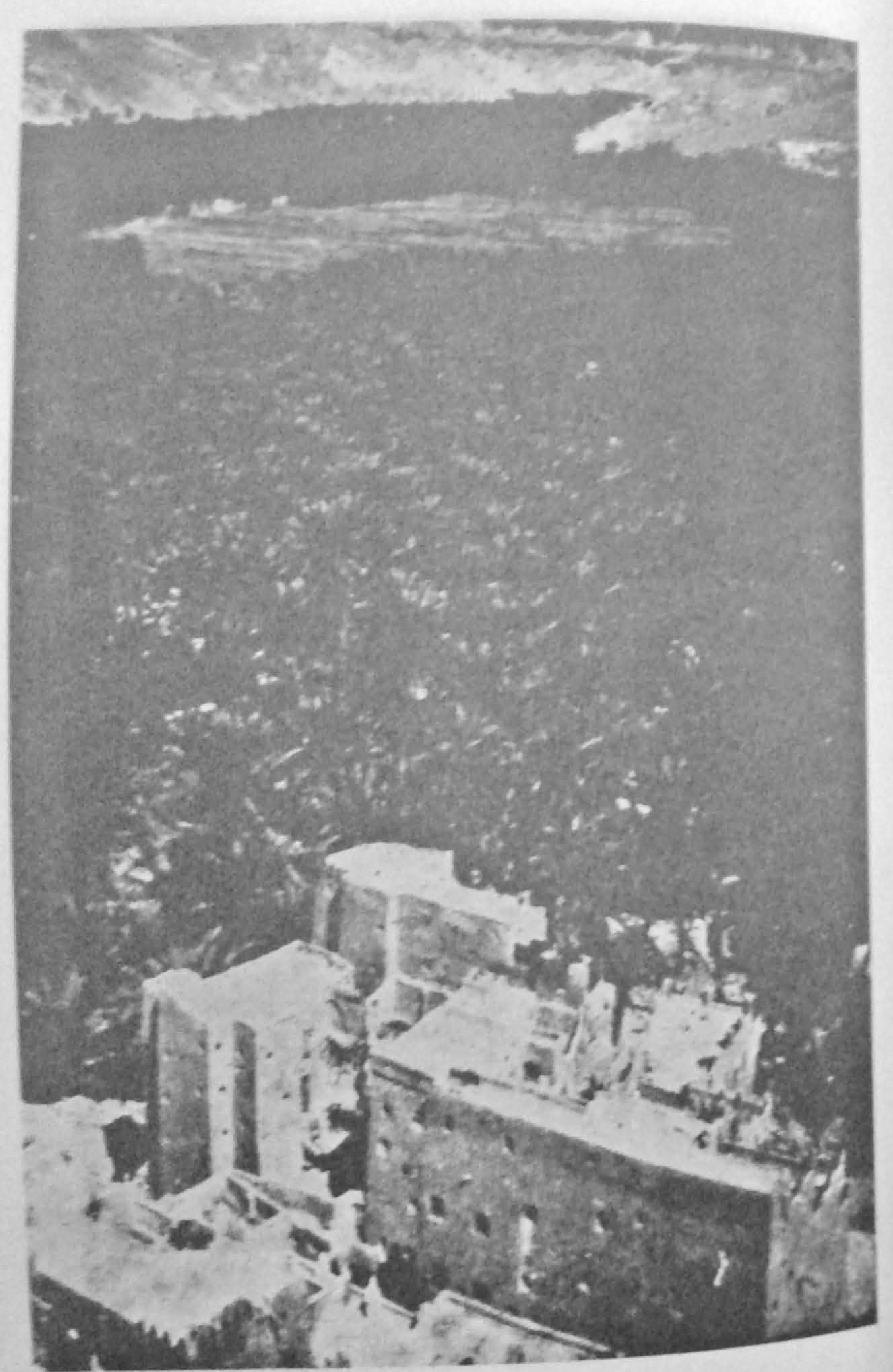
أكواخ الزرانيق في تهامة



جنديان من رجال الجيش في اليمن



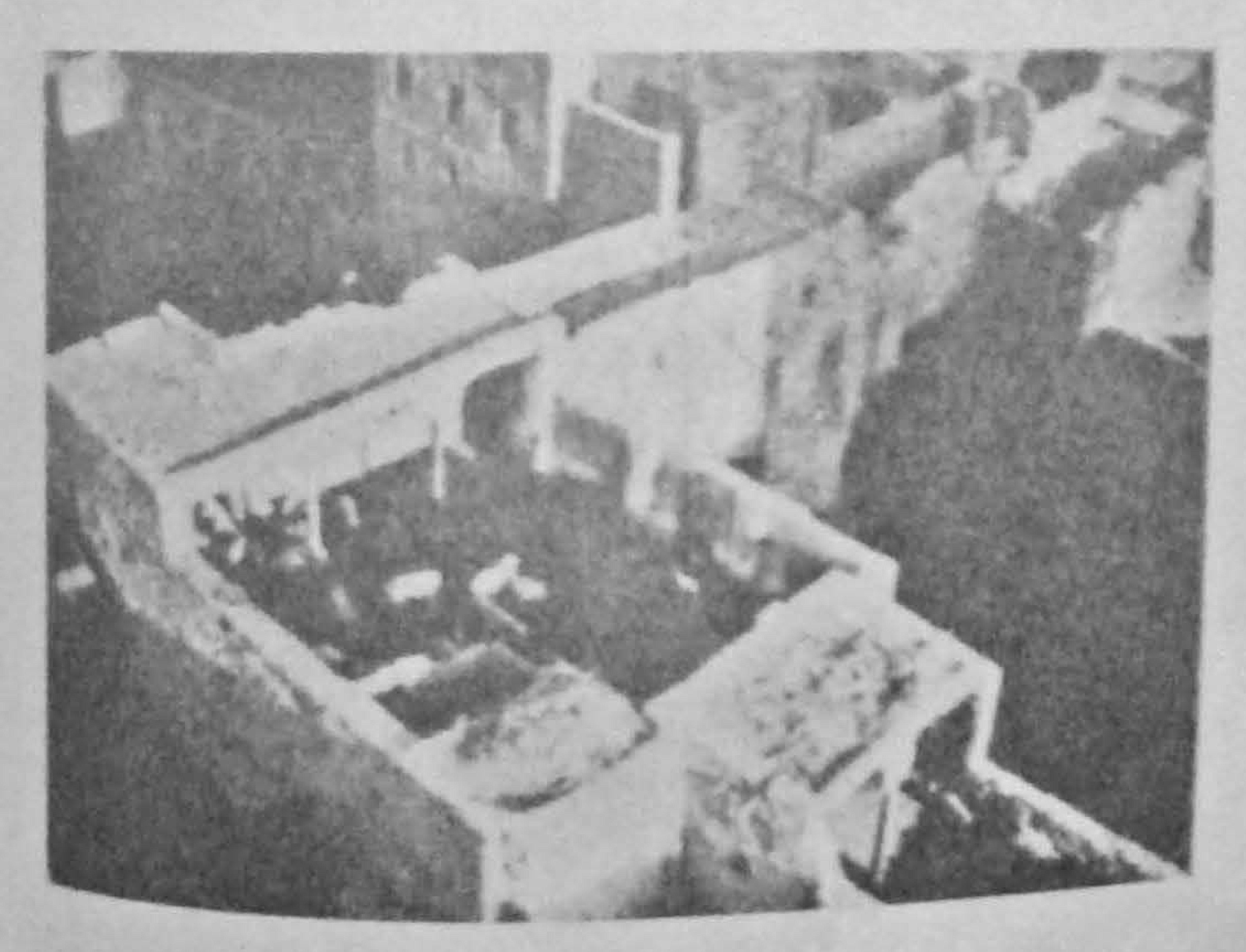
شيام عاصمة حضرموت القديمة



مزارع النخيل الواسعة في وادي الدوان



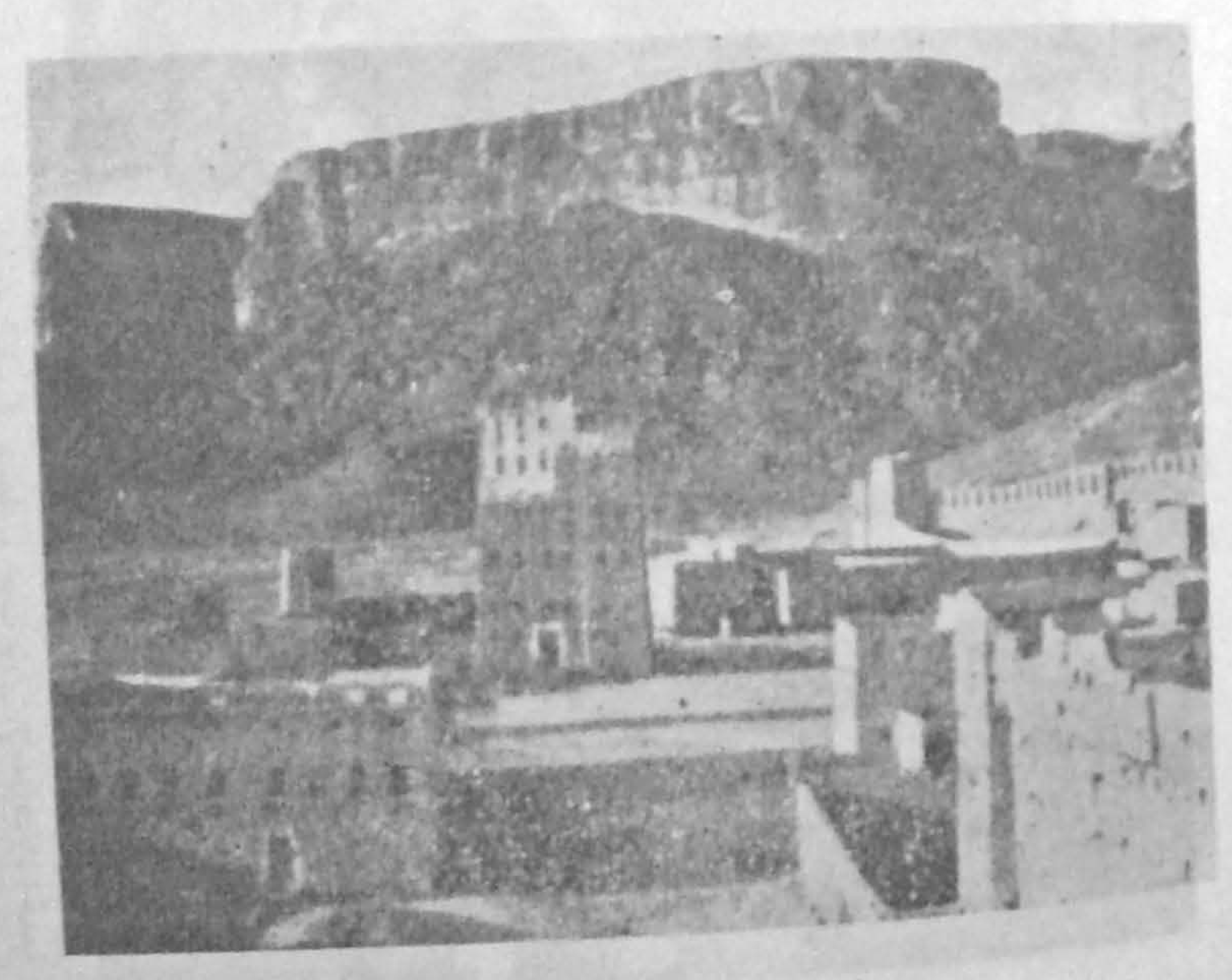
ميناء المكلا في حضرموت



قرية محصنة في وادي الدوان



كثبان الرمال في أعالي حضرموت



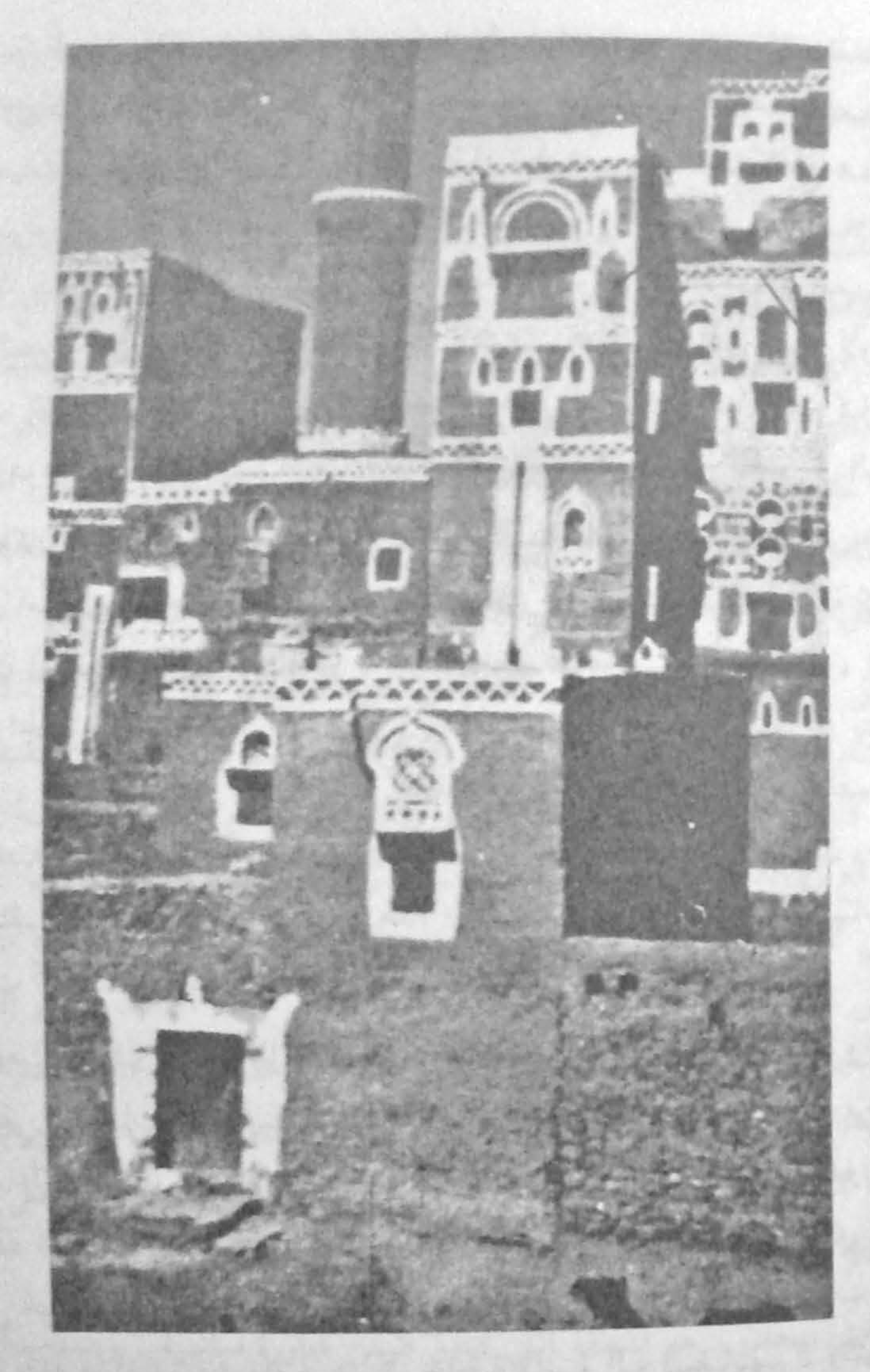
بلدة القطان ويحيط بها سور مرتفع



صورة وجه من وجوه صنعاء



الجامع الكبير في صنعاء ، حيث يؤدي الإمام صلاة الجمعة



طراز البيوت في اليمن ، ومئذنة الجامع وراء البيت

لدينا من قوى ، لا سيما ولم يكن في امكاننا أن نخفض من سرعة غذنا السير أو نركن إلى فترات طويلة من الراحة ، وكان من الضروري للغاية ، بسبب ما لدينا من كميات محدودة من الماء ، أن نحافظ على توقيت رحلتنا وأن نقطع هذه الأرض الصحراوية في غضون أربعة أيام . فالتأخر يوماً واحداً قد يعني هلاك القافلة بأسرها . وإذا انهارت قوى أحد رجال القافلة . أوثقه الآخرون إلى بعيره ، وجر هذا البعير جراً . وكان معنا ثلاثة من الفتيان ، حملهم آباؤهم معهم لأول مرة في رحلات القوافل هذه . وكان من الواضح أن هذه الرحلات شاقة لهم كل المشقة ، ولكن زهوهم ، باستطاعتهم اثبات حقيقة بدويتهم ، حملهم على المضي في الرحلة .

وكان أحد الجمال ، يقف بين الفينة والفينة ، وقد اضناه الجهد والسير . ولم يعد في استطاعة رجال القافلة حمله على السير . وفي مثل هذه الحالة كان البدو يلجأون إلى نوع ضخم من الإبر ، يخيطون به عادة سروج الجمال ، فيخرقون خيشوم الجمل ، حتى يسيل منه الدم . وعندما يتحرك الجمل الامامي ، يتوتر الحبل المشدود ، فيحس الجمل المنهك بالألم الشديد الذي لا يضاهى ، ويجد نفسه مضطراً رغم ارادته على مواصلة السير . وكان المرعب . ان اسمع أنين الحيوان وصراخه ، عندما يثقب أنفه . واني لاعترف أن هذه العملية متناهية في قسوتها ، وباستثنائها ، فقد كنت ألاحظ ما يضفيه البدو من حب ورعاية على ابلهم .

ومن المألوف بالنسبة الى الجمال ، إن تشعر ببعض أوجاع المعدة وان تنهار . فقد تختفي النباتات الشوكية التي يمكن العثور عليها دائماً على مقربة من سلاسل الجبال . أكثر من أسبوع ، وتبيت الابل دون غذائها المعتاد . وكان البدو يلجأون في مثل هذه الحالات إلى إعداد نوع من الدواء ، إنه ماء القلي المالح ، الذي يعدونه في أكياس خاصة ، ثم يصبون منه كميات وافرة في فم الجمل المصاب ، بدون أن يكترثوا بقلّة ما لديهم من ماء ، هم في حاجة ماسة اليه لسقايتهم ، وكثيراً ما كان هذا العلاج يجدي ويفيد ، ولكنه في حالات أخرى ، لم يكن نافعاً مطلقاً . وفي مثل هذه الحالة ، كانوا يتركون الجمل المصاب في مكانه ليواجه موته المحتوم المؤلم ، الذي لم يكن في وسع أحد من رجال القافلة ، تعجيله أو الاسراع به . لان قتل الحيوانات ممنوع عند المسلمين منعاً باتاً ، إلا إذا كان القصد ذبحها للحصول على لحمها .

ويرى التفكير الاسلامي ، إن الموت البطيء خير من الموت السريع للبشر إذ ان المؤمن يستطيع اعداد نفسه للموت بفراقه هذه الدنيا ، ليمضي إلى جنات الفردوس .

ودخلنا في اليوم الرابع من رحلتنا ، وعند الظهيرة تقريباً ، وادياً ، يقوم بين الكثبان الرملية ، وأخذ هذا الوادي يتسع شيئاً فشيئاً ، مبعداً الكثبان الرملية إلى الوراء ، التي اخذت تنأى عنا تدريجياً . وبدأنا نرى الخضرة وقد غطت أرض الوادي ، التي اصبحت الآن محدودة المعالم وكانت هذه الخضرة في بداية الامر في نتف متفرقة ، ثم ما لبثت أن أخذت تكثف وتكثر . وكانت تتألف من بعض الاشواك الجافة والاعشاب المطمورة في الرمل ، محدثة سلسلة طويلة وتتعرج كثعبان اشهب ، إلى أن تصل الى سلسلة الجبال ، التي كانت تتراءى أمامنا في المدى البعيد .

وعلى الرغم من أن استمرار القافلة في سيرها ، كان يتم على حساب المزيد من الجهد والتعب ، إلا أن مظهراً من مظاهر الحيوية أخذ يبدو في حركاتنا ، فقد حاولنا ان نمضي قدماً في طريقنا بأسرع ما يمكن ، وبقدر ما تسمح لنا طاقاتنا به . وكانت الاباعر ترفع رؤوسها بين الفينة والفينة وتستنشق الهواء بجماع خياشيمها . وبدت لمحات من التوقع السعيد تبدو في وجوه الرجال وتتراءى خلف ما يلفها من لثام . فقد انتهى الآن الشطر الأكثر صعوبة من الرحلة ، وقد أكملنا عبور الصحراء الحقيقية بنجاح ، دون أن نخسر شيئاً سوى عدد من الابل ، وخلفنا أهوال الربع الخالي وراءنا . وقد وصلنا إلى أول أهدافنا بعد هذه الصحراء ، وهو وادي بيحان ، الذي كنا نمر الآن فيه . وها نحن نسير الآن في مناطق مأهولة . سنظل نواصل الترحال فيها منذ هذه اللحظة .

ووادي بيحان ، هو المنطقة التي تجاور اليمن مجاورة مباشرة . وعدد سكان هذا الوادي ضئيل ، كما أن مناظره الطبيعية فقيرة . وليست فيه مدن كبيرة تضم وحدات سكنية كبيرة ، كتلك التي توجد في حضرموت ، في الجانب الثاني من الربع الخالي . وتقوم أكواخ متفرقة من الطين ، في الوادي الواسع على مقربة من سلاسل الجبال .

وكانت قبيلة بني مصعب ، التي تنزل هذا الوادي ، في حالة نزاع مستمر مع

بني عقيـل ، التي ينتمي اليها جميع البدو من رجـال قافلتنـا . ولم اعـرف سبباً لهذه المنازعات المستمرة بين القبيلتين ، سوى أن تجاورهما ، هـو الذي يخلق المشاحنات . وهذا أمر مألوف حتى في البلاد المتحضرة .

وعندمـا دنت القـافلة من أول أكـواخ بني مصعب ، قـامت بلفة واسعة ، متجاوزة المساكن بصمت وهدوء ، ودون أي حديث يـدور بين رجـالها ، تجنباً لاثارة الانتباه . وانقضت ساعتان تقريباً ، وكان الظلام قد بـدأ يخيم علينا . عنـدما توقفنا على مقربة من بئر مهجورة . وتمكنا لاول مرة منذ عدة أيام ، من أن نشرب ماء زلالا بارداً ، احسسنا معه ، بمتعة لا توصف . وما كدت انصب سريـري السفري ، حتى مضيت في اغفاءة عميقة ، وما لبثت أن افقت منها بعد وقت قصير ، فقد اكتشف بني مصعب وجودنا ، وأصبحنا معرضين لخطر الهجـوم ، فقررنـا المضي بقافلتنـا . وبعد بحث طويل في جنح الظلام ، عثرنا على منخفض عميق ، وسط الكثبان ، تحيط به تلال عالية تصلح للدفاع من كل ناحية . وقد قضينـا بقية الليـل في هذا المنخفض . وأراد رجال القافلة في الصبـاح التالي المضي بـأقصى سرعـة ممكنة للخـلاص من هذه المنطقة المعـادية . ولكن هـذه الرغبـة لم تتفق مع خـططي ، فسلطان بيحان ، الذي يحكم هذا الوادي يدين بالولاء لسلطان عدن . وهـذا السـلطان مشمول بحمـاية دولة عظمى هي بريطانيا . التي تتولى المحافـظة عليه من مـطامح ملك اليمن التـوسعية ، التي نشـطت نشاطاً ملحوظـاً في هذه الايـام . وأردت القيام بـزيارة السلطان لسبب خـاص . فبيحان ، التي لا تضم إلا منـطقة لا كثـافة للسكـان فيها ، والمـدفـونة في الـرمال الى وسـطها ، كـانت في يوم من الايـام ، امارة مـزدهـرة من الامبـراطـورية السبأية ـ الحميـرية ، وتعتبـر اليوم من أهـم المنـاطق التي تحفظ بقايـا تلك الحضارات القديمة . وعلى الرغم من مـوقف السكان غـير الودود منـا ، لم أرغب في اضاعـة هذه الفرصة المحتملة ، في تفحّص هذه الآثار عن كثب .

وعندما أعربت عن عزمي ، دار نقـاش استطال أكـثر من ساعـة على الـطريقة العـربية المـألوفـة . ورفض رفاقي من البـدو رفضاً بـاتاً ، الاقتـراب من مقـر حـاكم بيحان ، اعتقاداً منهم ، بأنهم سيتعرضون الى خطر كبير ، إذا ما فعلوا ذلك . ولكني اصررت على خطتي ، واعلن مبارك اخيراً ، استعداده لمصـاحبتي وحده ، شعـوراً منه

بمسؤوليته في الحفاظ على حياتي . وتقرر أن تمضي القافلة في طريقها ، وأن تنتظرنا في اليوم التالي ، خارج منطقة بيحان . فمضيت مع مبارك نحو العاصمة .

ورحنا نصعد الجبل الى قلعة السلطان . والشكوك تساورنا في الطريقة التي سيستقبلنا بها . وكنت امتطي صهوة هجيني ، وقد ثقل ظهره ، بما يحمله من متاع لي ، هو كل ما أملك في هذا العالم . ولم يقع أي حادث مثير طيلة الطريق . ولم نر انساناً في مسيرنا ، وعندما وصلنا قمة الجبل ، اندفع فجأة نحو من ثلاثين بدوياً من القلعة ، باتجاهنا . إنهم جنود السلطان ، بل ولعلهم كل ما لديه من جيش ، وكان كل واحد منهم مسلحاً ببندقيته وخنجره ، أما ملابسهم فرثة حقيرة . وأحاطوا بنا في طرفة عين ، وانطلقت بعض العيارات النارية . كما علا الكثير من الصراخ والضجيج . وسرعان ما لاحظت أن العيارات كانت تطلق في الهواء ، وإن الامر لا يعدو مجرد لهو ومزاح . وقد اطلق كل جندي عيارين نارين تحية لنا ، وإذا ما اعتبرنا قيمة ما هذه المادة من ضرورة قصوى في الوجود في تلك المنطقة ، تبين لنا ، أن الاكرام الذي قوبلنا به لم يكن عديم الشأن والأهمية . وقد تبينت ، فيما بعد ، أن الجماعة حسبتني مبعوث دولة اجنبية ، يجب أن اقابل بمظاهر الاحتفاء والاكرام .

وعلى الرغم من اسراعي في إيضاح هذا الخطأ في هويتي ، فقد استقبلني السلطان استقبالاً ودياً للغاية . وكان الرجل عجوزاً يبدو عليه الانهاك والتعب ، وقد ضمّخ نفسه بالشحم ، وارتدى ملابس ليست من النوع الثمين والمترف . وقد سمح لي بالجلوس في مكان الصدارة الى جانبه ، وبرهن على الفور ، على تفتحه الذهني بسماحه لي بالتقاط ما اريده من صور ، ورسم ما اريده من رسوم ، خلافاً للعادات المألوفة في هذه البلاد . حيث ينظر إلى كل اجنبي نظرة الشك والعداء الى حد كبير . وقد مضى الى ابعد من ذلك ، فوعدني بتزويدي بحرس من رجاله للذهاب إلى أي مكان أشاء .

واشترك جميع جنود السلطان الثلاثين في الاستقبال ، وتحلق حولي في تلك الغرفة الصغيرة إلى حد ما ، عدد ضخم من الاشخاص الجاثمين على الارض ، تفوح منهم رائحة العرق ، لا روائح الورود ، وكانت العادات تقضي بأن يتحدث

الجميع عدة ساعات وان يتحدث أكثر من شخصين اثنين ، وإن لا يقطع حديثهم إلا في وقفات تحمل طابع الزهو والخيلاء . وكان الجنود يقدمون الى الضيوف بين حين والفينة بعض اللبن الرائب والخبز . بينما يحمل رجال الحاشية حصتهم من الطعام ويخرجون بها الى الخارج ليتناولوها وكأنهم في نزهة .

وشعر الجميع أخيراً بالملل من هذه الحفلة الطويلة . ودنا السلطان مني ، وتوسد برأسه المليء بالدهونات ركبتي وراح في سبات عميق . وسرعان ما احتذى الجنود حذو سيدهم وراحوا في اغفاءة ، ولم يعد يسمع إلا صوت تنفس هؤلاء الرجال السمر الاجساد ، الذين يرتدون بعض الملابس الزاهية الملونة .

وبعد هذه القيلولة الجماعية ، قررت المضي لمشاهدة آثار الماضي البعيد . ووقفت امام ذلك الجبل الذي يضم في احشائه آثار امبراطورية قوية وعظيمة . ما زالت دفينة تنتظر من يكشف عنها ، وكان السلطان الصديق قد بعث بأحد رجاله ليرافقني ، وكان يدلني على أهم الأماكن التي يجب أن أراها ، والتي بدت لي صالحة لالتقاط صورها . ولم تكن هناك إلا بعض قواعد الاسوار القديمة البارزة في الرمال . ولكن هذه الاسوار المترابطة والثابتة ، والتي كانت تضم في جنباتها عدداً ضخماً من الغرف الداخلية . ما زالت تظهر بوضوح ، وتمتد مربعات أثر مربعات على مساحات واسعة من الأرض ، ولا يقطع ما فيها من تشابه وتناسق ، إلا آثار من نوع آخر ، قد تكون بقايا بعض المعابد . أو قاعات الاجتماعات ، مما يشير الى وجود مدن كانت آهلة بالسكان في هذه المنطقة . وأخذت أسأل نفسي دهشاً كيف يمكن لبلاد غدت الآن قاحلة ومهجورة ، ولا تؤمن إلا الكفاف في العيشة وفي متطلبات الحياة الضرورية إلى عدد محدود جداً من السكان الذين ما زالوا يعيشون عيشة بدائية ، ان تكون في الماضي كما تشير الآثار ، آهلة بالسكان الذين يعيشون في ترف ورخاء ، وسط محيط طبيعي متناه في الحضرية ، والذين كانوا في الوقت نفسه أرباب حضارة فنية مجيدة .

ونحن نعرف أن أربع امبراطوريات عظيمة قد نشأت على التتابع في هذه المنطقة بين القرنين التاسع قبل الميلاد والثالث بعد الميلاد ، وهي امبراطوريات معين

وقحطان وسبأ وحضرموت . وقد اشتهر أمر مدنها أكثر من الف سنة . ولا سيما مدينة مأرب التي كانت تضم معبد « عوام » المشهور . وكانت مأرب عاصمة السبأيين الاولى ، حيث كان أهلها يعبدون إله القمر ، وآلهة الشمس ، والكواكب والزهرة « فينوس » . وكان يطلق على إله القمر اسم « المغوث » ، وقد خصص لعبادته أكبر معابد الحميريين في مأرب . وكان إله القمر كغيره من الآلهة ، من المعبودات الفلكية ، وكانوا يقدمون الاضاحي من الحيوانات ، كما يحرقون البخور إكراماً لهذه الآلهة .

وأيقظني مبارك في الصباح التالي ، عند شروق الشمس تماماً . وسرعان ما حملت الجمال بأحمالها ، ومضينا نواصل السير في طريقنا . وكان مبارك في أحسن حالاته لأن كل شيء مر على ما يرام ، ولأنه سيكون في منزله عما قريب . وقد بعث السلطان بأحد جنوده ، وهو بدوي من بني مصعب ليقوم على حراستي حتى حدود اليمن ، ولكنه كان كمرافق شرف أكثر منه مرافقاً حارساً .

وأخذنا نصعد ونهبط من جديد عبر الكثبان الرملية . وسرعان ما وصلنا إلى سلسلة جبلية عالية كانت تندفع إلى الصحراء مسافة عدة كيلومترات . ورأيت شيئاً عجباً في هذا المكان . فالرمال التي تذروها الرياح لا تصل مطلقاً إلى وجه الجبل المواجه الصحراء . وانما تتساقط على مسافة منه ، حيث تؤلف كثيباً رملياً عالياً ، يقف موازياً للجبل ، بحيث يتكون مضيق ضيق بين الكثيب والسلسلة الجبلية . وكنا نسير معظم طريقنا عبر مثل هذه المضائق التي تتلوى في منعطفات وكأنها ثعبان يتلوى . وعلى الرغم من اغراقنا في السير في ليّات من هذا النوع . فقد تجنبنا ارتقاء ما لا عد له ولا حصر من الكثبان الرملية ، والهبوط منها .

وكنا نرى على الطرف البعيد من السلسلة الجبلية ، بعض النباتات الشوكية ، وبقايا واد تقوم فيه بعض أشجار العريكة . وعثرنا على القافلة وقد خيّمت في ظلال هذه الاشجار . وكان رفاق السفر . قد علّقوا بنادقهم من جديد على فروع الاشجار ، على الرغم من الزيارة التي شرفنا بها بدويان غريبان كانا مدججين بالسلاح . وقد دلل ما يلبسانه على رأسيهما وطاقيتاهما المصنوعتان من جلود الماعز على

نهم ينتمون الى قبائل شمال الجزيرة العربية . وربما كان هذان الرجلان من اللصوص
الذين طردتهم شرعة البادية . وعندما اكتشفا وجودي ، لم يفارقا جانبي حتى
واحدة . واهتما بمتاعي بصورة خاصة ، وكانا يتناولان كل سلعة من سلعها بأيديهم
ويتفحصانها بفضول . ولم أفتقد أي شيء منها فيما بعد .

ووصلنا بعد ظهيرة اليوم التالي ، الى ممر بين الجبال ، يقع في نقطة التقاء
سلسلتين ضخمتين من سلاسل الجبال . وفي قمة هذا المضيق يقوم سوران
متوازيان ، وقد بنيا من الحجارة الضخمة التي تغطي بعض أجزائها نقوش حميرية ،
ويرتفعان الى علو تسعمائة قدم في كل ناحية . ومن المفروض أن يعتقد المرء ، أن
هذا البناء الضخم كان جزءاً من جهاز تحصين منيع اقيم للدفاع عن الممر . ولكن
الجهاز كله ، يبدو أيضاً كسد ضخم ، يمنع تدفق مياه الفيضان والامطار ، بحيث
يصبح في الامكان اسالتها الى الوديان المجاورة .

ووقفت على قمة الممر . إنه الآن الحد الفاصل بين اليمن وحضرموت .
وانتشرت امامي الارض التي طالما كانت هدف محاولتي كلها . إنها ارض اليمن
السعيدة .

- ٧ -

إلى الأرض المحَـــرمة

هبطت من الناحية الأخرى للممر ، بقلب يفيض سعادة واغتباطاً . وغدوت على أرض مملكة اليمن . فقد انتهت رحلة الصحراء الشاقة والكثيرة النصب . وتحققت مغامراتي ، ونجحت في دخول الأرض المحرمة من بابها الخلفي .

ووصلنا قبل المغيب قرية هي مسقط رأس بني عقيل ، القبيلة التي ينتمي إليها رفاق السفر . والتي لا تبعد أكثر من ساعتين عن حريب . أول المدن المهمة في اليمن من هذه الناحية . ورحبت نساء الصحب وأطفالهم ، بالرجال ، بقبلات لا تخلو من لغو الألسنة دليلاً على البهجة والفرح . وسار بي مبارك إلى كوخه . وكان يتألف من غرفة واحدة ، قضيت فيها ليلتي ، مع سائر أفراد أسرته . وبعد أن قضينا يوماً من الراحة . كنا في أمس الحاجة إليه ، أراد مبارك أن ينقلني فوراً إلى صنعاء عن طريق مأرب ، ولكن الأمور سارت سيراً مغايراً .

ففي صباح اليوم التالي ، الذي توقعت أن أقضيه مع أسرة دليلي مبارك ، نتمتع بالراحة التي نصبو إليها ، جاءني شيخ القرية ، الذي يرأس القبيلة ويقوم بدور حاكم المنطقة أيضاً ، ومعه أحد جنود الملك . وبعد تبادل التحيات الودية الصديقة ، التفت إلينا الزائران اللذان لم نكن نتوقع مجيئهما ، وأخذا يوجهان إلينا الأسئلة المعتادة . وكان وجود الجندي في البداية قد أثار في نفسي الكثير من الشكوك ، ولكن الحديث ، استمر في طريقته المألوفة المعهودة .

وبدا لي أخيراً ، إن شيخ القرية راغب في الذهاب . ولكنه توقف طويلاً وانتظرت منه أن يذهب ويمضي . ولكنه بدلاً من ذلك توجه إلي بالحديث معلناً أنه

قد تلقى الأوامر بإرسالي مخفوراً إلى عامل حريب . وعندما سألته عن الأسس التي يستند إليها في ذلك ، لم يستطع الإفضاء بأية تفصيلات أخرى ، وان كل ما يستطيع قوله ، هو أنه غدا مسؤولاً بصورة شخصية ، عن نقلي بأمان إلى حريب . وهكذا غدوت تحت الاعتقال الاحتياطي . وكان الشيء الوحيد الذي ادهشني ، هو السرعة التي سمع فيها الحاكم بوصولي وهو في حريب . على الرغم من أنني لم أصل إلى القرية إلا في ساعة متأخرة من الليلة الماضية . ولكن من المعروف ، أن نقل الأنباء في هذه البلاد يتم بوسائل سرية هي في منتهى الغموض ، وبصورة لا تقل في سرعتها عن اللاسلكي أو البرق في أوروبا .

وهكذا حملت امتعتي على بعيري من جديد . واستقل الشيخ وصاحبه بغليهما ، ثم مضينا . وقابلنا على الطريق ، عدداً آخر من الجند . وبدت لي المنطقة وكأنها معسكر حربي جبار . وكان لهذا ما يبرره من أسباب . فملك اليمن ، الذي يطمع دائماً بتوسيع مملكته ، قد ضمّ إليها مؤخراً ، وبعد صعوبات كبيرة ، الأراضي التي تقع حول حريب بعد مقاومة عنيفة ظهرت من قبيلتي « جروي » و « بني عبد » ، وكانت مهمة الحامية القوية ، في هذه المنطقة ، إخماد أية ثورة قد يقوم بها البدو الذين يتعشقون الحرية . ولم يكن وجودها ، يعتبر مرادفاً للسلام على أي حال . فقبل بضعة أيام من وصولي ، جرت محاولة اغتيال عامل حريب في مكتبه ، وتلا ذلك إطلاق العيارات النارية بصورة شديدة على مقر الحكومة ، وقتل جندي واحد ، وجرح عدد آخر من الجنود .

وفي غضون ذلك ، كانت ثلتنا ، آخذة في الازدياد ، بانضمام بعض الجنود والأهلين الذين نلقاهم في الطريق إليها . والذين كانوا يتلهفون إلى رؤيتي والتطلع إلي . وكان في وسعي أن أتفهم فضولهم تمام التفهم . إذ أن سكان هذه المنطقة لم يسبق لهم أن رأوا في حياتهم من قبل أي رجل أبيض . وعندما دنونا من أبراج المراقبة المرتفعة في حريب ، كان جمعنا قد ازداد حتى وصل عدداً ضخماً . وظل هذا العدد في ارتفاع اثناء مرورنا في شوارع البلدة ، حتى وصلنا أخيراً إلى دار الحكومة ، التي تضم المحكمة ، ومكتب العامل . وكأننا في مظاهرة احتفاء ونصر ، تتولى حراستنا طواعية ثلة من الجنود ، وتحيط بنا جماهير غفيرة من الناس .

ومضـوا بي فوراً إلى حضـرة الحاكم . وقـد سار الشيـخ إلى يميني ، والجنود إلى شمـالي ، ووصلنا أولاً إلى مـدخل واسـع ينفذ إلى قـاعة كئيبـة تخيم عليها الظلام . ورأينا عدداً من الجنود لعلهم حرس الحاكم يجلسون على الحصر ، يشربـون القهوة ، ويدخنون النـارجيلة ، ويمضغون القـات . ووصلنا بعـد ذلك إلى سلم ضيق مـرتفعة درجاته . وفي رأس هذا السلم غرفة خارجية وفيها باب يقف في مدخله حارس هائل الجثة ، مدجج بالسـلاح . وتولى هـذا الحارس قيـادتي ومضى بي إلى مكتب الحـاكم الرسمي ، وكانت للمكتب نوافذ يكسـوها الـزجاج الحقيق ، مما يشير إلى الكثير من الترف في هـذا الجزء من الجـزيـرة العـربيـة . وانتشـرت في أرض المكتب ، البسط المصنوعة من شعر الماعز ، وامتدت بعض الأرائـك على مقـربة من الجـدار . وجلس العامل « الحاكم » في وسطها ، وإلى يمينه ضابط عسكري ، وإلى يسـاره أمين سره ، وأمام كل منهما صندوق من الخشب ، يصلح مكتباً للعمل ، ومائدة للأكل .

وأفسح لي الضابط بلطف وكياسة مكـاناً إلى يمـين العامـل ، حيث جلست إلى الأريكة بجانبه .وبعد أن احتسينا القهوة جميعاً ، المصنوعة من قشور البن ممزوجة مـع الهـال . فمن المألـوف في الجنوب العـربي ، حيث تنبت أجود أنـواع البن في العـالم ، وبينها قهوة (المخا) المشهورة في كل مكان في الدنيا ، عـدم استعمال البن الحقيقي ، في القهوة التي يشربونها ، والاكتفاء بقشورها ، ولا اعـرف تمامـاً ، ما إذا كـانت هذه العادة ، ناجمة عن رغبة أهل البلاد في تـوفير هـذه المادة الثمينـة للتصديـر ، والاكتفاء بـالقشور التي لا تستعمـل في البلاد الأخـرى ، أو عن تقليـد عـريق يعـود إلى عهـود قديمة . وبعد دخول القهوة إلى أوروبا ، أشير إلى إمكان استخدامها كعلاج ، شريطة عدم الاكثار منهـا . ويقول جـوهـان فيسلينـغ وهـو طبيب ألمـاني عـاش بـين عـامي ١٥٩٨ و ١٦٤٩ في كتـابه الـذي يعتبر ذيـلاً لكتاب « نبـاتـات مصر » الـذي وضعـه بـروسبير البينـوس (Prosper Alpinus)[1] إن قشرة البن ، تنـتج شرابـاً بلرداً بينـما تؤلف حباته شراباً حـاداً . وهكذا يجب أن يعـطى المصابـون بالحمى ، جـرعات من

(1) بروسبير البينوس (١٥٥٣ ـ ١٦١٧) أحد علماء النبات من أهل البندقية ، درس في بادوا ، وأصبح أستاذاً لعلم النبات فيهـا ، وقام ببحـوث هامـة في علم النبات ، ومن أهم مؤلفاته نباتـات مصر ، والعقاقير الطبية المصرية .

(المعرب)

قهوة قشرة البن ، التي أصبحت تدعى فيما بعد بالقهوة السلطانية في الصيف ، و
يعطوا قهوة مصنوعة من حب البن في فصل الشتاء . وتأكيداً لهذه النظرية ، فإن قهوة
القشر تصنع في جميع البلاد الحارة من الجزيرة العربية ومصر ، ولا تعطى قهوة البن
الفعلية إلا في فصل الشتاء ليس إلا . . .

وأعرب العامل عن دهشته البالغة من نجاحي في الوصول إلى اليمن من بابه
الخلفي ، ومن ناحية الصحراء . وأكد أن البلاد لم تشهد حادثة مماثلة من قبل
وطلب مني أن أسرد عليه الطريقة التي تمكنت بها من القيام بهذا العمل ، فسردتها .
وعاد يكرر الطلب ثانية فأعدت القصة بحذافيرها . وكانت الانطباعات التي تلوح في
وجهه تشير إلى أنه كان يفكر في غرابة أطوار الأوروبيين . ولم يسبق للحاكم أن رأى
أوروبياً من قبل . ولما رأيت تردده في السماح لي بالمضي في طريقي ، وهذا ما أوحت
لي به الانطباعات التي بانت في وجهه ، عرضت عليه جواز سفري ، وأطلعته على
تأشيرة الدخول إلى الحديدة إبان رحلتي الأخيرة ، لأفهمه أن هذه الزيارة ليست هي
الأولى التي أقوم بها لليمن .

وهنا قال العامل واسمه الكحلاني . . . إذن فكل شيء على ما يرام ،
وسأسمح لك غداً بالمضي إلى صنعاء .

وغمرني الفرح لدى سماعي بهذا الترخيص فحاولت أن أعثر على كلمات
مناسبة أعبر بها عن شكري . واطلب الأذن في وداعه ، والابتعاد عن سلطانه بأقصى
سرعة ممكنة . ولكنني قبل أن أتمكن من ذلك ، سمعت العامل الكحلاني ،
يقول . . . . ولكن عليك قبل كل شيء ، أن تطلعني على رسالة الإمام التي يسمح
لك فيها بدخول اليمن .

وشرحت له ، أن مثل هذه الرسالة لا ضرورة لها البتة . فالإمام يعرفني تمام
المعرفة ، ولي عدد من الأصدقاء في صنعاء . وسيسرهم سروراً بالغاً أن يروني بينهم
مرة ثانية .

وأنهى العامل المقابلة قائلاً : « سنرى . . . » وقادني جنديان من حضرته إلى
السجن .

كانت الزنزانة التي خصصت لي ، غرفة واسعة كبيرة ، فيها ست نوافذ صغيرة ، أو ست ثقوب على الأصح ، ترتفع عن مستوى الأرض ، ولم يكن هناك زجاج على هذه النوافذ وإنما ورقات من الخشب . ويبدو أن اليمنيين يدركون دائماً الطريقة المثلى في معاملة الأوروبيين . إذ عندما وقفت في مدخل الباب ، هومت باتجاهي سحب كثيفة من الغبار . وقد رأيت رجلين يعملان في تنظيف المكان بدفع الغبار المجتمع فيه إلى الخارج لكن نجاحهما في هذه العملية كان محدوداً للغاية . وفرشت الأرض بعد ذلك ببسط ، قريبة إلى البلي . ووضعت بعض الأرائك القذرة بمحاذاة الحائط . ونقل متاعي إلى داخل الغرفة ، وتركت وحيداً وشأني مع حاجياتي ، لكنني لم أبق وحيداً مدة طويلة ، فقد أنضم إلي حارس جلس إلى جانبي ولم يفارقني ليل نهار . وكان إذا خرج من الغرفة . أغلق بابها من الخارج ، وهكذا تعذر علي أن اخطو شبراً واحداً بدون حراسته لي ، والرجل جندي يدعى محمد ناصر ، وهو متقدم في السن ، وقد سبق له أن خدم في جيش بريطانيا وإيطاليا ، قبل أن ينضم إلى القوات اليمنية . وهكذا فقد سبق له الاحتكاك بالعالم الغربي ، ولعل هذا كان السبب في انتدابه للقيام بحراستي .

ولم تكن لدي فكرة عن القرار الذي اتخذ بشأني ، وزارني في اليوم الأول ضابط ، لعله انتدب للإشراف على اعتقالي . وقد ظهر هذا الضابط بمظهر الرجل الودود والكثير اللطف . وعندما سألته ، أثناء حديث دار بيننا عن المدة التي يتوقعون الإبقاء علي فيها رهن الاعتقال ، أكد لي بما عرف عن الشرقيين من مرح ، ان القضية لا تتجاوز يوماً أو يومين على الأكثر يطلق سراحي بعدها ويسمح لي بمواصلة رحلتي على وجه التأكيد . وخيل إلي ان ما قاله لا بأس به ، فجهود الرحلة ومتاعبها قد أنهكت قواي ، إلى الحد الذي لم استأ فيه من مجرد فكرة الراحة بضع ليالي ، حتى ولو كانت هذه الراحة مفروضة علي فرضاً . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق أيضاً . فعندما هبط الظلام ، أغلق حارسي علي النوافذ الخشبية إغلاقاً محكماً ، وظلت مغلقة حتى الصباح التالي . وكان الطقس شديد الحرارة في حريب في حزيران ، وقد تجمعت حرارة النهار كلها في هذه الغرفة الخفيضة السقف ، وحرّمت عليّ التنعم ببرودة الليل المنعشة . وهكذا استحال علي أن أحظى بأية راحة في هذا الفرن ، بالإضافة إلى

وجود حشرات كثيرة شاءت الترحاب بضيفها الكريم . وقد أوضح لي الجندي أن التعمليات المشددة الصادرة اليه تقضي بالابقاء على النوافذ مغلقة في الليل . وقد علمت فيما بعد ، بعد الإكثار من سؤاله ، أنهم لا يخشون فقط من فراري ، إذ أن فتحات النوافذ من الاتساع بحيث يستطيع التسلل منها كلب متوسط الحجم ، بل إنهم كانوا يخافون أيضاً ، أن يتمكن البدو من التسلل إلى دار الحكومة في جنح الظلام ، وأن يطلقوا النار على غرفتي من نوافذها المشرعة . وكانت هذه كالعادة مألوفة لدى البدو للإعراب عن سخطهم على احتلال بلادهم احتلالاً عسكرياً .

وبعد أن قدمت عدة احتجاجات سمح لي بالنوم على ظهر برج المراقبة في دار الحكومة ، ولكن الحراسة شددت علي في هذا المكان ، إذ رأيت نحواً من ثلاثين جندياً يملأون الشرفة الصغيرة . ونصبت سريري في وسطهم . واستلقى رفاقي على فراشهم يتحدثون ، أو يأكلون ما لديهم من طعام . ويستحيل على المرء هناك أن يعثر على التجزئة اللازمة بين الحركة والنشاط ، وبين السبات واليقظة . فعندما تتطلب الفرصة أو الضرورة أحدهما ، يقوم هؤلاء الجنود ببذل كل ما لديهم من جهد ، أو إظهار كل ما عندهم من مرح . وإلا فإن الحياة تستمر على رتابتها ليلاً نهاراً ، على نفس تلك الوتيرة التي تعمل على اختفاء كافة الفروق والحدود التي نعرفها ونألفها والتي تمزج بينها لتجعل منها كلاً واحداً .

واحتشدت جماعات من الكلاب غير الأليفة أسفل البرج ، وأخذت تتقاتل على بقايا الأطعمة والفتات التي كان الجنود يقذفون بها إليها . وكانت هذه الموسيقى الليلية من نواح الكلاب وأنينها ، لا تنقطع ، إلا عندما تندفع هذه الحيوانات فجأة لتعوي عواء شديداً وعنيفاً ، وتطارد جماعة من بنات آوى ، وتشتبك معهم في معارك وحشية ضارية ، بعد أن تكون هذه الحيوانات قد غامرت فدخلت إلى البلدة في دياجير الظلام بحثاً عن الغذاء .

وكان الجندي الذي تقع عليه نوبة الحراسة يقعي وراء سور البرج العالي ، يتطلع من ثقوبه إلى الأمام . وكان يطلق في كل خمس دقائق ، صرخة حادة وكأنه حيوان شرس . وتتناقل صرخته الأبراج القريبة فتنقلها بدورها إلى الأبراج البعيدة

لتطوف حول المدينة بكاملها . وكثيراً ما اندفع صراخ هؤلاء الحراس في وقت واحد . وينجم عن ذلك هدير يصم الآذان . والقصد من ذلك أن يظهر القائمون على الحراسة أنهم ساهرون . وإذا حدث وأغفى أحدهم إغفاءة قصيرة ، فإنه سرعان ما يهب ، في مثل ومضة البرق الخاطف . وكثيراً ما جاء بعض الموسيقيين في ساعات معينة من الليل ، يحملون طبولهم المعدنية وأبواقهم إلى حواجز الأبراج ، ليحدثوا بعض التغيير والتنوع في الحفلة الموسيقية التي تشترك فيها أصوات الرجال والحيوانات . والتي غدت أخيراً ، لا تخلو من الرتابة . وبدأت الطبول تقرع أولاً مدة نصف ساعة ثم تبعتها الأبواق بنفيرها العالي . وكانت هذه الموسيقى العسكرية تهدىء من ثائرة سكان البلدة وجوارها إلى حدٍ ما ، وترمي إلى أعلامهم بأن في وسعهم النوم بأمان واطمئنان في ظل رعاية جنود الملك الساهرين على حراستهم . ولا ريب في أن كلمة الطمأنينة مجرد تورية . وآثرت بعد هذه الليلة التي قضيتها في البرج على سبيل التجربة أهون الشرين . وفضّلت قضاء ليالي المقبلة في زنزانتي .

وقام الضابط الصديق الذي صبغ لحيته بالحناء ، بزيارتي مرة ثانية في اليوم الثالث ، ولكنه كان هذه المرة صورة ناطقة باليأس والقنوط . وقد ابلغني استحالة عمل أي شيء في الوقت الحاضر بصدد سفري . ومن الواجب إرسال جواز سفري أولاً إلى صنعاء ، واستشارة الإمام في أمري . وأضاف أن العامل (الحاكم) سيقامر بحياته ، إذا سمح لي بالمضي في رحلتي ، دون الحصول على أمر واضح من الإمام .

وهكذا فإن أمد سجني سيطول إلى أجل غير مسمى ، وقد تنقضي أسابيع عدة ، قبل أن يعود الرسول من صنعاء . وكنت ألقى عناية واهتماماً خاصين في سجني ، وكان آسري ، يحاولون إظهار عنايتهم هذه ، بطهي بعض الأطعمة على غرار الطريقة الأوروبية ، ولكن بصورة غير بارعة في التقليد ، وكانوا يقدمون لي للغداء دجاجاً مع الأرز ، أما في المساء فارزاً مع الدجاج . ومضت الحال على هذا المنوال ، دون أي تبدل يوماً بعد يوم . وكرهت الدجاج ، إلى الحد الذي ظلت نفسي تعاف رؤيته مدة طويلة بعد خروجي من سجني .

وتقرر نقلي من الزنزانة إلى بيت في دار الحكومة ، لأقضي الأسابيع التالية فيه ،

وكـان هذا البيت مـزيجاً من السـجن والمستشفى ونـادي الضباط . فـإذا مـرض أحد الجنود نقل إلى السجن حيث يـظل فيه إلى أن يشفى أو يمـوت . وكان المـوئل المعتاد للمسجونين المـرضى ، الباحـة المسـتطيلة الشكـل ، التي يجلسـون فيها طيلة النهار يتحدثون ويهذرون . وكان الضباط يفدون بعد الظهيرة إلى المكان ويسلقون أيضاً مع الجنود . وعندما تبلغ الساعة الخامسة ، يكون الجميع قد احتشدوا في المكان ، إذ أنها ساعة « القات » ، وهي ساعة يحترمونها هناك كل الاحترام كما يحترم الغربيون ساعة الشـاي . ولا غنى لأهل الجنـوب العربي عن القـات مطلقـاً . وهو من المخـدرات ، ولكن أهل اليمن يسمونه أكسير الحيـاة . واستهلاك القـات عادة شـائعة شـاملة . إذ يتعـاطاه الـرجال والنسـاء والأطفال دون تمييـز من الملك إلى السلاطين وإلى الفقراء والشحاذين ، طالما يتوفر لديهم المال لابتياع هذه المادة الثمينة . وكثيـراً ما قيـل ان في وسع أهل اليمن الصيام أياماً عدة بسهولة ، ولكنهم لا يستطيعون البقـاء يوماً واحداً بدون القات .

ونبات القات الذي يستخرج منه هذا المخدر ، شجيرة صغيـرة لا تزهـر ، ولها أوراق فـاتحة الخضـرة خضلة . وتزرع هـذه الشجيرات في المنـاطق الجبليـة في أعالي اليمن ، وزراعته من الاتـساع ، بحيث لا تقل مساحة عن مزارع البن ، عـلى الرغم من أن القات لا يصدر إلى الخارج ، وإنما يستهلك محلياً ليس إلا . وتقطع العسـاليج الرخصة الناعمة بعناية . وتجمع في حزدات ثم تلف بأوراق الموز أو الأعشـاب وتربط ربطاً وثيقاً حتى تحتفظ بجدّتها ونضـارتها . ثم تنقـل إلى الأسـواق . ولا ريب في أن اليمـانيين يحسنـون التمييز بـين أصنافهـا في المذاق والنـوع ، تمـامـاً كـما نصنف نحن الخمور . وأجود أنواع القات هو النوع البخاري ، والذي يرد من المنطقـة التي تحمل هذا الأسم . ولكن استهلاكه غير متوافر إلا للأثرياء .

ويلتف أفراد العائلة وأصدقاؤهم ومعارفهم حول بعضهم البعض سـاعة تنـاول القـات . ويأتي العبـد بحزمـات من القات المـربوط ، ويضعهـا أمـام رب الأسـرة . ويشرع هذا بدوره فيحل هذه الحزمات ، ويتذوق محتوياتها لاختبار جودتها ، ثم يوزع القات على ضيوفه . ولا يجري التوزيع بالعدل على الجميع ، وإنما يتنـاول كل فـرد ،

وفقاً للتقاليد ، حصة تتناسب مع درجته ومكانته اللتين يقدرهما رب الأسرة . وهناك قول شائع في اليمن ، لوصف الرجل الفقير . . . « إنه لم يعط أحداً قط أية حزمة من القات » .

وتبدأ حفلة القات بعد اجراءات التوزيع . ويقوم المدمنون باقتطاع الأوراق من عساليجها ، ويضعونها في أفواههم ويلوكونها مع بعض الرماد . وتستمر هذه العملية بعض الوقت . ويجلس الجميع ، وقد انتفخت أوداجهم بالقات الذي يلوكونه . ثم يبتلعون الورق الأخضر ، أما بقايا العسلوج فتبصق ، ويتناول الواحد بعد ذلك قليلاً من الماء أو بعض القهوة المصنوعة من قشور البن ، ثم يشكرون الله ويحمدونه ، وينتهي الفصل الأول ، ليبدأ الجميع الفصل الثاني . ويستخدم أهل اليسر في اليمن مباصق معدنية صغيرة ، أما الإمام وبعض السلاطين فيستعملون مباصق من الذهب .

وتحدث أحد فلاسفة اليمن عن القات فقال : « إنه نعمة من الله . فنحن نلوكه ، ونستعيد بذلك قوانا ، بالإضافة إلى أنه يؤمن لنا قليلاً من الكيف ، لا كالخمر ، بل على شكل نشوى روحية . وراحة جسدية لا نحس بهما إلا عند تعاطيه ، وإلا عند اخلادنا إلى سكينة الحياة الدينية . وعندما تشعر بالانهاك وتغدو كنبتة متعطشة ، خذ قليلاً من القات ، فيعود إليك نشاطك وحيويتك ، والقات ليس من مقويات الباه أو غريزة الجنس ، فهو على النقيض من ذلك ، إذ أن الرجال البعيدين عن نسائهم يتناولون القات لتقوية إخلاصهم العائلي » .

ومما لا ريب فيه أن القات يعتبر من المهيّجات والملطفات في آن واحد . إذ أنه يشتمل على مادتي الكافيين والمورفين معاً . وهو لا يفقد الوعي أو يوجد حالة من الثمول كالخمر ، ولا يدفع متعاطيه إلى النوم كالأفيون أو الحشيش . فالعقل يتفتح بتعاطيه ويشتد نشاطه ، كما تزداد الرغبة في العمل أيضاً . ويزعم اليمانيون أنهم لا يستطيعون عقد صفقات تجارية معقولة بدون القات ، كما ان الطلاب يخشون من التبلد في المدرسة إذا لم يكونوا قد تعاطوا العشب السحري قبل ذهابهم إلى المدرسة .

وتقول الأساطير ، إن الفضل في اكتشاف القات يعود إلى حيوانات الماعز . فقد لاحظ أحد الرعاة ذات يوم ، ان ماشيته يزداد نشاطها ، دون سبب ظاهر ، وأنها

تأخذ في القفز والجري بصورة مضحكة للغاية . وأخذ يدرس القضيـة ، واكتشف أن ماشيته ، يبدو عليها هذا النشاط ، بعد أن تتناول وجبة طيبة من أوراق أحد الأعشاب . وجرّب الراعي أوراق هذا النبات بنفسه ، فوجد أنه يصبح منطلقاً ونشيطاً بعد تعاطيه تماماً كالحيوانات . وسارع بالعودة إلى البلدة ، وكان أول من لقيه بعد ذلك ، أحد الشعراء ، فشاركه اكتشافه . ومضى الشاعر إلى التلال ، فأيقن من صدق رواية الراعي ، بعد أن جرب أوراق النبات بنفسه . وحمل الشاعر حزمة من أوراق هذا النبات وعاد بها إلى البلدة حيث نظم أجمل القصائد ، عن « الأوراق الزمرّدية » لهذا « النبات السماوي » . وهكذا بدأ استعمال القات في اليمن ، قبل نحو من اربعمائة عام . ولكنه ظل محصوراً في اليمن ، إذ لا يعرفه حتى أهل حضرموت المجاورة .

ومما لا ريب فيه أن مضغ القات ، مضر للصحة على المدى الطويل . فهو يؤثر بصورة تدريجية على أعمال الجسم العادية ، ويحطم أجهزة البدن . وفي وسع الإنسان أن يتعرف على مدمن القات من مسافة بعيدة من وجهه الشاحب ، وعينيه الغائرتين . ويفقد المدمنون أيضاً قدرتهم البدنية على مقاومة الأمراض الاستوائية كالتيفوس والدوزنطاريا . وإذا كان الانحلال والضعف يبدوان على أهل اليمن ، فإن ذلك عائد بصورة حتمية إلى هذه العادة السيئة الشاملة . ولهذا فليس من المدهش ، أن لا يكون الجنود اليمانيون ، وكلهم من مدمني القات نداً في الحروب ، لمحاربي الملك ابن سعود الأقوياء .

ولم أكن عاطلاً عن العمل طيلة فترة سجني ، فقد كانت لدي بعض الأدوية التي كنت أساعد بها أحياناً المرضى . وسرعان ما انتشر هذا النبأ في الخارج ، فصرت إذا ما فتحت باب غرفتي في الصباح ، رأيت الرواق مزدحماً بالمرضى الذين ينتظرون العلاج . وتطور الأمر إلى (ساعات عيادة) معينة ، وكانت تستمر غالباً حتى الظهيرة . وكان الرجال هناك لم يألفوا قط أية عناية طبية . ولذا فقد ابهجهم تمكني من إعطائهم بعض العلاج .

وأمراض العيون ، ولا سيما الحالات الحادة من الالتهابات الملتحمة ، من

الأمراض الشائعة في هذه المنطقة . وكثيراً ما تورمت عيون المرضى حتى يستحيل عليهم فتحها . ولا ريب في أن العواصف الرملية هي السبب في هذه الأمراض . فعند الظهيرة كل يوم ، تقتم السماء ، وتتوافد سحب هائلة من الغبار ، تدفعها رياح متحركة ، حاملة إياها من صحراء الربع الخالي العظيمة . ولا تنقضي لحظات حتى تحاط البلدة بدثار معتم ، ويختفي ضوء النهار . ويستحيل على المرء أن يقي نفسه من حبات الرمل الدقيقة . فهذه الحبات تتسلل من شقوق الأبواب والنوافذ المغلقة ، مغطية كل شيء بطبقة كثيفة من الغبار الذي يتسرب إلى الأفواه والأنوف والآذان . وتستمر هذه الحالة ساعة أو ساعتين كل يوم . ولا ريب في أن الإقامة على مقربة من الصحراء . لعنة من اللعنات التي تحل بالجنس البشري . ولا تركن الصحراء إلى الهدوء قط ، إذ تواصل إرسال الزوابع الرملية ، وكأنه لا هدف آخر لها في الحياة إلا تحطيم ما يصنعه الإنسان . وحماية المزروعات والحاصلات من هذه الهجمات الرملية التي لا تنقطع ، تتطلب عملاً شاقاً واحتمالاً ، من النوع الذي لا نميل إلى الاعتقاد بوجوده لدى سكان المناطق الحارة .

ولعل من أسوأ العاهات أيضاً ، هذه القروح المفتوحة في الأيدي والأرجل ، والتي يكثر وجودها بصورة خاصة عند الجنود . فهم يسيرون حفاة الأقدام دائماً ، ولذا فإن خطر العدوى والتسمم ، يكون شديداً من مجرد أي جرح صغير . وإذا ما أصيب أحدهم بجرح ، ربطه بخرقة قذرة قديمة ، بحيث لم يصبح الجرح في نجوة عن الغبار والقذارة . وأما إذا اتسع الجرح ، فإن المصاب يعدل عن ربطه بصورة كلية . إذ لا تعود هناك فائدة من الرباط . ويبدو هؤلاء الجنود وكأنهم لا يحسون بالألم مطلقاً . وإني لأذكر جندياً كان مصاباً بالجذام ، كما انتشرت القروح في ساقيه . وكنت أغسل له جراحه كل يوم . وأربطها من جديد ، ولا ريب في أن العملية كانت مؤلمة للغاية ، ولكن الرجل لم يكن يكترث بالعلاج ، بل كان يمضي بهدوء في طريقه . أو يجلس ساكناً باحثاً عن القمل في ثيابه .

وهكذا أصبحت على أحسن العلاقات مع زملائي المسجونين الآخرين من مرضى أو مجرمين . وأخذ الجميع يهتمون بمصيري ، حتى أن أحد الجنود ، كان كثيراً

ما يصعد إلى برج المراقبة ، ليرى إذا كان الرسول ، في طريق عودته من صعدة ولكن عودة هذا الرسول ، لم تتحقق بسرعة .

وصرت أعرف كل شيء عن جميع أفراد حامية حريب ، إذ أن كل جندي من الجنود ، قد قضى فترة من الوقت في السجن . ولم يكن مثل هذا العقاب يعتبر مهيناً أو محطاً بالكرامة ، فقد كانت فترة السجن تتيح فرصة للخلاص من متاعب الحياة العسكرية ، لأيام أو لأسابيع . والإخلاد إلى الراحة . والسجن هو عقوبة كل جريمة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، كأن يخطىء جندي في إطاعة الأمر الصادر إليه ، أو يتحرش بإحدى حسان القرية . وكل من يصل حديثاً إلى السجن تقيد قدماه بالأصفاد . ولكنه بعد هذا الاستقبال ، يترك حراً في داخل أسوار السجن . وكثيراً ما ينام المسجونون أو يستريحون في زوايا السجن الظليلة انتظاراً لساعات بعد الظهر الممتعة . ففي هذه الساعات يحتشد جميع المسجونين في الباحة ويتوافد الضباط ، ويتحدث الجميع عن وقائع اليوم وأحداثه ، ثم يأخذ الجنود في الرقص رقصات محلية تعود إلى عهد بعيد في تاريخها ، دون اهتمام بالأصفاد في أقدامهم ، وتنتهي الحفلة بالإقبال على القات . وعندما تقرع ساعة الحرية ويتقرر إطلاق سراح السجين تحطم الأصفاد تحطيماً .

وهناك طريقة غريبة في إدانة أولئك الذين يتهمون بالسرقة ، فثمة حجر مصقول يسمى « العقيق » يحمل قوى سحرية عن طريق الشعوذة والطلاسم ، ويستخدم لهذه الغاية . ويحمل كل انسان في اليمن تقريباً هذا الحجر ، اما في كيس الجلد أو حول رقبته . ويقف المتهم أمام الحجر ، ويضع يده فوقه ، فإذا ما ارتفع الحجر مع يده ، فهو سارق مدان ، أما إذا لم يرتفع وظل الحجر في مكانه فهو بريء . وتفسيري لهذه الظاهرة ، ان ضمير المجرم ، يحدث إضطراباً في نفس المتهم ، ويولد حرارة في جسده أو رعدة كهربائية ، بحيث تجذب يده حجر العقيق . ويستخدم الحجر أيضاً في الوقاية ضد الأفاعي والثعابين التي توجد بكثرة هناك ، وقد رأيت بنفسي عدداً من اليمانيين يحملون هذه الأحجار ، ثم يقبلون بهدوء على اخطر أنواع الثعابين السوداء وأضخمها ، فيحملونها بأيديهم ، مع أن لدغة واحدة منها قد

تكون في بعض الحالات مميتة وقاتلة . ولكنها على أي حال ، لا تلحق بمن يحملونها أي أذى .

وسُمح لي بعد نحو من أسبوع ، بالمسير في البلدة ، ولكن تحت حراسة دائمة يتولاها ثلاثة من الجنود المدججين بالسلاح . وكان القصد من من تخصيص ثلاثة جنود لحراستي ، لا منعي من الفرار ، بقدر ما هو حماية الجنود أنفسهم من هجوم الأهلين ، إذ لم تكن العلاقات ودية بين الجنود والأهلين ، وإنما كانت على النقيض عدائية تماماً . ففي أيام الاحتلال الأخيرة عندما فرضت السلطات سيطرتها على هذه المنطقة ، ذبح الجنود كل فرد من الأفراد ، أبدى أية مقاومة لها . وكان البدو المتكبرون ، الذين لم يألفوا مطلقاً الاذعان لسلطة أي حاكم من قبل ، وكانوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم بالفعل ، قد بدأوا يثأرون من هذه السيطرة التي تفرض عليهم . وكانوا إذا ما التقوا جندياً من جنود الملك وحده ، وكان غير مسلح . وتبينوا ان الفرصة مواتية لهم ، بعثوا به إلى العالم الثاني . يضاف إلى هذا أن الحامية القوية قد غدت سوط عذاب حقاً للأهلين . وكانت حصص الغذاء الوحيدة التي يتسلمها الجنود ، هي من الطحين الذي يصنع منه الخبز ، بالإضافة إلى عدد من القطع النحاسية النقدية (السحاتيت) كراتب يومي ، يشترون بها ما يحتاجون إليه . وكانوا غالباً ما ينفقون هذا المال في شراء القات الذي يتعطشون اليه . أما حاجياتهم الأخرى ، فكانوا يبتزونها أو يغتصبونها من أهل المنطقة على الرغم مما هم فيه من فقر وضنك . ولم تكن هذه المعاملة بالطبع لتساعد امام اليمن على اجتذاب قلوب رعاياه الجدد .

ولقيت أثناء تجوالي ، الذي تطور إلى رحلات استشكافية طويلة في جوار حريب ، كثيراً من الآثار التي تعود في عهدها إلى أيام حضارات سبأ وحمير . وقد أدهشني عدد ما عثرت عليه من مدن واسعة كانت تضم في يوم ما شعباً كبيراً وغنياً وميالاً إلى الفنون . ولا ريب في أن أهل هذه المنطقة اليوم من الناحية الفنية ، بارزون كل البروز . فمنطقة حريب ، التي تتجاوز وادياً خصباً بعض الخصوبة ، والتي تحيط بها الصحراء من جميع جوانبها ، تضم قبيلتي بني جروي وبني عبيد .

ويمتاز بنو جروي ببشراتهم السوداء التي تخالطها بعض الزرقة ، وهم يصففون شعورهم السوداء المجعدة ، بطريقة خاصة ، تقوم ولا ريب على تقليد عريق في القدم ، ولا يوجد في أي مكان آخر في البلاد العربية . وهم يحلقون شعورهم باستثناء بقعة في وسط الرأس ، وباستثناء ضفيرتين تمتد احداهما إلى الأمام والأخرى إلى الوراء على العنق . أما بنو عبد ، فبشرتهم أكثر تفتحاً ، وشعرهم أقل تجعداً ، وطراز شكلهم مألوف في البلاد العربية . ولو لقي الإنسان احدهم ، ولم يكن يعرفه ، وأراد تصنيفه ، لحسبه هندياً على الغالب . وقد حافظت هاتان القبيلتان على نقاء دمهما ، ولم يختلطا بأية قبائل غريبة ، وإذا ما رأيت رجالهما يسيرون أبصرت بشيء من النبل يتراءى في مشيتهم . ومظهرهم وحركاتهم ، وهذا شيء مألوف حتى في أطفالهم . ويحتفظون دائماً بمظاهر الأنفة والكبرياء ، وهو ما يخلق لديهم جاذبية غريبة ، كما يضفي عليهم شيئاً من الجمال يتبدى في عاداتهم ، عندما يتناولون الأرز مثلاً بأيديهم .

ولا يفرضون على نسائهم العزلة المفروضة على المرأة عند غيرهم من القبائل ، وقد تمكنت مرات عديدة من الجلوس مع أفراد الأسرة الواحدة من الجنسين في بيوتهم ، وهذا شيء غير مألوف في انحاء أخرى من البلاد العربية . وبالطبع تمكنت من اكتساب ثقتهم بما أحمله من أدوية وعقاقير ، كانت النساء أول من يسعى للحصول عليها . وترتدي المرأة ، لباساً فضفاضاً لونه أزرق غامق ، وعلى رأسها أغطية من هذا اللون ، تشدها شرائط حمراء ، مزخرفة بالفضة . والنساء يحملن مجوهرات فضية كثيرة وغالية . تزدان بها أعناقهن وأذرعهن وأيديهن ، بالإضافة إلى الخواتم التي يضعنها في أصابع أيديهن وأرجلهن .

ويعيش بنو جروي وبنو عبد في عزلة كاملة عن القبائل الأخرى ، ويندر أن يقوم من رجال هاتين القبيلتين ، من يجتاز حدود المنطقة ، إذ أنهم لا يرغبون في التنقل والتجوال . وهم يتركون الاتصال بالعالم الخارجي الذي يعتبرونه محطاً بكرامتهم ، إلى بني عقيل ، التي كان ينتمي اليها رفاق سفري في الصحراء . ولكن أفراد هاتين القبيلتين بارعون كل البراعة في صناعة البسط . وهم يصنعونها من شعر

الماعز الأسود أو الأسود الممزوج بالأحمر ، ومن الصوف . وقد اشتهر أمرها في الجنوب العربي كله ، ويجري تصديرها إلى الأسواق بواسطة بدويي عفيل .

ويسكن بنو جروي أيضاً في مأرب التي تبعد يومين عن حريب . وفي وسع الإنسان أن يتصور أنهم بقايا السبأيين القدامى لا سيما وأنهم يختلفون عن أفراد القبائل الأخرى ، وقد تمكنوا من الحفاظ على عزلتهم عدة قرون .

وبالإضافة إلى حياكة البسط ، فإن حريب تعتبر من أهم مراكز الجنوب العربي في اعداد النيلج « النيلة » . وهذه العملية شاقة ومضنية . إذ أن النيلج يؤخذ من بذور نبتة خضراء صغيرة . وفي الأراضي التي تقع أمام كل مدينة ، مساحات شاسعة تداس أرضها بقسوة ، ثم تجمع البذور في الليل . وفي الصباح الباكر ، وقبل أن تشرق الشمس تبدأ عملية الاستخلاص . إذ تدرس البذور بمدارس من الخشب ثم تغربل وتطحن . وتوضع البذور السمراء الجميلة بعد ذلك في أوعية كبيرة من الفخار ملأى بالماء . وهنا يتأكسد النيلج ويتحول إلى سائل بني غامق عن طريق اتصاله بالهواء . ولا يسمح باستمرار عملية التخمير هذه أطول من عدة ساعات . وعند الظهيرة ، وعندما تكون الشمس في كبد السماء يمضي كل رجل الى وعائه . ويحرك السائل بعصى خشبية . منشداً أناشيد رتيبة وهو يقوم بتحريك السائل . ويلون نسيج القطن بالمادة التي تم استخراجها ، وتصبح جاهزة للارتداء . ومن طبيعة النيلج أن يتحلل ، وهكذا فإن البشرة سرعان ما تكتسب لوناً أزرق . ولكن هذا لا يعتبر نقيصة ، بل على العكس ، فإن البدو يدهنون أحياناً أجسادهم بالنيلج . وهذا هو السبب في اختلاط لون البشرة السمراء ، في هذه المناطق بالزرقة بحيث يمكن أن يطلق على العرب في هذه المنطقة اسم « العرب الزرق » .

- ٨ -

عـــلى الذروة . .

عندما نزلت ذات صباح إلى باحة السجن ، وكان قد مضى عـلي ثلاثـة اسابيع رهن الإعتقـال ، احـاط بي السجنـــاء والمـرضى . وابلغـــوني ، وسيـماء الفـرح تعلو وجوههم . ان الرسول ، الذي قصد صنعاء ، قد عاد في الليلة الماضية ، وانـه يحمل انباء طيبة ، كما قيل لهم .

وجـاءني العامل « الكحلاني » عنـد الظهيـرة ، واعلمني ، والابتهاج بـاد على محياه ، ان الإمام قد سمح لي بالسفر إلى صنعاء . ولكنه لم يذكر في البداية شيئاً عن صورة الرحلة التي سأقوم بها .

وعلمت فيما بعد أن الإمام قد حدد تمامـاً الطريق التي يجب أن أسلكهـا بكافة تفاصيلها الدقيقة ، وأمـر ، بأن يـرافقني ثلاثـة من الجنود كحـرس وهكذا بـدا لي أن حريتي لم تعد قائمة .

وتمر أقرب الطرق المطروقة الى صنعاء ، عبر جوبا ، التي تبعد مسافة يومين عن حريب . وكان الإمام قد بعث بتعزيزات عسكرية ضخمة الى جوبا لمقاتلة قبيلة بدوية ثائرة . ولكن على الأجنبي أن لا يرى مثل هذه العمليات العسكرية ، وهكذا سدّ في وجهي أقرب الطرق ، واكثرها يسراً وسهولة . أما الطريق الثانية فكانت عبر مأرب . ولا ريب في أن هذه من اليمن لم يكتشف بعد ، ولكنها طريق طـويلة ، وفيها الكثير من المشاق والمتاعب . وهذا ما علمته من الضباط ، الـذين أخذوا يبحثـون موضـوع الساعة في حـريب كلها ، وهـو موضـوع سفري ، عنـدما حلت سـاعة تنـاول القات

المعهودة . وقد وعدوني بمنتهى اللطف والدماثة ، بكل شكل من أشكال الراحة والمتعة أثناء الرحلة ، وأكدوا لي أولاً ، أن عليّ ، ان أسافر مستقلاً بغلاً بدلاً من الجمل ، واكدوا لي أنهم سيضعون أحد البغال تحت تصرفي .

وعندما حان موعد الرحيل في اليوم التالي ، بدا لي أنهم قد نسوا وعودهم بالأمس . ولم أر أي أثر لبغل من البغال . وهكذا لم يبق أمامي إلا أن أستقل بعيري القديم . وأن أحاول العثور على الراحة على ظهره وسط متاعي . وقام الجنديان ، اللذان تقرر أن يرافقاني في رحلتي ، إذ أن ثالثهم كان لا يزال مفقوداً ، بوداع رفاقهم ، وداعاً طويلاً فيه الكثير من الشكليات ، التي تنطوي على تقبيل الأيدي أيضاً . وكان وداعهما ، أشبه ما يكون بالفراق الأبدي ، الذي لا ردة فيه . وقد علمت منهما أن الرحلة ستجتاز منطقة تعمها الفتن ، وانهما يجهلان إذا كانا سيعودان سالمين إلى رفاقهما .

وانضم الينا الجندي الثالث بعد نحو من نصف ساعة ، وكان يمتطي صهوة بغل ، مطهم . وعلمت آنذاك ، أن أحد الضباط ، قد اشفق علي فعلاً ، ووضع هذا البغل تحت تصرفي . ولكن الجندي ، رأى انني مرتاح على صهوة البعير ، واستأثر بالبغل لنفسه . ولم يسمح قط طيلة الرحلة ، لأي من رفيقيه بامتطائه ، على الرغم من أنهما أحياناً كادا يسقطان اعياء وتعباً . وكان هذا الجندي ، بديناً كل البدانة ، وهذا أمر نادر كل الندورة في هذه المناطق ، وكان على خلاف الرأي السائد عن البدينين ، بعيداً عن الدماثة والعطف ، كما كان عصبي المزاج ، بحيث تعذر حتى على رفيقيه احتماله .

ولم نكد نمضي في طريقنا مسافة قصيرة ، وقد انضم إلينا ، هذا الرفيق المزعج ، حتى سمعنا صرخة عالية وراءنا ، دلت على موجة عارمة من الحنق والغيظ ، وسرعان ما رأينا ضابطاً من ضباط حامية حريب ، وهو من أصل تركي ، وقد انضم إلى الجيش اليماني ، يفد هاجماً علينا ، والنقع الذي أثاره جواده ، يؤلف سحابة ضخمة حوله ، وقبل أن نعرف ماذا وقع ، إنهال بسيل عاصف من الشتائم والسباب . واتضح اخيراً أن الجندي الذي جاء ممتطياً البغل قد سرق من الضابط

سرج بغله الجميل . وظل الضابط الهائج على ثورته ، إلى أن لحق به الاعياء . واستمطر على السارق لعنة السماء وعذاب الجحيم ، حتى ان رفاقي الثلاثة ارتعدوا من هذه اللعنات . ولم يكد الضابط يستعيد سرجه المسروق ، حتى هدأت ثورته بسرعة ، وعدل عن عزمه على القبض على السارق ونقله الى سجن حريب كما توعد من قبل . وانهال الجنود على الضابط ثناء وشكراً . أما أنا فقد كان يسرني كل السرور ، لو أن الضابط نفذ وعيده ، وأخذ هذا الجندي الذي كرهته منذ النظرة الأولى إلى السجن الذي يستحقه .

وكان قد انضم إلي كدليل الآن ، صالح ؛ شقيق مبارك ، الذي كنت قد تعاقدت معه في البداية في سوق شبام . وكان صالح ، قد عاد بعد اسبوعين من وصولي الى حريب ، فاستدعاه الحاكم ، لمحاسبته ، ولكن هذا تمكن من تخليص نفسه بذكاء ومهارة ، مبرراً تقاعسه عن السير معي بالمرض . واستدعاه الحاكم في اليوم الذي سبق رحيلي ، وأصدر أمره اليه بمرافقتي الى صنعاء ، تنفيذاً للعقد الذي إرتبط به معي .

ووصلنا عند الظهيرة إلى أبو طيف ، وهي من القرى التي تسكنها قبيلة بني عقيل . وأردنا أن نستريح في القرية حتى المساء بسبب إشتداد الحر ، وأن نواصل السير في الليل . وأخذني صالح الى منزله ، وهو كوخ مبني من القش ، وأعدت لي زوجته وأطفاله ، وجبة طعام على الطريقة المحلية . وبعد أن انتهينا من تناول الطعام دار بيننا الحديث التالي :

قال صالح ، مبتدراً الحديث بطريقته الهادئة . . . أن أخي مبارك رجل الطريق أكثر صلاحاً لي ، وتتفق مع خططي الأصلية . ولكن ثمة عقبة كأداء في هذه الطريق أيضاً . فالإمام يعارض معارضة شديدة في أية عمليات استكشاف لمملكته ، حتى في هذه المناطق ، حيث ينصب الإهتمام على الآثار ليس إلا . وكان يعتبر الإهتمام بحل الرموز والنقوش الأثرية الموجودة في الخرائب المطمور نصفها على الأقل في الرمال ، مجرد ذريعة للتجسس على بلاده ، ولم يكن ليصدق أن الرسوم اليدوية والصور التي تؤخذ للآثار التاريخية ، يمكن أن تكون مجرد وثائق عن عصر انقضى . وكان يرى ،

له إذا سمح للاجانب بدخول بلاده ، بحرية ، فسيدفق عليها عدد كبير من الناس الذين لا يهتمون حقاً بالآثار وإنما يتنكرون في أزياء العلماء . وآنذاك ستغدو اليمن بلاداً « مفتوحة » . وتتعرض « للحضارة العصرية » . و « للتطور الاقتصادي » ويفد إليها الغزاة العسكريون الإجانب في أعقاب المموليين والمهندسين الأجانب . وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار التجارب التي مرت بها بعض البلاد الأخرى ، فإن الإمام قد لا يكون مخطئاً في هذا الراي كل الخطأ .

وعلى ضوء هذا ، فإن مراكز الحضارة السبأية القديمة ، كمأرب وغيرها ، محظورة تماماً ، لا على الأجانب فحسب بل على جميع المسلمين الأغراب عن اليمن أيضاً . وكنت اعرف وجهة نظر الإمام تماماً ، ولذا فقد كانت جرأة مني ، أن اقتحم منطقة سبأ من ناحية لا يتوقعها الإمام ، وأعني بها ناحية الصحراء الخلفية . وكان من السهل على الإمام ، أن يطردني من الأرض المحرمة عن طريق حريب . وان يأمر بإبعادي من الطريق التي جئت فيها ، وأعني بها الصحراء . ولكن الإمام يعرف الأوروبيين ، وكان يعرف أنني لو طردت هذه المرة ، فسأحاول التسلل إلى أرض اليمن ثانية من مكان جديد . ولهذا ، فقد رأى الإمام أن أنقل أولاً الى صنعاء ، حيث أصبح تحت إشرافه ومراقبته .

وكانت الطريق التي حددها لي الإمام ، تتمتع بمزية المرور في جزء طيب ، أليس كذلك ؟ لقد وصل بك سلياً معافى إلى حريب ، أليس كذلك ؟

- أجل ليس لدي ما أشكوه منه .

وهنا قال صالح ، وقد أشرق وجهه . . . إذن فسيتولى إيصالك بسلام إلى صنعاء أيضاً .

وسويت القضية على هذا النحو . فقد ظل صالح في « أبو طيف » ، وقد تحرر من كل مسؤولية ، بينما حل اخوه مبارك محله ، وقد وافقت على ذلك ، إذ كان من العسير أن اجد دليلاً خيراً من مبارك الممتاز .

وكانت ساعة متأخرة من الليل . وكانت قافلتنا الصغيرة تسير بصمت وهدوء

لا تقطعها إلا إنطلاقة حصاة أو حجر صغير . وكانت النجوم تبعث بضوئها الخافت عبر السماء في ومضات متقطعة . ولا تلقي النجوم بأية ظلال ، وإنما تلف كل شيء في إتساق وإنسجام ، وفي شفق ناعم متنقل ، وأحاطت بنا الصحراء من كل صوب وناحية . وسرت عدوى الصمت المخيم عليها إلينا ، فأطبق علينا ، وأصبحنا تحت رحمته جسداً وروحاً . وكثيراً ما يرغم قاطع الصحراء على حبها ، وذلك لأن الدنو منها يعني الخطر ، وقد يعني الموت أيضاً . وطبيعة الصحراء سر مغلق ، لا يستطيع الإنسان النفاذ إلى أعماقه . وهي تجمع بين الجمال والقبح والسمو والخيانة ، والروحية والإحساس ، والخير والشر .

ونمضي صعداً على الكثبان الرملية ، وهبوطاً منها ، دون إنقطاع . وإذا ما تطلع إنسان إلى قافلتنا الصغيرة من مكان ناء بعيد ، خيل إليه ، اننا نمثل باخرة تتهادى في بحر مرتفع الأمواج . وفي غضون هذا السير الثابت البطيء عبر النجود والوهاد ، لم يكن في وسعنا أن نعرف ، أننا كنا نرتقي صعداً في جبال اليمن ، واننا ندنو شيئاً فشيئاً من ذراها العالية .

ويتوقف قائد الحملة فجأة ، وتبدر منه إشارة . فعلى مسافة قريبة منا نار موقدة صغيرة . إذن فهناك رجال في الجوار ، وهذا يعني وجود الخطر . ويمضي القائد وحيداً بحذر إلى الأمام ، ثم يهتف عالياً في حلكة الدجى . ولا يرى شيئاً ، ولكنه يسمع أصواتاً ترد عليه . إنها أصوات رجال يقيمون في مراكز أمامية مختفية وراء مرتفعات من الأرض . ويذكر كل فريق اسم قبيلته ، وكأنه يمثل باخرة ترفع علمها عندما تلتقي باخرة معادية أو مجهولة في عرض البحر . ويعود القائد ويطلب الينا المسير ونصل الى أرض تعسكر فيها احدى القوافل . إنهم من البدو وينتمون إلى عشيرة صديقة . ونقضي معهم فترة من الراحة تمتد ساعة أو ساعتين ثم نواصل السير في هدأة الليل .

وفي اليوم الثالث من أيام هذه الرحلة الصحراوية ، وكانت جبال أعالي اليمن قد تراءت أمامنا شامخة في الأفق . بدت أمامنا بعض خيام البدو الرحل المصنوعة من الشعر . وكان هؤلاء ، هم أول من رأيت في الجنوب العربي من البدو الأصيلين .

فحتى افقر الناس هناك يعيشون في بيوت ثابتة أو اكواخ على الأقل . ولا يألف أهل الجنوب حياة التنقل من مرعى إلى مرعى ، مع فصول السنة ، على الرغم من أن طبيعة السهول المنتشرة في البلاد ، توحي بمثل هذا النوع من الحياة . وهذا الخلاف في طريقة الوجود ، والذي حوفظ عليه عن طريق التباين في التربة والمناخ . والبون في شكل المأوى ، يمكن إيضاحهما عن طريق تأكيد وجود الخلاف في الأصول العرقية ، على الرغم من أن أصول العرب ما زالت مشكلة لم تحل ، تماماً كتكوينهم العرقي . وتظهر الملاحظة الدقيقة ، وجود عناصر مختلفة في تكوين عرب اليوم . فاللون الشديد السواد المتمثل في قبائل حضرموت ، يشير إلى اختلاطات مع العنصر الهندي . وتبدو في قبائل شيبان نفس المميزات الشكلية التي تبدو في أهل سيلان . فبالاضافة إلى وجود شبه في طريقة الحياة بمجملها ، هناك تشابه آخر في مشيتهم الخاصة يبدو في إنبساط القدم انبساطاً بطيئاً . أما رجال القبائل اليمانية ، فيتميزون من الناحية الثانية ببشرات أكثر تفتحاً ، نجمت عن تأثيرات وافدة من آسيا الوسطى . وعلينا أن لا ننسى أن البلاد العربية كانت في القرون القديمة أحد البلاد الهامة التي تعبرها الشعوب كما تعبرها التجارة . وأدى امتزاج هذه العناصر ، التي تنتمي في أصولها إلى أجزاء مختلفة من الكرة الأرضية . إلى هذا الاختلاط الذي اشتد أمره من جراء هذه الهجرات الواسعة النطاق داخل البلاد نفسها من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، والتي تشبه الهجرات التي وقعت في اوروبا في تاريخها القديم . بإستثناء أن تلك كانت تقع من الغرب إلى الشرق أولاً ، ومن ثم من الشرق إلى الغرب .

ويعود هؤلاء البدو الذين التقينا بهم في جبال اليمن في أصولهم إلى أواسط الجزيرة العربية ، وهي حقيقة تفضحها بعض خصائص اللباس الذي يرتدونه . ولكن من الغريب أنهم يحملون نفس الأسماء القبلية التي يحملها الحضر من أهل الجنوب ، كبني عقيل مثلاً أو بني عبد . وكانوا يستقبلوننا إستقبالاً ودياً ، يبدو واضحاً في وجوههم ، باستثناء ، ما يظهرونه من شك في جهاز تصويري الذي يسمونه « صندوق العجائب » ولا يستثنى منهم في ذلك ، إلا اولئك الذين كانوا على إتصال بالغربيين . ولكنني تمكنت على أي حال من اقتناص ثقتهم بما أحمله من أعاجيب الدواء .

ولم يكن قد مضى على لقائنا طويل وقت عندما انـدفع نحـوني بدوي عجوز بعد ان تبيّن هـويتي الأوروبية طـالباً « الـدواء » ، ذلك لانـه يشعر بـالالم في جسده . ونـظلعت إلى الرجـل من مكاني عـلى ظهـر البعـير ، وطلبت اليـه ، أن يتحدث إلي باسهاب عن الآلام التي يحس بها ، بينما تحلّق حولي النساء والأطفـال . متابعين سير الاستشـارة الطبيـة بمنتهى الفضول ، فهم لا يعـرفون شيئاً عما نـدعـوه بسر المهنة . واخرجت جهاز التصوير بعـد ذلك ، ووضعتـه أمام عيني وكـأنني أود فحص المريض بعنـاية أكبـر بواسـطة هذا الجهـاز . وبعد فتـرة قصيرة من هـذا التظاهـر ، أوضحت للمريض أنني تمكنت من تشخيص مرضه ، وسلمت إليه حبوب الدواء التي يريدها . وبالطبع لم أكن أعطي مـرضاي إلا العقـاقير التي لا ضـرر منها ، وكـانت مجدية على الغالب ، ذلك لأن المرضى كانوا يؤمنون إيماناً عميقاً بجدواهـا . أما في هـذه الحادثة فقـد مضى الطبيب والمـريض راضيين . وقـدم لي البدو وعـاء من الخشب مليئاً بالماء البارد النقي ، وكانت هذه الهدية من أثمن الهدايا التي يمكن أن تقدم في الصحراء .

وكنـا نرتقي منـذ ساعـات عـدة ا مجـرى وادي صخـري جـاف يسمى « وادي الدهين » . وظللنا نصعد ونصعد ، والوديـان السحيقة تـزداد عمقاً وغـوراً ، والقمم الصخرية تزداد تثلماً ، حتى وجدنا انفسنا بالتدريج وقد غدونا وسط عالم من الجبال .

ووصلنا اخيراً الى الذروة ، وكنا في ساعة متـأخرة من بعـد الظهيـرة ، واتخذنا سبيلاً يؤدي بنا إلى « اليمن الخضـراء » . كنـا الآن في ذروة البـلاد العـربيـة ، وهي الجبال المشهورة التي تتراوح في إرتفاعها بين ستـة آلاف وتسعة آلاف قـدم أو يزيـد . وانبسط أمـامنا ، منظر لن أنساه مـا دمت عـلى قيـد الحيـاة . فليس ثمـة إلا قلة من الأماكن في العالم ، التي تجمع كهذا المنـظر بين الجمـال والجلال . وبينـما كنا من قبـل نعيش في سحـر الصحـراء القـاسي الـذي لا يـرحم . وكـأننـا في معـزل عن العـالم الـدنيوي ، ويلفنـا إحساس مـرعب من وجوم الأبـدية ، وصلنـا فجأة إلى الأرض ، وغدونا على إتصال بـالجنس البشري ، واختفى ذلـك التوتـر الذي كـان يسيطر على احاسيسنا ليحل محله شعور من الهدوء والاسترخاء .

كنا في بلاد جبلية . وقد تنوعت المناظر بالنسة الينا ، فـالقمم والذرى من جميع

الاحجام والأشكال ، وفي مختلف صور الفخامة ، تبرز في السماء الزرقاء ، تبدو كبحر هائج ، تحجر فجأة ، وبين هذه الجبال ، وديان عميقة جميلة ، خضراء مشرقة ، تملؤها الحدائق والأزاهير .

وبدا أمامنا مسيّف جبلي هائل . له عدد من الذرى الحادة ، ترتفع الواحدة منها فوق الأخرى ، تماماً كالكاتدرائيات القوطية الشاهقة ورأينا على القمة البعيدة ، قرية ، ارتفع برج المراقبة فيها مترنحاً في الهواء وعندما اقتربنا من القرية ، مررنا على مقربة من إحدى الكندرات (مجاثم الطير) . التي تنتشر على ذرى الجبال . وكانت بيوت القرية تتألف من ثلاث طبقات أو خمس . وقد بنيت في صفوف متراصة الى جانب بعضها ، وكونت ما يشبه القلعة المحاطة من كل ناحية بمهاو فاغرة أفواهها . وليس ثمة إلا سبيل واحد للوصول الى القرية ، يصلح لارتقاء حيوانات الماعز ، وكان من الصعب العثور على هذا السبيل المؤدي إلى مدخل مختفي عن العيون . وكانت أبواب البيوت ونوافذها ، تطل كلها على داخل القرية . أما من الخارج ، فلا شيء إلا الجدران .

وتحدث أحد كتاب العرب ، يصف بلاد اليمن ، فكتب عنها يقول : « إن جميع أهلها من الأقوياء الأصحاء . فهم لا يعرفون المرض . وليست فيها حيوانات أو نباتات سامة ، أو أشخاص من المجانين أو العميان . والطقس فيها يشبه طقس جنات النعيم . ويرتدي الناس فيها نفس الملابس صيفاً وشتاء ، أما النساء ، فلا يتجاوزن مرحلة الشباب ابداً » .

وقد يكون هذا المؤرخ العربي ، قد أغرق في المبالغة في نواح عدة . ولم يكن باستطاعتي التثبت من شباب نسائها الدائم . إذ أنهن جميعاً من المحجبات . ولكن من الثابت أن سكان هذه المنطقة الجبلية ، التي تفصلها سلاسل عالية من الجبال ، والتي لا يمكن اختراقها إلا عبر مضائق مقلعة في العمق ، قد احتفظوا بنقاء عرقهم وسلامة بنيانهم ، أكثر من سكان السهول الساحلية مثلاً .

ولا ريب في أن ما يراه الإنسان اليوم في اليمن السعيد ، وهي المنطقة الوحيدة

في الشرق الأوسط ، التي تسقط فيها الأمطار بشكل منتظم وكاف ، ليس إلا انعكاساً شاحباً ، لما قد وقع في الماضي البعيد في القدم . فالقمم والذرى التي لا عد لها ولا حصر ، تحمل بقايا ما كان في يوم من الأيام ، قلاعاً وحصوناً ، كما تضم وديانها الواسعة الخضراء ، آثار مدن كانت في الماضي مغرقة في الثراء وكانت اليمن ، الزهرة المتفتحة في العصور الغابرة ، كما كانت النهاية المجيدة للعالم المعروف آنذاك . وكانت ترد اليها من المناطق الواقعة إلى شرقها وجنوبها ، معلومات غامضة شاحبة ، وقصص لا تعدو حدود الأساطير والخرافات والقصص الخيالية ممزوجة مع كنوز الذهب والأحجار الكريمة ، التي كان السبأيون والحميريون يأتون بها من هذه البلاد الأسطورية . والجنوب العربي ، هو المركز الثاني بعد بابل للحضارات القديمة والمهمة وما زال التاريخ الكامل لهذه الحضارة مجهولاً ، ولكن مدى تأثيرها كما أثبتت البحوث الأخيرة ، شمل الى حد كبير حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق مصر وافريقيا ، مما ترك آثاره في أسس الحضارة الغربية .

ووصلنا في ساعة متأخرة من المساء الى الحباب ، وهي أولى البلدان الكبيرة والمهمة . وتقع هذه القرية في واد مترف ، تحيط به سلاسل جبلية متقطعة . ويضم حقولاً للقمح وبساتين للفاكهة ، وكروماً للعنب وأشجار التين ، وإذا ما قارنا بين هذه البلدة وبين القرى التي تشبه مجاثم الطير في قمم الجبال تبين لنا أنها مؤلفة من مساكن متفرقة تشبه المزارع في كثير من أنحاء اوروبا . ولكن كل بيت من بيوت هذه المزارع ، أشبه بالقلعة القائمة بنفسها التي تضم أبراجها ومعاقلها .

واسترحنا في الحباب ليلة وبعض اليوم . ولاحظت بأن رفاقي يحاولون الحيلولة بيني وبين الإتصال بأهل البلدة ، وربما كانوا ينفذون في ذلك أوامر صادرة اليهم من الدوائر العليا . وهكذا أقمنا معسكرنا خارج البلدة في الأرض العراء . ولكن في صباح اليوم التالي ، وعندما عرف أمر وصولنا ، تدفق من البلدة رجالها ونساؤها وأطفالها ، لرؤية الغريب الذي وصل بلادهم . وكانت هذه هي اللحظة التي فتنت فيها على حد قول الجنود الذين يرافقونني . واليكم القصة .

فلقد كانت امرأة تدعى « فطّوم » بين أهل الحباب الذين تجمعوا حولنا ، ولم

تكن أقل خفراً ، في رؤيتها للرجل الأبيض من الأخريات . ولم تكن « فطوم » بالمرأة المتناهية في الجمال ، أو الصغيرة جداً في السن ، ولكنها كانت تحمل وجهاً جميلاً سافراً ، وترتدي لباساً طويلاً اسود ، وتتحلى بالكثير من الحلي الفضية . كانت سافرة ، وقد وضعت على رأسها غطاء من شعر الماعز ، على عادة أهل تلك المنطقة ، وهي عادة تترك في النفس انطباعاً عجيباً . وانطلقت المرأة في حديثها معي ، واخذت توجه إلي مختلف الأسئلة ، ثم دعتني أخيراً لتناول القهوة في منزلها . وقد عارض رفاقي ، الذين لم يتخلوا عن مراقبتي دقيقة واحدة ، في ذلك تمام المعارضة ، ولكنني كنت قد مللت مراقبتهم ، فقبلت الدعوة مغتبطاً . وجلست مع أفراد الأسرة كلها ، في فسحة ضيقة من الأرض تقع أمام المنزل ، وبينما كانت القهوة تقدم إلي ، والحديث يدور بيننا ذو شجون ، لم تنس فطوم واجبات الأمومة ، فقد ظلت تلعب بأصابعها في شعر فتاتها الصغيرة ، باحثة عن ضيوف ثقلاء في شعرها . وقضيت ساعتين ممتعتين على هذا النحو ، مع هؤلاء الناس المضيافين ، والبسطاء الذين يعيشون على سجاياهم ، وسط حلقة عائلية تشبه في فطرتها ، الحلقات التي ذكرتها التوراة . وعندما عدت أبلغني رفاقي الساخطون أن فطوم قد سحرتني ، وانني سأرى بنفسي ذلك فيما بعد .

وبالفعل ، عندما استأنفنا رحيلنا في ذلك اليوم ، اصبت بضربات من سوء الطالع . فبعد أن أزلنا مخيمنا ، تحتم علينا أن نعبر مسيلاً للماء . فعندما وصل جملي الذي يقلني ويقل متاعي الى وسط الماء ، توقف فجأة ، وأقعى أولاً على يديه ، ثم على رجليه ، وبدأ يحرك نفسه هانئاً في الماء البارد . وسقطت في الماء بالطبع ، وتبللت ثيابي ، كما تبللت حاجياتي كلها . وتطلع إلي الجنود بنظرات لا تخلو من الاشفاق والحنان ، وأخذوا يصرخون : « فطوم . فطوم .. لقد أبلغناك هذا . انها جاءتك بسوء الطالع » .

وبعد لحظات ، كنا نسير بمحاذاة واد جاف تغطيه الأعشاب الشوكية .

وسارع البدويان اللذان كانا يقودان بعيري ، للقاء بدويين آخرين من معارفهما كانا يهبطان الطريق . ولم يستطع بعيري مواصلة السير بسرعة فوق الأعشاب

الشوكية ، فسارع يتناول منها ما يأكله مهرولاً . ولم استطع الحفاظ على توازني فوق ظهر الحيوان ، وعندما توقف بصورة مباغتة بعد هرولة سريعة ، وجدت نفسي وقد قذفني بين الشجيرات الصغيرة . واسفر الحادث عن تمزيق قميصي ، واصابني بعض الخدوش .

وتطلع إلي الجنود بنظرات فيها الكثير من الاشفاق والحنان ، وهم يقولون « فطوم ! فطوم ! لقد سحرتك المرأة الشريرة » .

ووصلنا بعد ذلك الى مروة ، وهي البلدة التالية ، وتضم بعض الآثار المهمة من أيام السبأيين . وفرض الجنود رقابة شديدة علي ، لعين السبب ، عندما دخلنا البلدة . وفي مروة جالية كبيرة من اليهود ، وقد جاءني بعضهم ، وأخذوا يشيرون لي الى عدد من الاتجاهات قائلين . . . « هناك مكان يضم عدداً من النقوش الرائعة . وهناك مكان ثان . اصعد اليه » . ولكنني لسوء الحظ لم استطع الخلاص من الحراسة المفروضة علي .

وبعد أن اجتزنا مروة ، ظهر أمامنا جبل نقم ، وهو جبل له قمة رائعة الشكل ، انها قمة صنعاء عاصمة البلاد . وقد الفنا نحن الأوروبيين أن نرى المناظر الطبيعية ، وان نمر بها مر الكرام ، كما يرى الإنسان شريطاً مصوراً ، وذلك بالنسبة إلى وسائل سفرنا السريعة ، وكان من الغريب علي تبعاً لذلك ، أن أرى مثل هذا الجبل الفرد ، ماثلاً أمامي يوماً كاملاً ولا أصل اليه إلا ببطء شديد . انها تجربة تعلم الإنسان الصبر .

وتبين لنا فوراً ، اننا نقترب بالتدريج من مدينة كبيرة . وبدأنا نرى الشوارع وهي تكتظ بالناس . إنها تضم التجار يحملون سلعهم على حميرهم أو جمالهم ، وبينهم اليهود والبدو وكبار الأهلين .

وكنا قد قضينا الليلة الأخيرة قبل وصولنا إلى هدفنا في محطة للقوافل . كان عدد من القوافل قد اقام خيامه فيها . ولم نصل إلى المكان إلا بعد هبوط الظلام ، ولحتم علينا ان نبحث عن طريقنا بين الحمير والجمال ، وبين أكياس البضائع ،

والبدو النائمين ، الى أن عثرنا على فسحة من الأرض أقمنا مخيمنا فيها . والليالي في الصيف في هذه المرتفعات التي تبلغ في علوها ستة آلاف قدم أو يزيد ، باردة للغاية ، ولم يكن النوم في العراء ، وتحت قبة السماء الزرقاء متعة من المتع ، باستثناء الطابع الرومانطيقي فيها . يضاف الى هذا ، أن النبأ كان قد انتشر لدى بعض الحشرات التي ترافق الإنسان في هذه الأصقاع ، بأن بشرتي البيضاء ، ودمي الكثيف ، يؤمنان لها غذاء دسماً ، بعد أن ملّت غذاءها اليومي المألوف من تلك الأجساد السمراء الناحلة . وشعرت على أي حال ، بأن كل ما في المخيم من بق وقمل قد احتشد تلك الليلة لمهاجمتي . ولكن جميع هذه المتاعب قد تلاشت ، أمام شعور التسامي الذي احسست به من دنوي من هدفي ، ومن نجاحي في مشروعي الجريء ، ومن أنني سأنسى جميع متاعب رحلتي عما قريب عندما ادخل صنعاء .

وعندما وصلنا قمة جبل نقم في الصباح التالي ، واستدرنا حول المنعطف ، وجدنا أنفسنا ، وقد تخلصنا من المنظر الذي كنا نراه طيلة اليومين الماضيين ، وأبصرنا أمامنا من الناحية الأخرى مدينة صنعاء المقدسة وقد امتدت أمامنا تحت اقدامنا . وقد اسميتها بالمقدسة لأنها تضم ثمانية وأربعين مسجداً ، وتسعة وثلاثين كنيساً لليهود واثني عشر حماماً عاماً لنحو من خمسين ألفاً من البشر .

وإذا ما تطلع الإنسان الى المدينة من مكان بعيد ، بدت له وكأنها عنكبوت هائل . هبط من السفوح نحو الوادي ، وانتشر نسيجه تحت رأسه الذي يقع في المنحدر . وبدت البيوت المتراصة ، التي استحمت جدرانها في أشعة الشمس المحرقة ، وكأنها مجموعة من الصخور العمودية البيضاء ، المؤدية إلى قصر ذي أربع طبقات ، عبر سلسلة من القطاعات التي ترتفع تدريجاً إلى أن تصل قمم منائر المساجد ، وكلها تعلوها قمم من الجبال ، ذات الأشكال الغريبة .

وعندما هبطنا من الجبل ، واتضحت أمامنا أحدى بوابات المدينة الهائلة على مسافة بعيدة ، بدا بعيري جذلاً من اقتراب نهاية الرحلة الشاقة ، ورأيته فجأة يهرول راكضاً باتجاه المدينة . وتمكنت من الحفاظ على توازني بصعوبة بالغة ، بينما أخذت حاجياتي في تتطاير من على ظهره يمنة ويساراً في قوس واسع . وتصورت أنني سأكمل

الدخول إلى صنعاء ، على هـذا النحو غـير الكريم . ولكن بـدويين كـانا أمـامي على الطريق لحسن الحظ ، تمكننا من وقف البعـير ، الذي فقـد عقله من الفرح ، وذهب في تلك الغـارة الهائلة . وهكـذا تمكنت من اعـداد نفسي من جـديـد ، والتقـدم من أبواب المدينة مع حرسي الخاص من الجنود في هيئة كـريمة محـترمة . وكنت أتـوقع كما كـان رفاقي يتـوقعون أيضـاً ، أن يـرحب بي الإمـام تـرحيبـاً رسمياً فيـه الكثير من الفخـامة ، كما وقـع في رحلتي الأخيـرة لليمن . ولكن تـأتي الـريـاح بما لا تشتهي السفن .

- ٩ -

أســـير الامـــام

ورأينا عند مدخل المدينة ثكنة عسكرية ضخمة تعود في بنائها إلى عهد الاتراك العثمانيين ، كغيرها من البنايات الفخمة والحصون المنتشرة في جميع أنحاء البلاد . وعلى الرغم من جميع النفقات الضخمة ، التي أنفقها الاتراك ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلوها ، فإنهم لم يتمكنوا من اخضاع اليمانيين من أهل الجبال ، الذين يصح أن يطلق عليهم اسم سويسريي العرب . ووصلنا أخيراً إلى باب اليمن ، وهو أضخم أبواب المدينة التي تحيط بها الاسوار . ورتبت هيئتي حتى ادخل عاصمة الامام في شكل مرضٍ ، تليق بكرامة الاوروبي . ورفض الحراس ادخالنا من هذا الباب . وابلغونا وجوب الذهاب الى الباب الآخر ، وهو باب « الشعوب » . ولم استطع اكتشاف السبب في هذا الاجراء ، ولكن بدا لي أن اوامر قد صدرت إلى الجميع بصدد وصولي .

وهكذا مشينا مع سور المدينة المرتفع في قيظ الظهيرة . ولم يكن السور ليضفي علينا أكثر من بوصتين اثنتين من الظل ، بل كان على النقيض من ذلك يشع بالحرارة ، وكأنه فرن كهربائي . وسمح لي بالدخول من ذلك الباب ، وسرعان ما أحاطت بي حراسة قوية ، في الطريق إلى قصر الامام . فهل سيسمح لي بلقاء الامام على الفور؟ إن مثل هذا الترتيب رائع كل الروعة ، إذ يتيح لي الفرصة لاقناعه باتخاذ موقف أكثر ليناً من دخولي غير المشروع الى بلاده ، وتذكيره بالاستقبال المتناهي في الود ، الذي شرفني به في الماضي . ولكن هذا الأمل ، لم يكن أكثر من مجرد ومضة

خاطفة ، إذ كنت أعرف تماماً أن الامام لم يستقبل قط أي اجنبي فور وصوله إلى عاصمته .

وبعد انتظار غير مجد دام نصف ساعة ، صدر إلي الأمر بالسير من جديد ، وقد أحاط بي الجنود من كل جانب ، دون أن توجه إلي كلمة واحدة . ووصلنا الى بيت القاضي عبد الله ، والي صنعاء . واضطررت إلى الانتظار من جديد مدة طويلة في الشارع ، وتحت حرارة الشمس اللاهبة . وعندما طلبت أخيراً الاذن ، بأن أسوق بعيري المتعب ، إلى ظل بيت قريب ، قيل لي بخشونة ، أن أظل حيث أنا وتوجست خيفة من هذا الاسلوب الصارم في الحديث ، وهو اسلوب غير معروف في اليمن حتى لدى ممثلي السلطة .

واختصاراً للقصة ، أقول ، إنني قد اودعت السجن ، كأحد المجرمين الخطرين ، دون أن تقال لي كلمة واحدة ، أو يشرح لي سبب اعتقالي ، وكنت قد ألفت الآن حياة السجون ، ولكن هذا السجن يختلف عن ذاك في حريب . فقد قادوني في رواق طويل ، ذي ابواب خفيضة على جانبيه . وفتح أحد السجّانين ، وكان منظره لا يوحي بالثقة ، أحد الابواب ، واوضح لي بهزة من رأسه ، أن تلك الزنزانة ، التي فتح بابها ، ستكون مثواي . كانت غرفة صغيرة ، ذات نافذة واحدة متناهية في الضآلة ، وقد امتلأت بالاقذار والعفونة . ورفضت رفضاً باتاً الدخول إلى مثل هذه الحظيرة التي لا تصلح إلا للخنازير . وهنا هز السجان رأسه مرحاً ضاحكاً وقال : « حسناً قد تكون هذه ، أفضل من تلك » ، ثم فتح باباً ثانياً وثالثاً . ورأيت عين المنظر في الزنزانتين . وقررت الاضراب ، وجلست على متاعي ، وسط الرواق ، رافضاً الاستماع الى أي رجاء ، وملقياً إلى اقوال مرافقي اذناً صماء .

وأصيب المرافقون بالحيرة . فماذا يعملون معي ؟ إنهم لا يستطيعون أن يرغموني على الدخول إلى إحدى هذه الزنزانات بالقوة ، فقد ظل هناك على الرغم من كل شيء ، بعض الاحترام الذي يقابل به الاوروبيون في اليمن . وبعد درس طويل ، بدا لي ، وكأن فكرة طيبة قد جالت في خاطر السجان . وسرعان ما اختفى ، بينما ظل الجنديان اللذان رافقاني في رحلتي في حريب الى الوراء ، يتوليان

حراستي ، أما الجندي الثالث ، فقد اختفى مع بغله قبيل وصولنا إلى صنعاء . وسرعان ما جاء ضابط الشرطة في المدينة ، الذي ذهب السجّان لاستدعائه . وكان اسمه « الحنش » ، أي الثعبان ، ولكنه لا يشبه الثعبان في شيء إلا في اسمه . لقد كان رجلاً ودوداً ، طيب السجيّة ، وعندما شرحت له السبب في اعتراضي على الدخول إلى الزنزانة ، حل المشكلة بطريقة بسيطة تشير الى التفهم المطلق ، إذ وضع مكتبه تحت تصرفي . وقال الجنديان وهما يحملان متاعي « ستكون مرتاحاً هناك » .

وبالطبع كانت الغرفة افضل من السجن الحقيقي ، حتى ولو كانت تختلف عن النوع الذي نعهده نحن في مكاتب ضباط الشرطة في بلادنا . وضم اثاث الغرفة منضدة متداعية للكتابة ، ودكة خشبية ، ومقعداً من الخيزران كثير الاهتزاز ، واريكة تمزق غطاؤها ، وأمامها منضدة صغيرة ، والى جانبها خزانة . واعتقدت أن هذه الخزانة تستخدم لحفظ الوثائق ، ولكن سرعان ما اكتشفت بعد البحث الدقيق ، أن جميع سجلات الشرطة التي لا تعدو مجرد لفافات من الورق ملقاة تحت الخزانة ، وأن الفيران قد قضمت بعضها . وكانت هذه الطريقة صالحة على الاقل ، للتثبت من أن الوثائق لن تتراكم . وسرعان ما اخذت حريتي في هذا المكتب المليء بالحطام ، ونصبت سريري السفري فيه .

ولم يكن في وسعي أن اشكو من الملل في هذا الطراز الغريب من السجن . فقد كنت اقضي النهار بطوله ، استمع الى أشياء جديدة وأراها . فالناس يتدفقون إلى المكتب دون انقطاع ، للتقدم بشكاواهم أو لطلب النصائح . وكان الحنش يصغي الى الخطب الطويلة والمتدفقة بالعاطفة والحماس ، بصبر لا ينفد ، ثم يعلن بعد ذلك قراره ، أو يقدم المعلومات التي يريدونها بكلمات مقتضبة . ومن المشكوك فيه ان تكون جميع القضايا التي تعرض عليه ، تحل وتسوى بطريقة صحيحة وطبقاً للانظمة . وكثيراً ما خيل إلي أن فصله في القضايا ، لم يكن صحيحاً . لكن هذه الطريقة في الاتصال بين الجمهور والرسميين تضم الكثير من المزايا والفوائد . فأفراد الشعب لا يرغمون على الاقل كما هي الحالة حتى في معظم البلاد الاوروبية المتحضرة

على الانتظار مدات طويلة لا يعلم إلا الله مداها ، في غرف الانتظار الخارجية ليطلب اليهم الانصراف بعد ذلك . دون أن يقضوا أمورهم ، وليعودوا في الايام التالية ، وعلى تعبئة ما لا عد له ولا حصر من الاوراق ، تطبيقاً لمئات [illegible] والتعليمات ، أما هنا ففي وسع كل انسان ان يمضي فوراً إلى غرفة رئيس السلطة التنفيذية وأن يشرح شكواه ، ويعبر عن رغباته . وإذا كان لا يجد أحياناً الحل الصحيح لمشكلته ، أو يجد بعض الحل ، فانه على كل حال ، يحس بالراحة الغامرة ، من جراء العثور على ممثل للسلطة يستمع إلى شكواه ، ويهتم بها مثل اهتمامه هو [illegible] ويصغي إلى كل تفصيل دقيق من تفاصيلها . ولا ريب في أن كل من يعرف الناس خير معرفة ، والشرقيون خبراء في معرفة الرجال ، يدرك ان مجرد انطلاق المرء في التنفيس عما يشكو منه ، ينزع من مرارة الألم ، ما فيها من حدة لاذعة ، ويهدىء من العواطف المشبوهة . وسنرى فيما بعد ، أن الامام نفسه ، وهو رأس الدولة الاعلى ، يتبع نفس الاسلوب مع افراد شعبه . إنه اسلوب نفسي مبتكر ، غاية في الذكاء ، قائم على العادات العريقة في القدم ، لتلطيف جو الطغيان الآسيوي في الحكم ، الذي ما زال متبعاً في كثير من البلاد الشرقية .

وفي الساعات المتأخرة من بعد الظهيرة ، عندما ينتهي العمل الرسمي ، وتدنو ساعة تعاطي القات الذي لا غنى عنه ، يكتظ مكتب الضابط ، بالأصدقاء والمعارف ، من ضباط وتجار ، بحيث لا يبقى ثمة مجال لجلوس انسان آخر . ويجلس الجميع يلوكون القات معاً ، ويبحثون شؤون الساعة ، وأخبار اليوم التي تنتقل من مكان إلى آخر بهذه الطريقة ، بالنظر إلى عدم وجود الصحف .

ومن الطبيعي أن ينتشر نبأ وصولي بسرعة في المدينة ، كما راجت شائعات عدة تتعلق بشخصي وبأسباب هذه الرحلة الخفية التي قمت بها . وكانت جماهير غفيرة من الناس تتحلق يوماً بعد يوم ، أمام دائرة الشرطة ويتطلع الجميع بصبر وأناة إلى النوافذ لعلهم يلمحون هذه الأعجوبة التي هبطت من السماء ، فقد كانت هذه هي الفكرة التي حملوها عني . وكم كان بودي أن ارضي فضول هؤلاء المنتظرين ، وأن اظهر امامهم . ولكن رئيس الشرطة كان يمنعني منعاً صارماً من ذلك .

وعلى الرغم من كل ما يبديه الحنش من ود وصداقة ، فقد ظل على شكه فيّ . ولم اعرف السبب في هذا الشك إلا بصورة تدريجية .

وقد حاولت منذ اليوم الاول من وصولي ، الاتصال بالاشخاص الذين عرفتهم إبان زيارتي الاولى لصنعاء ، ليعملوا على التدخل لاطلاق سراحي . وقد نزلت في تلك المرة بأمر من الامام ، في بيت شخص يهودي يدعى « صبيري » ، كضيف يدفع الاجر مقابل ضيافته ، فلم يكن من المسموح فيه في بلد مقدسة كصنعاء ، أن يحل اجنبي غير مسلم في بيت أحد المسلمين ، ولا ادري ما العلة في هذا . وأردت الآن الاتصال بصبيري هذا ، لاستخدامه كوسيط بيني وبين الامام . ولكن رئيس الشرطة ، رفض السماح لي بذلك ، رفضاً قاطعاً . ومضى يقول وهو يشير إلى مكتبه بشيء من الزهو والخيلاء ، « على أي حال ، أنت أحسن حالاً هنا في دار الامام ، منك في بيت اليهودي » . وأرى لزاماً علي أن أوضح أن الشعب اليماني يحتقر اليهود ، ويعتبرهم أقل منه منزلة . وقد سبق للعالم الفرنسي اليهودي هاليفي ، الذي جال في انحاء اليمن قبل سنوات طويلة ، مرتدياً لباس حاخام جاء من القدس ، أن مر بتجارب من هذا النوع .

وسرعان ما تمكنت من العثور على السبب الذي يحملهم على اعتباري شخصاً خطراً كل الخطورة ، مع انني كنت فرداً مدنياً عادياً لا ضرر منه مطلقاً . ويبدو أن أي انسان لم يصدق أنني رجل الماني . وكثيراً ما طلب إلي الحنش ، المرة تلو المرة ، أن أصدقه القول ، وان أطلعه على حقيقة جنسيتي . وكنت أرد عليه قائلاً ، بأن في وسعهم أن ينتظروا إلى جواز سفري ، الذي أخذ مني ، والذي لم أكن أعرف شيئاً عما حل به منذ اخذوه . ولكنهم كانوا يقابلون قولي هذا بالهزء والسخرية ، وكأنهم يردون القول بأن مثل هذه الوثائق لا تكون صادقة دائماً . ووصلت اخيراً إلى جذور القضية . وادركت من بعض التلميحات ، انهم يحسبونني عميلاً بريطانياً جاء للتجسس ، وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة اليهم . فقد كانوا يعيشون في الظاهر ، في قلق دائم من جيرانهم الاقوياء في الجنوب ، وكانوا ينسبون اليهم الكثير من الخطط الجريئة . والنوايا السيئة . ومهما كانت حقيقتي ، فقد كانت ثمة بعض المظاهر ، في

عيون السلطة اليمانية . التي تدعو الى الشك . إذ تعذر عليها ان تصدق ، بأن رجلا يحمل على عاتقه كل هذه المخاطر والمتاعب ثم يعبر الصحراء ، من أكثر الدروب مشقة وعناء ، ليتسلل بصورة سرية الى هذا الجزء الثاني من بلادهم بدافع التعطش إلى المعرفة ، أو الرغبة المجردة في المغامرة . وكانوا واثقين من وجود غرض خفي ولا شك وراء هذه الرحلة .

وبدا لي في غضون ذلك ان الاوامر قد صدرت الى رئيس الشرطة للتثبت من هويتي ، وباح لي ذات يوم ، بأن هناك اجنبيين في المدينة هما من أصل الماني والسلطات لا تشك في هويتهما . وهو يريد أن يأخذني اليهما . وقد أفرحني هذا النبأ ، كما ادهشني ، إذ كنت حتى ذلك اليوم منعزلاً تمام العزلة عن العالم الخارجي .

وخرجنا في الصباح التالي . وفي رفقتنا جنديان يتوليان حراستي بالاضافة الى رئيس الشرطة . ولم نمر بالطريق المباشر عبر المدينة ، إذ رغبوا في الحيلولة بيني وبين الاتصال بالسكان على قدر الامكان . ولا ادري والله تماماً لماذا اتخذوا جميع هذه الاحتياطات معي . وخرجنا من باب اليمن الذي كان مجاوراً للسجن ، ثم درنا دورة طويلة حول اسوار المدينة . وعدنا ندخل من باب شعوب ، ثم مررنا بقصر الامام إلى الساحة الكبيرة المكشوفة التي تفصل بين الجزء العربي من المدينة وبين الحي اليهودي . وكان بيت الألمانيين في ذلك الحي ، وهو بناء ابيض جميل ، يقوم وسط حديقة جميلة . وكان هذا البيت لولي العهد السابق الامير سيف الاسلام محمد ، الذي توفي قبل عام واحد . فلقد كان الامير آنذاك في الحديدة حاكماً على تهامة ، وغرق في البحر الاحمر ، في احد ايام الاعياد عندما كان يحاول انقاذ أحد اصدقائه من الغرق .

وكان الهر ديتريش ، أحد الالمانيين ، من معارفي السابقين ، فهو يمثل شركة تجارية في همبورغ ، وكنت قد تعرفت عليه في جدة عندما كان ممثلاً لشركة فيها ، اثناء زيارة سابقة للحجاز . ونزلت في ضيافته الكريمة . وكان الهر هانسن صاحب الشركة في همبورغ ، قد وصل مؤخراً الى صنعاء في زيارة خاطفة ، وأود أن اغتنم هذه المناسبة لأتقدم اليه بالشكر الجزيل والعرفان الوافر الجميل . فلقد عمل كل ما

بي ومعه لمساعدتي . ولقد ذهلا بالطبع عند رؤيتي ، إذ لم يكونا يتصوران أن يريا مواطناً لهما على هذا النحو المباغت في قلب اليمن .

وكانت غرف البيت الواسعة الجميلة مزخرفة تمام الزخرفة وقد فرشت أرضها بسط الجنوب العربي السوداء بالاحمر والابيض والمسماة بالأبسطة « المخيلية » . وكان هذا المزيج البسيط من الالوان الحمراء والبيضاء والسوداء ، مع ما في الاثاث من غرابة ، يوحي بجو شاعري سوداوي ، هو الطابع الغالب على الشرق . وكنت بالطبع ، ارى جاذبية خاصة في هذا الطراز من الزخرفة ، وأنا في وضعي الحالي ، إذ ذكرني ببلادي الاصيلة . وفي الغرفة اريكة جميلة اشبه ما تكون « بالديوان » وعدد من المقاعد ، كما رأيت أسرَّة حقيقية في غرف النوم ، وابصرت بالنظافة في كل مكان ، وهو شيء لم آلفه منذ زمن طويل . حقاً لقد بدا البيت اشبه ما يكون بالفردوس لي . وتناولت لأول مرة منذ عهد طويل طعاماً أوروبياً . ولكن الانهاك ، كان قد لحق بجسدي من جراء متاعب الحياة الفردية في الشهور الاخيرة ، بحيث لم اتناول إلا القليل من الطعام .

ورسمنا مختلف أنواع الخطط بالطبع لضمان اطلاق سراحي . ولم اغب عن ناظري رئيس الشرطة ، طيلة مدة هذه الزيارة الطويلة نسبياً . ولربما كان يخشى أن انسل منه واهرب ، ولكن هروبي كان يتطلب طاقية الاخفاء أو البساط السحري . ولعله فكر بأن في وسع الاوروبيين أن يفعلوا كل شيء ، بما يتقنونه من وسائل سرية . وبالنظر إلى جهله بلغتنا ، فقد اعتقد أننا كنا نعد المؤامرات الشيطانية رغم عينه الساهرة .

وقد أصر المواطنان الكريمان على وجوب مجيئي للعيش معهما . ولكن هذا يتطلب ترخيصاً من الامام . وقد رفض الامام اعطائي هذا الترخيص . ولم يرد على الطلب الذي تقدمت به في هذا الصدد .

واقترحت خطة جديدة . فقد جاء الهرهانسن من الحديدة الى صنعاء بالسيارة ، إذ تم قبل أمد قصير ، افتتاح طريق منتظمة للسيارات تربط العاصمة بالساحل . وكانت هذه الطريق تمتد في السابق في منعطفات واسعة من الحديدة إلى

عباد وزبيد ، ثم تتجه جنوباً إلى ناحية عدن ، حيث تلف لفة واسعة حول قمم جبل حراز السامقة . ولكن الطريق الجديدة التي شعر أهل اليمن بالزهو والفخار من افتتاحها ، لم تعمّر طويلاً كما توقع اليمانيون . فقد اضطر الهر هانسن الى التوقف آماداً طويلة ولم يستطع قطع الطريق بالسيارة في وقت أسرع مما يحتاج إليه الجمل الى قطعها ، إذا مضى خبباً . وكان الهر هانسن يعتزم العودة إلى الحديدة بعد ستة أيام ، وهو يريد أن يحملني معه في سيارته . ولكن جميع الجهود التي بذلها للحصول على ترخيص من الامام قد منيت بالفشل . فقد بدا ان الامام مستاء مني أشد استياء .

ولم يعد ثمة شك في حقيقة جنسيتي بعد هذه الزيارة التي قمت بها في صحبة رئيس الشرطة إلى منزل الألمانيين . ولا ريب في أن السلطات اليمانية قد بدأت تدرك ببطء أنني لا أعمل في خدمة أية دولة اجنبية ، وأنني لا اضمر للبلاد أية نوايا سيئة سوى الرغبة في اطلاع العالم على حقيقة الاوضاع فيها . ولكنني لم أسمع كلمة واحدة عن القرار الذي اتخذ بشأني ولا عن تفكيرهم في تسوية قضيتي .

وبينما كنت أقضي أيامي الرتيبة في أسر الشرطة ، جاهلاً تمام الجهل مصيري ، احتفلت المدينة بعيد من أعيادها الكبيرة .

وكنا نعرف أن الامام الذي يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، كان يبذل جهوداً خاصة لبناء الجانب الزمني من سلطانه ، وكان يعمل على توسيع حدود مملكته . ولهذا السبب ، فقد كانت هناك حالة مستمرة من الحرب في اليمن ، ولا سيما في الوقت الذي كنت أضع فيه هذا الكتاب . أما الآن فقد وقع شيء طارىء شاذ . فإلى الشمال من اليمن تقع منطقتان خصيبتان كل الخصب ، وهما ماهولتان بالسكان ، وهاتان المنطقتان هما الجوف ونجران . وما زالت هاتان المنطقتان حتى هذا التاريخ تعيشان في جو من الغموض والسرية . وكل ما نعرفه عنهما أنهما كانتا مقر الامبراطورية المعينية الاسطورية ، التي عاشت وازدهرت قبل عهد المملكة السبأية . وتشير النقوش التي عثر عليها حتى الآن إلى أن المعينيين كانوا قد اقاموا حضارة قديمة لا تقل في ازدهارها وتطورها عن حضارات مصر في عهد السلالات الاولى من الفراعنة . وانهم كانوا يسيطرون على الجزيرة العربية بكاملها حتى فلسطين ، وعلى

بعض الانحاء في افريقيا الشمالية ايضاً . وكانت كتاباتهم متطورة عن الكتابات السامية القديمة ، ويعتقد أنها انتشرت من هناك الى بقية أنحاء العالم المعروف آنذاك .

وكان النزاع لا يزال قائماً حول هاتين المنطقتين بالنظر إلى عدم وجود حدود ثابتة ، وكان ابن السعود ، الحاكم القوي في الجزيرة العربية يطالب بمقاطعة نجران الوافرة الثراء . وأراد الامام وضع حد لهذا النزاع عن طريق اللجوء إلى الأمر الواقع ، وأعد حملة عسكرية ولّى قيادها ، أحسن قادته العسكريين . وهو الأمير احمد ، الذي غدا ولياً للعهد بعد وفاة شقيقه الاكبر[1] .

وكانت الانباء قد وصلت من الامير احمد تقول انه أحرز نصراً عظيماً ، وانه احتل جميع نجران . وفي وسع المرء أن يتصور ما أحس به الامام من فرح غامر ، إذ تمكن من تحقيق حلمه ، قبل أن يحس به خصمه وجاره القوي في الشمال . ورأى الامام ، زهواً منه بما حققه ولده ذو القلب الذي يشبه قلب الاسد ، وجيشه الباسل . أن تحتفل البلاد كلها بهذا النصر ، وان يقام عيد خاص بهذه المناسبة السعيدة في طول البلاد وعرضها . وتبيّن فيما بعد ان احتلال « نجران كلها » لم يكن اكثر من مجرد انتصار ثانوي جزئي على عدد من قبائل البدو ، ولكن لم يسمح له بمعرفة هذه الحقيقة أبداً .

على أي حال، اكتظت شوارع صنعاء ، بالمحتفلين بالنصر العظيم ، وكان الامام مريضاً ، فلم يستطع الاشتراك مع رعاياه في افراحهم ، ولا حضور العرض العسكري والاحتفالات الاخرى . وكان بوسعي أن اسمع من نافذة سجني هدير المدافع الداوية ودوي الرصاص . فهذه الموسيقى العسكرية ، جزء حيوي في جميع احتفالات العرب الاصلية . وقد اطلق كل جندي في صنعاء في ذلك اليوم عيارين ناريين . وكان على الجنود أن يدفعوا ثمن هذه العيارات من رواتبهم الضئيلة ، إذ عرف عن الامام اغراقه في التوفير حتى يصل حدود البخل والشح ، ولكن هذا لم يؤثر

---

[1] الامير احمد . هو الإمام احمد اليوم الذي تولى الملك بعد اغتيال والده

(المعرب)

مطلقاً على ما رافق الاحتفالات من حماس . ومضى الجنود في الشوارع في جماعات صغيرة ، يرقصون رقصاتهم التقليدية ، وينشدون اغانيهم الحربية القديمة . وقد انشد الجميع نشيد اليمن القومي . ويعتقد أهل اليمن أن مجرد انشاد هذا النشيد الذي يسمى « الزامل » كان يبث الفزع في قلوب الاعداء ويرغمهم على الفرار .

وتؤلف الموسيقى مظهراً مهماً من المظاهر الحضارية للشعوب الشرقية ، وتعتمد على التقاليد القديمة ، التي تختفي آثارها في ضباب التاريخ . وسأحاول أن اتحدث هنا بعض الشيء عن الموسيقى اليمانية ، التي يجهل العالم عنها كل شيء .

وتختلف موسيقى الجنود اليمانيين عن الموسيقى العربية المألوفة ، وعن اغاني البدو العادية . ولموسيقاهم التي اجتذبت وأفرحت الكثيرين من الذين يجهلون الموسيقى الشرقية ، بعض المميزات الخاصة ، ففيها تنوع في اللحن ، وانتقال في الدرجات الموسيقية .

وقد تمكنت من أن احمل معي اكثر من مائة تسجيل لموسيقى الجنوب العربي ، وهكذا توافرت للغرب للمرة الأولى نماذج من هذه الموسيقى التي نقلت من المنطقة نفسها . وقد وضعت ادارة الوثائق الموسيقية في برلين جهازاً خاصاً للتسجيل تحت تصرفي .

وما كنت لأظن قط أن مثل هذه الفروق يمكن أن توجد بين مختلف أنواع الموسيقى في الجنوب العربي . وينشأ هذا التباين من تعدد قبائل البدو ، ومن تنوع الطبيعة الجغرافية في البلاد . وتختلف موسيقى المدن هنا بعض الاختلاف عن الموسيقى المألوفة في مدن الشرق العربي المختلفة . ولكن أكثر ما يهمنا منها ، مجموعة معينة ، هي الموسيقى العسكرية الاصلية ، كما توجد في منطقة صنعاء وجبل حراز ، وهما المنطقتان اللتان تزودان جيش الامام بالعنصر الغالب فيه ، وأغاني البدو عند قبيلتي بني اسماعيل وبني مطر ، وهي اغان تمكنت من تسجيل نماذج منها في كل من مناخة ، ومتنه ووصيل .

ومن الغريب أن ثمة تشابهاً كبيراً ، بين الالحان في اغاني الجنوب العربي وبين

الموسيقى البربرية التي تمكن لخمان[1] من تسجيلها لدى قبائل افريقيا الشمالية والتي بحث فيها كل من الاستاذ فون هورن بوستل[2] وروبرت لخمان ، بحيث أصبح في امكاننا ان نجد علاقة بين أهل الجنوب العربي وبين البربر . فالخصائص التي تحدثت عنها والموجودة في موسيقى جنود اليمن ، توجد أيضاً في الموسيقى البربرية . ولكن العامل الحاسم الذي يثبت وجود علاقة بين موسيقى الفريقين ، يقوم في الطريقة التي تنشد فيها الاغاني ، وهو عامل يزداد قوة بفضل فردية اللحن الموسيقي ، والتشابه في الالحان كلها ، وهو تشابه بارز كل البروز دائماً .

ونحن لا نعرف بالضبط . الأصل الذي ينتمي اليه البربر ، ولكننا نعرف أن قبائل البربر تعيش منذ عهد بعيد في شمال افريقيا ، ولا سيما في المناطق الجبلية من أعالي الاطلس . وللبربر لغتهم الخاصة بهم ، وقد اختلطت هذه اللغة عبر الاجيال والقرون بالعربية ، بفضل الهجرات العربية المتكررة ، ولكن هناك لغة بربرية اصلية يتحدث بها بعض أهل الجنوب المنعزل ، كأهل واحة سيوه مثلاً .

ولكن الموسيقى الدليل الوحيد على وجود علاقة بين قبائل البربر وبين أهل الجنوب العربي . فمن الحقائق البارزة أن هناك ابنية مرتفعة تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي ، موجودة في قلب الحضارة البربرية في أعالي الاطلس ، وتحمل نفس المظاهر المعمارية ، كالنتوءات ، والانابيب الخشبية لنقل مياه الامطار والكوّات والثقوب .

وقد أثار هذا التشابه الكامل بين موسيقى الشعبين وفنهم المعماري . عدداً من الاسئلة ، حول ما اذا كانت موسيقى البربر وأهل اليمن ذات علاقة بموسيقى شعوب اخرى . وقد اكد الاستاذ فون هورن بوستل ، وجود تشابه بين هذه الموسيقى ، مع الموسيقى المنغولية .

---

[1] كارل ولهلم لخمان (١٧٩٣ - ١٨٥١) . عالم الماني في أصول اللغات . درس في لايبزيغ . وأصبح استاذاً في جامعة برلين ، أصدر عدداً من الكتب عن أصول اللغات وفقهها .

[2] اريك فون هورن بوستل (١٨٧٧ - ١٩٣٥) . من علماء الموسيقى في النمسا . ولد في فيينا . ودرس الفيزياء والفلسفة في جامعتها وفي جامعة هايدلبرج ، وأصبح مديراً لمؤسسة الوثائق الموسيقية في فيينا ، وسجل الكثير من اغاني الشعوب غير المتحضرة .

(المعرب)

فـدرجات الالحـان الخمس ، الموجـودة عامـة في شرق آسيـا تشبه إلى حد ما الالحان البربرية ، والخصائص التي ذكرتها قبل قليل والمتعلقة بنشيـد « الزامـل » اشار اليها فان اورت في كتـابه « الموسيقى المنغوليـة » ، واعتبرهـا من خصائص المغول . ويشرح هورن بوستل على الصعيد التاريخي الحضاري ، انتـماء البربـر وأهل الجنوب العـربي إلى أصل واحـد ينتسب إلى آسيـا الشـرقيـة فقـال : « انتقلت نفس التعابير الموسيقية من عصور ما قبل التاريخ من اواسط آسيا إلى الشرق بواسطة المغول ، وإلى الغـرب بواسـطة شعوب أخـرى نطلق عليهـا الآن اسم البربـر والعرب الجنوبيين ، وذلك إلى الأماكن التي يعيشون فيها الآن » .

وقد تصبح هذه النظرية أكثر قبولاً ، إذا تأكدت بملاحظات أخرى ولا سيما في حقول ثانية غير حقل الموسيقى . وستكون مهمة علم الاجيال ، أن يقرر ما إذا كانت هناك أوجه شبه أخرى اولاً ، تسـير جنباً إلى جنب مـع الموسيقى مثـلاً ، وبينها وفـرة عدد الابنية الطويلة في المناطق التي تمتد من جبال الاطلس الجنوبية عبر شمال افريقيا وواحـة سيوة الى الجنـوب العربي وآسيـا حتى التيبت ، بالاضـافـة إلى المـدن والقـرى المحصنة في هذه المناطق ايضاً . لكن التشابه الواضح في الاساليب الموسيقيـة يجب ان يكون حافزاً للبحث عن اوجه شبه اخرى في المظاهر الحضارية الثانية الاقل وضوحاً . وان يؤدي ذلـك إلى حل مشكلة أصـل البربـر . وانذاك فـان الشبـه بـين الاسـاليب الموسيقية وغيرها من المظاهر الموسيقية الاخرى ، كالدرجة الصـوتية ، والآلات ، قـد يكون عاملاً مساعداً ذا قيمة في البحث الحضاري ـ التاريخي .

واتقدت المدينة ليلة الاحتفال بالنصر ، فاصبحت بحـراً مشعاً بـالضوء ، فقـد اشعل الناس النيران في كل مكان . على الاسـوار والقلاع والذرى . بمشاعل أشبعوها بـالـزيت والكـاز . وارتفعت صفـوف فـوق صفـوف من السنـة اللهيب الصفـراء الراقصة ، سائرة مـع الخطوط الافقيـة للابنيـة . صاعـدة مع الجبـل ، ومع سـلاسل الشـرفات . إلى ان بلغت حـدود النجوم . وجلسـت هـادئاً وحيـداً إلى نافـذة المكتب المهجـور . وعـادت بي الـذكـريـات إلى الايـام الاولى التي قضيتهـا في هـذه المـدينـة المعـروفة . عنـدما تمكنت من التعـرف على الكثـير من الامور ، والمـرور بالعـديد من

تجارب كضيف كريم على الامام . وأود أن أقول بعض الشيء عن هذه الاقامة
الأولى التي قضيتها في صنعاء قبل نحو عام .

- ١٠ -

الإمَــام يحْــيَ

يصحب الـدخول إلى هـذه البلاد المغلقـة ، عدد من المتـاعب ، حتى ولو كـان الدخول من الطرق الرسمية . التي اتبعتها في رحلتي السابقة إلى اليمن ، ويعتمد على الحظ ، أو إذا شئنا الدقة في التعبير ، على نزوات الحاكم .

وقـد مـررت بكثـير من التجـارب التي مـر بهـا من سبقـوني من الرحـالة والمستكشفين ، إذ اضطررت للعودة دون أن أحقق شيئاً ، عنـدما قـرعت باب اليمن الكبير في ميناء الحديدة التي وصلتها في رحلتي السابقة بالباخرة قادماً من بور سعيد . ولم يكن عامل المدينة (حاكمها) ، راغباً في البداية ، في السماح لي بدخول المدينة على الإطلاق ، وعندمـا عرضت عليـه رسائـل التوصيـة التي أحملها من بعض أصحاب النفوذ في اليمن ، من المقيمين في العربية السعودية أو في مصر ، آمن الـرجل ، بأنني شخص له قيمته ، ووعد بإرسال الرسائل إلى العاصمة . ولم يكن النزول في الحديدة يعني الكثير من الكسب ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخل إلى البلاد ، إلا إذا سمح له الإمـام بذلـك ، وكان الإمـام يرفض السمـاح في معظم الحـالات . وهذا التحديد الدقيق ليس مقتصراً على الأجانب ، وإنما يتعرض له أهل البلاد أيضاً . فلا يستطيع أي مواطن من أبناء البلاد الوفـود إلى العاصمـة أو الخروج منهـا ، إلا إذا كان يحمل جواز مرور من الإمام نفسـه ، وينطبق هذا القول على السفر إلى داخل البـلاد أيضاً . والسفر إلى الخارج محظور على أهل اليمن حظراً باتاً . ويريد الإمام الإطلاع على كل كبيرة وصغيرة من شؤون بـلاده ، ويتوخى أن لا تخفى عليـه خافيـة ، حتى ولو كان أمراً تافهـاً للغاية . وليس هذا الأمـر بناجم عن شهـوة عارمـة في الاستبداد والتسلط

فقط ، كما يزعم بعض السائحين الأوروبيين في تسرعهم في الحكم على الأمور ، إذ على المرء أن يذكر أن مملكة اليمن ، حديثة في عهدها وإنشائها ، وان الأمر لم يستقر في داخلها استقراراً تاماً . وان الأخطار تهددها من كل ناحية .

وكان السعد إلى جانبي تلك المرة . فبعد فترة طويلة من الانتظار الممل وصل اذن الإمام لي بالسفر إلى صنعاء . وكان علي أن أؤمن البغال اللازمة لرحلة الأيام الثمانية من الحديدة إلى العاصمة ، مع سائقيها . وزودني العامل بجنديين للحراسة ، وكان القصد منهما مراقبتي لا حمايتي . وقد جرت العادة في البلاد على أن يسافر جميع الأجانب إلى صنعاء بأقصر الطرق وأسرعها لتقديم فروض الاحترام للإمام أولاً ، ومن ثم البحث معه في أية مشاريع أو خطط يحملونها . وكانت مهمة حراستي من الجنود أن يعنوا عناية خاصة بعدم السماح لي بالتوقف دون أي ضرورة ، في طريقي ، أو الحيد عن الطريق المحددة لي ، سعياً وراء البحث والمعرفة .

وحللت عند وصولي إلى صنعاء ، ضيفاً على الإمام في بيت صويبري اليهودي على أن أدفع له نفقات إقامتي . ولا يحل في دار الضيافة الرسمية كضيوف على حساب الحكومة إلا نفر قليل من كبار الضيوف وذوي الأهمية فيهم . وعهد إلى عدد من الجنود بحراستي فمن القواعد المعروفة المقررة ، أن يظل الغريب قابعاً ضمن البيت الذي يأويه ، وأن لا يسمح له بمغادرة جدرانه الأربعة ، والظهور في الشوارع ، إلا إذا دعاه الإمام لمقابلته . ويستغرق مثل هذا العمل عدة أيام ، وكثيراً ما حدث في الماضي ان اضطر سفراء بعض الدول الأجنبية الذين يحملون رسائل شفوية إلى الإمام إلى الأنتظار أكثر من اسبوعين في حياة العزلة هذه ، على أمل أن تكسر شوكتهم ، وأن يذل كبرياؤهم .

وقد استطعت على أي حال ، إبان فترة الانتظار هذه ، أن ألقي نظرة على الإمام من نافذة الغرفة التي خصصت لي ، وهو في طريقه إلى المسجد ، لأداء صلاة الجمعة . وكان في هذه المناسبات يستقل عربة مكشوفة قديمة الطراز تجرها جياد أربعة عبر شوارع المدينة ، وقد أحاط به من جميع الجوانب رجال الحرس الملكي من فرسان ومشاة . وكان الشعب يحييه فيرد التحية بوضع راحة يده على عمامته . وعندما

اقتربت من النافذة لمراقبة الموكب ، اقترب مني أحد جنود الحرس واخذ يتطلع ليرى إذا كنت أحمل جهاز تصوير في يدي . فمن المحظور أشد الحظر ، التقاط صورة للإمام ، وهو لا يسمح بذلك مطلقاً . ولعل امام اليمن ، هو الوحيد بين زملائه من ملوك العرب وسلاطينهم ، الذي لا تظهر صورته كثيراً في الصحف ، على الرغم من أن الصحف كثيراً ما تتحدث عنه .

ودعيت بعد أربعة أيام لمقابلة الإمام . ووصلت إلى القصر في الساعة المقررة وهي التاسعة صباحاً . وكانت الباحة الواسعة أمام القصر مكتظة بجماهير الناس . ولعل الكثيرين منهم ، كانوا من الفضوليين الذين يفدون في مثل هذا الوقت دائماً ، علهم يرون شيئاً جديداً ، إذ أن الإمام ، كان يحدد معظم مقابلاته في مثل هذه الساعة من النهار . وكان هناك نفر من الشخصيات العربية البارزة يرتدون اجمل الحلل ، ويمتطون الجياد المطهمة ، كما كان هناك عدد من الضباط يحملون رسائل عاجلة ، ويشقون طريقهم عبر الجماهير الحاشدة في منتهى السرعة . ولكن كان هناك عدد كبير من الناس لا يزالون ينتظرون السماح لهم بالدخول . فلكل فرد من أفراد الرعية الحق في الدخول على الإمام في ساعة معينة من النهار ، حتى ولو كان سائلاً شحاذاً ، أو لم يكن هناك ما يقوله . وهذه العادة قديمة كل القدم ، وترجع في تاريخها إلى أيام الطغاة الأسيويين القدامى ، وهي متبعة في معظم البلاد العربية باستثناء تلك التي اتبعت أساليب الحكم الحديثة .

وللإمام صبر عجيب على الاستماع إلى العديد من العرائض والشكاوى والطلبات التي تقدم إليه شفوياً وبصورة مستفيضة باللغة العربية الغنية بألفاظها . ولا يترك إنسان قصر الإمام ، إلا وقد هدأت نفسه ، إذ أتيح له اسماع شكواه . وكثيراً ما يأتون بالمرضى إلى الامام ، إذ راجت عنه سمعة سحرية في شفاء المرضى . وقد سردت قصص عدة عن الشفاء العجيب الذي يحدث بعد أن يضع الإمام للمريض حجاباً على صدره . ولا ريب في أن الإمام يسمع الكثير أثناء هذه المقابلات عما يدور في مملكته ، وهي أمور ما كان ليقدر له أن يسمع شيئاً عنها ، لو أنه انعزل عن شعبه كما يفعل غيره من الحكام المستبدين .

وألححت في اختراق هذه الحشود الضخمة من البشر ، ثم بدأ الجنود يتناقلونني ويدفعني الواحد منهم إلى الآخر ، وأخيراً ، وصلت إلى أحد أمناء سر الإمام ، وهو الشخص الذي جاءني يحمل الدعوة لمقابلة الإمام . وكان هذا الرجل ، يتمتع بحظوة كبيرة في ذلك الوقت عند سيده ، وقد جمع ثروة طائلة من تجارة الملابس التي كان يزاولها ، بالإضافة إلى منصبه الرسمي ، ومن وسائل أخرى . وعندما يظهر هذا الرجل في الشوارع ، يكون مرتدياً أفخر الحلل ، ومستقلاً جواداً عربياً أصيلاً . ولكن مثل هذا المجد لا يدوم في العادة طويلاً ، وينقضي بعد فترة معينة . إذ تنقض صاعقة من النحس من السماء الزرقاء ، فتصيب هذا الإنسان المحظوظ ، الذي يتطلع إلى أمجاد أخرى ، وكثيراً ما رافقت هذا الهبوط الفجائي ، عملية مصادرة الأموال والثروة لصالح بيت المال .

ومضى بي الرجل ، عبر الباحة الداخلية إلى غرفة الانتظار ، حيث تحتم علي أن انتظر بعض الوقت ، ثم عبرت سلسلة متلاحقة من الأروقة إلى غرفة الإمام . وعندما مررت بجميع هذه الغرف ، أدهشني ما رأيته فيها من ندرة في الأثاث وفي الترف ، في بلاط حاكم ، يعتبر ثاني ملوك العرب المستقلين شأناً وأهمية . ولم أجد على النوافذ أية ستائر ، أو مظاهر ترف ، ويبدو أن الإمام لا يهتم بالظواهر الخارجية . وفي وسع الإنسان أن يتأكد من أن الجو الذي يحط به يقتصر على الاهتمام بالأمور السياسية . أما القصر ، فقد بناه الأتراك العثمانيون في البداية على أن يكون مستشفى ، ثم غدا مقراً للوالي التركي .

وكانت غرفة المقابلات مؤثثة تأثيثاً بسيطاً ، لا يكاد الإنسان يتصوره . فهناك بضع أرائك ، وبعض البسط العادية على الأرض ، وليس فيها إلا مكتب صغير ، يجلس الإمام وراءه على مجموعة من الوسائد . وقد علّق فوق رأسه السيف المصنوع من الفضة الذي يرمز إلى سلطانه . وكان مظهر الإمام في هذه الغرفة العارية ، مؤثراً كل التأثير . فلقد كان في ذلك الحين في أوج قواه على الرغم من السبعة والسبعين عاماً التي عاشها في حياة ملأى بالنشاط ، حاشدة بالجهد . واسترسلت لحية بيضاء طويلة ، وقد امتلأ وجهه بالتجعدات على الرغم مما يوحي به من شخصية طاغية ،

أما فمه الذي تحيط به شفتان بارزتان ، فكثير الحركة والابتسام عندما يتكلم ، وفي وسع الإنسان أن يرى فيه على أي حال ، بعض مظاهر الصلابة والقسوة . وكانت عيناه الشديدتا السواد تحيطان بأنف عريض ، وتوجهات متفرسة إلى من يجلس أمامه وكثيراً ما اتقدت العينان بضراوة ، مما يشير إلى هياج نفسي وكان تصرفه رسمياً دائماً ، وكثير التحفظ . وإذا ما استثنينا بعض التفاصيل التافهة ، فإن ملابسه لم تكن تختلف في شيء عن ملابس رعاياه . فهو يرتدي العباءة المألوفة ، والقفطان المخطط والذي لا يحمل طابع الجدة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، تشير إلى السيادة والانتماء الى بيت النبوة ، وقد امتدت منها ذؤابتان إلى ما وراء أذنه اليسرى ، إشارة إلى اماميته .

ورحب بي الملك الإمام قائلاً : « مرحباً ، أهلاً وسهلاً » ، ثم دعاني إلى الجلوس بايماءة من يده . ولا يقوم الملك من مكانه بحضور الأجانب حتى ولو كانوا من ذوي الرتب العالية . ولا يجوز للإمام ، أن ينهض احتراماً ، لأي رجل ، ولا سيما إذا كان غير مؤمن .

وقد جرت عادة الضيوف الأجانب الذي يزورون الإمام ، أن يتلوا في حضرته قصيدة نظموها ، أو عهدوا إلى غيرهم بنظمها . ومن سوء طالعي أنني لم اجر على هذه العادة ، والشعر عند العرب ، يؤدي نفس الدور الذي تؤديه الموسيقى في أوروبا . فهو حتماً من الفنون الشعبية . وكل ما يخرج على المألوف يجد تعبيراً له في الشعر الذي يتلى في ألفاظ مفخمة ، مهما كان الدافع أو المناسبة ، وسواء أكان حادثاً معيناً ، أو حالة عاطفية خاصة تولدت أثناء السير عبر الصحراء ، أو عند دخول السلطان إلى مدينة . وكان الحديث بالشعر معروفاً عند العرب منذ عهد الجاهلية ، وما زال حتى يومنا هذا . والقدرة على نظم الشعر ، جزء من التعليم العربي ، تماماً ، كما تكون السيطرة على الكتابة النثرية الرفيعة جزءاً من الثقافة الأوروبية العالية . ويعلق العرب اهمية كبرى على الأسلوب الشعري . وهم يكرهون النشاز والكسر في الأوزان . ولا ريب في أن اتساع اللغة العربية التي وصفها أحد أدبائهم ، بأنها بحر واسع لا نهاية له ، يساعد كثيراً على تطوير الفن وانتشاره ، منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا . ولعل العرب هم أكثر الشعوب فناً في استخدام اللغة . والإمام نفسه من خيرة

الشعراء ، ومن أقدر الناس على تمييز الشعر الصحيح . ويقال انه أكثر تأثراً بالشعر الرائع الصحيح ، إذا ما تلي طلباً لغاية أو تحقيقاً لرغبة ، منه بعشرات الحجج المنطقية .

وكنت قد استندت في طلبي السماح لي بدخول اليمن ، على رغبتي في دراسة موسيقى البلاد . ولكن الملك لم يشر إلى هذا الموضوع أثناء المقابلة . ولكنه بعث إلي فيما بعد بنجله الأمير سيف الإسلام محمد ، ليحصل مني على معلومات وافية ومستفيضة ، عن تسجيلاتي الموسيقية ، والآلة التي أسجل بها . وسألني الإمام آنذاك فقط ، عن المدة التي أفكر في قضائها في صنعاء ، فاذن الاقامة ، يكون دائماً محدوداً بمدة معينة . ولما كنت قد رأيت السلطان في حالة نفسية طيبة ، فقد رجوته فوراً السماح لي بالتجول داخل اليمن . ولكن الإمام رفض ذلك رفضاً جازماً ، وذكر لي أن أحوال الأمن في البلاد مضطربة ، وأنه لا يستطيع أن يحمل على مسؤوليته سلامتي إذا ما قمت بمثل هذه الجولة . وهكذا تحتم علي أن أرضى بالبقاء في صنعاء . ولكن تولدت لدي آنذاك الرغبة في زيارة الأرض المحرمة ، ودون اذن من الإمام إذا اقتضى الأمر .

وأتيحت لي الفرصة أثناء المقابلة ، لملاحظة نشاط الامام الرسمي . إذ كان سيل الرسل ، لا ينقطع عن الدخول ، وقد حمل كل منهم ورقة في يده يسلمها إليه ، وكان الإمام يقرأ الورقة ، ويكتب عليها فوراً قراره بحبر أحمر ، في عدة أسطر في ذيلها . ولا ريب في أن بساطة هذا العمل تستحق الثناء . فالإمام لا يحتاج إلى قراءة ملفات ضخمة ، تمر عبر دوائر رسمية متعددة . وكثيراً ما عالج الحالات الأولية بصورة شفوية . وهذه تتم عادة بتوجيه عدد ضئيل من الأسئلة التي ينال الرد عليها فوراً . ويستطيع الإمام بهذه الطريقة ممارسة السلطة الديكتاتورية في دولته إلى حد بعيد .

وعلى الرغم من الواقعية التي يدير فيها الإمام شؤون الحكم في بلاده . فإن سلطة الإمام يحيى حميد الدين ، مستمدة من مفاهيم خفية محدودة . ومن الصعب علينا نحن ، أن نكيف أنفسنا لهذا الطراز الشرقي من التفكير على الرغم من أن

صلتنا اليوم به أكثر وثوقاً مما كانت عليه في القرن التاسع عشر ، وعلى الرغم من ان المذهب العقلي يتحكم بهذه العلاقة .

ويعني لقب الإمام أن حامله ، يمت في نسبه مباشرة إلى الرسول ، عن طريق حفيده الحسين وابنته فاطمة الزهراء . وهكذا فإن منصب الإمام يعتمد على رابطة الدم السرية . ولكنه يعني أيضاً شيئاً أكثر مما نفهمه بصورة عامة . فالوجود ، المتمثل في شخص رسول الله ، ينتقل بالدم إلى آله وذريته . وهكذا فإن حلول هذا الوجود يظهر في آل الرسول ، طبقاً لمفاهيم الحلول القديمة عند الأسيويين . ويرتبط هذا الانتقال بالطبع ، بعدد من الافتراضات . « وكان يشترط في المنتسب لآل البيت ، أن يتميز بخمس عشرة خصلة مميزة ، لكي يستطيع الوصول إلى مرتبة الإمامة . واهم هذه الشروط ، أن يبرهن على انه إنسان عادي ، وأنه مناضل في الدفاع عن العقيدة . وأن روح الرسول قد حلّت فيه »فكلمة الإمام تعني في العربية القدوة الصالحة التي يجب أن يتبعها الجميع . كما كان الرسول نفسه تماماً . وعقيدة الإمامة ، والحلول ، موجودة فقط عند الشيعة الذين يقيمون في الأطراف الشرقية من العالم الإسلامي ، وهي الأطراف القريبة من طريقة الفكر الأسيوي . ومن المعروف أن تصدعاً وقع بين السنة والشيعة في الأيام الأولى . والفرق بين الشيعة والسنة ، أن الأولين لا يعترفون ببعض خلفاء السنة ويعتبرون أن علي بن أبي طالب ، ابن عم الرسول ، والذي قتل هو صاحب الحق الأول في الخلافة . ويرى الشيعة أن علياً هو الإمام الأول ، وأن إمامته انتقلت إلى ولديه الحسن والحسين ، وإلى ذريتهما من بعدهما .

وقد توقفت السلسلة عند الإمام الثاني عشر محمد المهدي ابن الحسن ، الذي قتله الخليفة العباسي . وتقول رواية الشيعة الإيرانيين ، انه ارتقى إلى السماء ، وانه القائم المنتظر ، الذي سيعود إلى الدنيا عندما يشاء الله لتحرير العالم من الخطيئة وإنقاذه من الكفر . ولا تختلف هذه الفكرة عن فكرة المسيح عند النصارى واليهود ، وهي من العقائد الشرقية القديمة .

ويود الكثيرون من الشيعة ، أن يروا اماماً حياً يقتدون به ويسيرون على

ولذا فقد ظهرت طوائف من الشيعة تؤمن بأن في وسع اي من آل البيت يجمع فيه خصائص الإمامة ، أن يصبح إماماً ، وغدا للكثير من هذه الطوائف أتباعها والمؤمنون بها .

وهذا ما وقع في الجنوب العربي تماماً . ففي القرن العاشر جاء إليه قادماً من العراق السيد يحيى ابن الحسين القاسم الراسي ، وسرعان ما اعترف بإمامته بعد بضع سنوات . ولم يقم الإمام يحيى بإنشاء شيعة خاصة به ، كما يقول البعض خطأ ، بل أقام طائفة خاصة ضمن الشيعة يطلق عليها إسم الزيود ، الذين لم يكونوا يختلفون عن الآخرين من الشيعة في شيء سوى أنهم يرون في الإمام يحيى أو أي من ذريته ، الرئيس الروحي ، والممثل الشرعي للرسول . ولكن اتباع الإمام لم ينتشروا إلا في جبال اليمن ، أما المنطقة الساحلية فقد ظلت على سنيتها . وإذا ما استثنينا إمامة عمان ، فإن إمامة الجنوب العربي ، هي الإمامة الوحيدة الباقية حتى يومنا هذا . وينتمي الإمام الحالي إلى الإمام يحيى الراسي ، وبهذا تكون الأسرة المالكة في اليمن ، أقدم أسرة حاكمة في العالم .

وقد تولى الإمام يحيى الذي أطلق على نفسه لقب الملك أيضاً في عام ١٩٢٦ ، الزعامة في عام ١٩٠٢ . وكان الأتراك العثمانيون يحاولون آنذاك تحويل سيادتهم الأسمية على اليمن إلى واقع . ولكنهم لم يفلحوا قط في ذلك . على الرغم من أن البلاد كانت تعيش في جو من الفوضى المطلقة بعد قرن من الاحتلال التركي . وكان السبب الرئيسي في هذا يقوم في الشروط المقررة للحصول على الإمامة . ويقول البيان الخاص بهذه الشروط والذي يعود في تاريخه إلى القرن الحادي عشر ما نصه :

« تعود الإمامة شرعاً ، وعن طريق الحق ، إلى الرجل الذي ينتمي إلى علي وفاطمة الزهراء والذي يتحلى بالحكمة في القضايا الدينية وبالشجاعة في القتال . على أن يكون بالغاً ذكراً ، سليم العقل والجسم ، ولد ولادة شرعية ، ويتحلى بمواهب تؤهله للحكم ، ويتصف بالعدل والكرم والورع ، وينال الإمامة بحد السيف » .

وأدت هذه الشروط التي ذكرتها إلى وقوع اليمن مسرحاً للمنازعات الدائمة على الإمامة بين أمراء الأسرة العلوية . ولما كانت السلطة العليا عاجزة ، فإن أمراء القبائل

كانوا يعلنون استقلالهم الفردي ، وغدت البلاد في حالة قريبة من التفسخ والانحلال . ولا ريب في أن الأتراك العثمانيين تمكنوا من وضع حدٍ هذه الخلافات الداخلية ووضعوا أسس الوحدة ، التي استطاع الإمام الحالي إقامة حكمه عليها .

وقد بدأ الإمام يحيى حكمه بثورة عامة على السيادة التركية . واستمر القتال بصورة غير حاسمة . مع بعض الانقطاع مدة طويلة لا تقل عن تسع سنوات وعندما شعر المسلمون في عام ١٩١١ ، أن بلادهم بكاملها مهددة من الأجانب من جراء هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب ، قام والي اليمن آنذاك ، عزت باشا ، وهو رجل معروف بذكائه واعتداله ، وقد غدا فيما بعد قائداً عاماً للجيش التركي في الحرب الكونية الأولى ، بعقد معاهدة مع الإمام يحيى ، سارية المفعول لمدة عشرة سنوات ، وكانت هذه المعاهدة حلاً وسطاً . فقد منح الإمام نوعاً معيناً من الاستقلال ، وأتيح له الإشراف على السلطة الروحية والقانونية في بلاده ، بينما ظلت السلطة السياسية والعسكرية في أيدي الأتراك .

وعندما نشبت الحرب الكونية الأولى ، حاولت بريطانيا بكل ما لديها من وسائل ، إقناع الإمام ، بالتخلي عن تركيا والانضمام إلى الثورة العربية . ولكن الإمام صمد للضغط ، وواصل تنفيذ معاهداته مع تركيا التي عقدها في عام ١٩١١ . والتي ما زالت سارية المفعول . ولم يقتصر اليمانيون على الدفاع عن بلادهم ضد الهجمات البريطانية ، بل نقلوا الحرب إلى المناطق الداخلية من محمية عدن . ومن الصعب على المرء أن يحكم على الدوافع التي حملت الإمام على اتخاذ هذا الموقف الخطر ، من الأمبراطورية البريطانية الجبّارة ، ومن المحتمل ، أن يكون الإمام قد رغب في أن لا يكون حاكماً بمشيئة بريطانيا أسوة بغيره من ملوك العرب وأمرائهم . أما ابن السعود ، فكان من الدهاء بحيث استخدم موارد بريطانيا ولا سيما مساعداتها المالية ، لخلق مملكته في قلب الجزيرة العربية ، دون أن يعرض نفسه لسخط أتباعه الوهابيين من جراء تحالفه مع دولة غير مسلمة . أما الوضع في اليمن فكان مختلفاً كل الاختلاف . إذ تمكنت بريطانيا من توسيع محميتها العدنية بصورة دائمة على الساحل العربي ، وضمت مناطق ، كانت في الأصل جزءاً من اليمن . وقد خشي الإمام ، تمام الخشية ، أن تضم بريطانيا ما تبقى من اليمن إلى ممتلكاتها ومحمياتها .

وأرادت بريطانيا معاقبة الإمام على احترامه المعاهدة مع تركيا ، فاستولت على منطقة الحديدة وميناءها . وانتزعتها من اليمن التي كانت قد حصلت على استقلالها بعد تفسخ الامبـرطاورية العثمانية في نهاية الحرب الكونية الأولى . وهكذا فقدت اليمن آخر ما تبقى لها من منافذ على البحر بعد أن كانت قد أضاعت عدن في الماضي . وبدا أن الدولة الفتية ستتعرض لخطر الاختناق . وقام الانكليز بتسليم منطقة الحديدة إلى إمارة عسير المجاورة ، التي كان أميرها ضالعاً معهم . ولكن الإمام تمكن من استعادة منطقة الحديدة الساحلية في عام ١٩٢٥ . دون أن يلقى مقاومة من بريطانيا ، وإن كانت علاقاته معها ، ظلت على حالها من التوتر ، الذي تمثل في عدد من الاشتباكات على الحدود . وفقد السرب البريطاني الذي ارسل إلى اليمن من عدن للإغارة عليها ، ثأراً لغارات اليمانيين على المحمية ـ فقد هذا السرب ما له من هيبة وما احدثه من رعب في السابق ، بعد عددٍ من الغارات . فلقد كان السكان يلجأون عند ظهور الطائرات الضخمة إلى شقوق الصخور للاختباء فيها ، ثم سرعان ما يعودون إلى بناء أكواخ الطين التي تقوم بتدميرها بقنابلها .

ووجد الإمام أخيراً ، حليفاً راغباً في صداقته ، في إيطاليا ، التي كانت مستعمرتها الاريتريا ، تمتد على الشاطىء المقابل لليمن على البحر الأحمر . وتم في عام ١٩٢٦ عقد معاهدة صداقة بين اليمن وإيطاليا ، اعترفت هذه بموجبها باستقلال اليمن ضمن حدودها الراهنة التي لم تكن قد خططت بعد ، ومنحها الإمام مقابل ذلك بعض الامتيازات الاقتصادية والتجارية . وتعهدت إيطاليا أيضاً بتقديم الأسلحة والذخائر بأثمان مخفضة إلى اليمن . وليس في وسع الإنسان أن يخطىء القول ، إذا ما اعتقد أن هذه المعاهدة ، قد عقدت في مثل هذه الظروف بموافقة بريطانيا . لا سيما وأن هذه قد سارعت إلى التفاهم مع اليمن أيضاً .

واسرعت إيطاليا إلى الانتفاع من المزايا التي حصلت عليها في معاهدتها مع اليمن ، وأقبلت على تثبيت أقدامها في هذا البلد الذي اعتبرته ذيلاً لمستعمرتها في اريتريا. ولكنها لم تفلح مطلقاً في جهودها ، بسبب ما كان يحمله الإمام من شكوك ، لها ما يبررها ، في النفوذ الأجنبي في البلاد . وكان يهمه قبل كل شيء الحصول على السلاح . الذي يحتاج إليه أمس حاجة . وبعثت إيطاليا أيضاً بالأطباء والتقنيين

والآلات والطائرات دون مقابل تقريباً ، وذلك لأنها كانت تعرف ما يتصف به الإمام من شح وتقتير . ولكن الأطباء لم يجدوا مجالاً للعمل في البلاد . فغادروها واحداً إثر آخر . وينطبق هذا القول أيضاً على التقنين لا سيما وان البلاد لم تكن مستعدة بعد لتقبل النظام الآلي . ولم تصل معظم الآلات الوافدة إلى العاصمة . وفي وسع الإنسان ان يرى حتى الآن صناديق نصف مفتوحة . تحمل العلامات الإيطالية ، وتضم أجزاء الآلات . ملقاة على جانبي الطريق الممتدة بين الحديدة وصنعاء ، فلقد كانت هذه الأحمال ، أثقل من أن تستطيع القوافل نقلها ، ولذا فقد تركت على الطريق . وكسر البدو هذه الصناديق . فلم يعثروا فيها إلا على قطع للغيار ، وأجزاء آلات لا يستطيعون الإفادة منها مطلقاً .

وقد وصل معظم الطائرات على كل حال إلى العاصمة . وقد استقبل الإمام وصولها بمنتهى الحماس ، إذ أن هذه الاختراعات الحديثة تتعلق بتسليح جيشه . وأوفد شاباً يمانياً إلى مصر ، لتعلم الطيران ، كما أقام مدرسة للطيران في صنعاء . ولكن إرادة الله شاءت أن لا يستمر هذا التجديد في البلاد ، فقد اصطدم طياران المانيان على مقربة من العاصمة ذات يوم ، وكان في إحدى الطائرتين أمير من أمراء الأسرة المالكة لقي حتفه ، وسرعان ما أصدر الإمام أمره بمنع الطيران . وظلت الطائرات الصالحة في حظائرها دون عمل منذ ذلك التاريخ .

ونستطيع الاستدلال من هذا على أن عملية تحويل تلك الدولة الدينية القديمة ، إلى دولة جديدة تصلح للعصر ، لم تكن بسيطة ، كما هي الحالة بالنسبة إلى الدول الشرقية الأخرى ، التي كانت أقدم اتصالاً بأوروبا . فالشروط الأولية اللازمة لمثل هذا التحول ، مفقودة في اليمن ، كما أن الأساس الذي تقوم عليه سلطة الإمام وصلاحياته ، يحول دون هذا التحول . وهذا الأساس ، ديني في طبيعته بصورة كلية . فالفئات الدينية التي تؤلف غالبية السكان في اليمن ، ترى في الإمام ، كما سبق أن ذكرنا ، خليفة الرسول ، وتجسيد سلطاته ، والمبشر بقدوم المهدي المنتظر ، آخر الأئمة . الذي سيعود إلى العالم لهدايته . ولهذا فإن الإمام هو منفذ مشيئة الله ، وسنة رسوله . وهكذا عندما يتعارض التفكير الديني مع التجدد ، وهذا ما يقع في

بعض المناطق ، فإن الإمام يقف إلى جانب التفكير الديني ، إذ أنه يجد نفسه مرغماً على ذلك ، وإلا فقد التأييد الذي يلقاه كحاكم زمني . وهكذا نجد الإمام نفسه ، في وضع لا يختلف كثيراً ، وإن كان على نطاق أضيق ، عن وضع السلطان عبد الحميد ، آخر سلاطين آل عثمان العظام . فلقد كان هذا السلطان يتعرض لضغط متواصل للقيام بإصلاحات في امبراطوريته ، وكان يعرف تماماً أن هذا « التعصير » لا يعني إلا تحطيم سلطاته الشخصية وأسس امبراطوريته العثمانية .

وعلينا أن نذكر أيضاً ، أن الحرب لم تنقطع كلية في البلاد منذ عام ١٩١٨ ، وأن عناصر هذه الحرب ، كانت من وحي بريطانيا . وكانت العمليات العسكرية تستهدف بالطبع ، توسيع الحدود إلى أبعد نطاق ممكن ، وزيادة مناطق النفوذ . ولكن ابن سعود ، جار اليمن الكبير ، قد اشترك أخيراً في هذه العمليات الحربية ، دون أن يكون عمله ، من وحي الدول الأوروبية .

ويعود بخل الإمام ، أو شحه ، إلى حاجته الماسة للدفاع عن نفسه ضد أعدائه ، وتثبيت أقدامه داخل بلاده . فهو يعرف ، كما يعرف زملاؤه تماماً في الخارج ، ان المال عنصر أساسي لشن الحروب . وهكذا فقد ظل يوفر المال سنة بعد سنة ، إلى أن جمع كنزاً ضخماً في أقبية قصره ، يضم دولارات ماريا تريزا التي تعود في تاريخها إلى عام ١٧٥١ ، كما يضم الجنيهات الذهبية التي يدفع منها أثمان ما يحتاج إليه من الخارج . وتخصص معظم النفقات للأهداف الحربية ، وللحصول على الأسلحة الحديثة . التي يريد الإمام أن يوفر دائماً المال للحصول عليها . ولهذا فهو لا يرغب في توزيع المال على رعاياه ، كما يرغب أن يعيش هؤلاء الرعايا حياة الاعتدال والتوفير . ولا يستطيع أي يماني أن يجني ثروة كبيرة ، تجنب أن يصبح مشبوهاً من الناحية السياسية في يوم ما ، إذ أن المال يأتي بالسلطان . ولا يريد الإمام أن ينازعه بالسلطان أي من من رعاياه . وهكذا فإنه يلجأ فوراً إلى مصادرة أموال ذلك الثري مخافة أن يتعرض لاغراء السلطان ، ويضمها إلى بيت المال . وهكذا يحقق عن هذا الطريق نوعاً من التوزيع الاشتراكي للثروات .

ولا يتناول الجنود مرتبات عالية . ولكن هذه المرتبات كافية لسد حاجاتهم

القليلة المتواضعة . لو لم يكن الجنود قد غدوا ضحايا رذيلة مضغ القات ، التي يدفعون في سبيلها معظم أجورهم الضئيلة ، محاولين في الوقت نفسه الحصول على أكثر ما يمكن من هذا المخدر بمختلف السبل الممكنة . وقد عرف عن الجنود اليمنيين أثناء المناوشات والحروب المحلية ، التي تشبه غزوات الماضي ، أنهم كانوا يبيعون أسلحتهم وذخائرهم ، ولكن هذا الوضع حدث في أماكن أخرى من العالم .

وتنطبق هذه الحالة أيضاً على موظفي الحكومة اليمنية . فوزير الخارجية اليمانية والأمين الأول للإمام ، راغب بك ، يتقاضى راتباً شهرياً لا يزيد على تسعة جنيهات . وراغب بك من أصل تركي ، وكان متصرفاً في الحديدة ، ابان الحرب الكونية الأولى . فلما انتهى الحكم العثماني ، وضع نفسه ، هو وعدد من زملائه الأتراك تحت تصرف دولة اليمن الجديدة الناشئة . وقد قدّم هؤلاء الأتراك بفضل تجاربهم وكفاياتهم ، خدمات قيمة للحكومة اليمانية الجديدة ، كموظفين وضباط . ولقد قام راغب بك بزيارتي في عيد رأس السنة الميلادية ، ليتحدث معي عن المانيا التي كان يحبها حباً جماً ، والتي كان قد خدم فيها في السفارة العثمانية في برلين مع الأيام التي سبقت الحرب الأولى . ورأيت فيه مثال الرجل الذكي والواسع الثقافة والوافر الدهاء ، والقدير في الحكم على الرجال . وعلى الرغم من أنه كان قد تجاوز الستين من عمره ، إلا أنه كان يحتفظ بحيويته وفتوته ، وبقامته المستقيمة المهيبة ، وشخصيته القوية . وكانت هيبته تتجلى عندما يرافق الإمام في الاحتفال الرسمي الذي يقام في الجامع الكبير في أيام الأعياد ، وعندما يرتدي لباساً فضفاضاً أسود ، مع عمّة بيضاء ووشاح أحمر . ويستقل جواداً عربياً مطهماً .

وإذا كان الإمام قد عثر على عدد الموظفين المخلصين البعيدين عن الأنانية من أمثال راغب بك . فإن الفضل في ذلك راجع إليه . فليس ثمة من شك في أن الامام من أكثر الحكام دمائة ، وتفهماً لحاجات العصر . ومن الجدير بالذكر ، أنه لم يعبر حدود مملكته قط في حياته ، وكان لا يعرف عن العالم الخارجي إلا ما يسمعه . ولا ريب في أن ما يسمعه كان ينطوي على الكثير من الأساطير والخرافات .

ومع ذلك فقد تمكن الامام من ارساء قواعد الدولة الأصلية في بلاد لم تكن

يعرف شيئاً إلا الفتن والثورات منذ قرون وأجيال . وكان سادتها الأتراك يسيطرون عليها جزئياً بفضل إجراءاتهم القاسية الصارمة ، ومن الواضح أن مثل هذا الارساء ، لا يتوافر إلا لحكم فردي صارم . ولا ريب في أن وسع الأوضاع القائمة ، أن تيسر لنا سبيل تفهم الأسباب التي أدت إلى لجوء الإمام إلى وسائل نعتبرها منافية للحضارة المدنية . وليس من السهل على المرء دائماً أن يحكم على الأمور على ضوء المقاييس الأوروبية الخالصة .

وقد كثر الحديث من السائحين والجوالين الذين قاموا بزيارات خاطفة إلى اليمن ، عن نظام الرهائن ، وأبدوا سخطهم عليه ، وقالوا انه يؤلف جزءاً من وسائل العنف المتبعة في اليمن . فعلى كل كبير من كبراء اليمن ، وعلى كل شيخ قبيلة صغيراً كان أو كبيراً ، أن يسلم أحد أولاده أو إخوانه إلى الملك كرهينة على ولائه وحسن سلوكه . ونحن نعرف عن وجود نظام مماثل ، عندما وقعت هجرات الشعوب في أوروبا . وإذا تكونت لدى الكبير أو رئيس القبيلة أو الوالي ، فكرة التمرد على الحكومة فإن الملك يقوم أولاً ، باعتقال نجل هذا الكبير أو أخيه أو قريبه الموجود رهينة لديه ، والذي يتحتم عليه أن يقدم حياته ثمناً للعمل الذي قام به أخوه أو أبوه . ويعتقل هؤلاء الرهائن عادة في عاصمة البلاد ، أو في غيرها من المدن التي تكون بعيدة على الغالب ، عن المكان الذي يقيم فيه الكبير أو الرئيس . ويسمح لهم بحرية الحركة والتنقل في المكان الذي يختاره لإقامتهم على أن لا يغادروه مطلقاً . وإذا قدر لأحد هؤلاء الرهائن ، وهم عادة من الفتيان والشبان ، أن يقضي وقته على مقربة من الملك . فإن الإمكانات تتوافر له ، ليخلق لنفسه مستقبلاً زاهراً . وكان عدد الرهائن يقدر في عام ١٩٣٤ بنحوٍ من أربعة . وقد تمكن الإمام عن طريق نظام الأمن هذا ، من ضمان سيطرة الدولة وتنفيذ أحكامها ، وهو ما لم يكن متيسراً من قبل . لكن هذا النظام على أي حال ، طريقة بربرية في غرس الطمأنينة . والثقة في الدولة . والاخلاص للواجب . فإذا كان الكبير أو الوالي ، واثقاً من أن الملك سيثأر من ولده في حالة تمرده أو عصيانه ، فإنه سيتجنب هذا التمرد مهما كان الثمن . وينطبق هذا القول أيضاً على الصغار من شيوخ القبائل ، الذين كانوا يميلون دائماً إلى اعتبار أنفسهم حكاماً في مناطقهم . ومن الواضح أن هذا الأسلوب تثقيفي . يتطلب

اثماره بعض الوقت ، حتى يؤدي في النهاية إلى قبول طوعي للتبعية للعرش ، وتقبل ثابت للمركز الجديد في نظام التسلسل في السلطة . ولا ريب في أن هذه القضية ما زالت عرضة للتفكير لتقرير ما إذا كانت البلاد قد وصلت إلى هذه المرحلة بعد وفاة الإمام يحيى .

ويبدو المدى الذي فرضه الإمام المتناهي في القوة والجبروت ، على كل شيء وكل إنسان ، لخدمة الدولة ولا سيما في القضايا المتعلقة بالمتطلبات العسكرية التي تتمتع بالأفضلية ، في النظام الذي أدخله في حريمه . وليس للإمام إلا أربع من الزوجات وفقاً لأحكام الإسلام . مع عدد لا يحصى من الجواري ، ويقدره البعض بثلاثين جارية . ويعمل قصر الحريم ، خلافاً للعادات القديمة ، في خدمة الدولة ، فقد فرض الإمام على زوجاته وجواريه ، ومن لديهم من الخدم ، خياطة الملابس لجنوده . ويدفع الإمام لكل واحدة أجراً على عملها ، وإن كان هذا الأجر ليس كبيراً . وقد اتخذ هذا النظام برهاناً على شح الإمام وبخله . وقد سبق لي أن أوضحت أن الإمام ملك مقتصد وبينت الأسباب التي تدعوه إلى هذا الاقتصاد . أما عن هذا الموضوع ، فأنا لا أرى مطلقاً ما ينسب إلى الملك من وضاعة ، وإنما أرى فيه إجراء عملياً سليماً كل السلامة . فالنساء في قصر الحريم ، لا عمل لهن طيلة الوقت . وبدلاً من السآمة والملل ، أوجد الإمام لنسائه عملاً يقطعن فيه أوقاتهن ، وينفعن بنتائجه دولتهن . ولا ريب في أن فكرته تقدمية ، إذ قضت على المرأة أن تعمل في خدمة الصالح العام ، وهو أمر لا تعرفه بلاطات الشرق الأخرى ، وجعلت من نساء القصر القدوة الصالحة لنساء دولتهن الفتية ، التي يتعرض وجودها لتهديد دائم .

وللإمام ثلاثة عشر ولداً من نسائه ، أما عدد البنات فمجهول . إذ لا يعرف أحد عن أمرهن شيئاً .

وبعد أن تقاسمت الدول الغربية المنتصرة تراث الأمبراطورية العثمانية كان ثمة حاكمان مستقلان كل الاستقلال في البلاد العربية . وهما ابن سعود الحاكم في قلب الجزيرة العربية ، والإمام يحيى في جنوبها . وقد حاول كل من الحاكمين توسيع

مكة ، التي لم تكن حدودها واضحة تمام الوضوح . وقد نجح ابن سعود نجاحاً في تحقيق غرضه هذا ، فاستولى على البلاد المقدسة وأخرج الملك حسين من الحجاز ، الذي كانت بريطانيا تناصره . ومضى إلى الجنوب ، فاحتل منطقة عسير السابقة ، والمجاورة لليمن والتي كان الإمام يحيى يطالب بها كجزء من مملكته .

وأسفرت هذه الحركات ، عن مناوشات مستمرة على الحدود ، كتعبير عن المنافسة السرية بين الحاكمين . وسارعت كل من الدولتين إلى تسليح نفسها ، بمساعدة شركات الأسلحة الأجنبية . وفشلت محاولة لفض النزاع عن طريق التفاهم ، والتعاهد في نهاية عام ١٩٣٣ ، ولم يبق ثمة من سبيل إلا اللجوء إلى تسوية النزاع باستخدام القوة .

ولم يطل العهد حتى وقعت الواقعة . ففي ربيع عام ١٩٣٤ ، نشبت الحرب بين الدولتين ، واتجهت اتجاهاً سيئاً بالنسبة إلى الإمام . فقد تمكن الجنود الوهابيون من هزم جيش ولي العهد اليماني ، واحتلوا ميناء الحديدة ، ومعظم المنطقة الساحلية . وخيل للعالم أن مصير اليمن أصبح محتوماً . ونشرت بعض الصحف العالمية أن الإمام يحيى قد خلع عن العرش أو قتل ، وأن بلاده قد أصبحت جزءاً من امبراطورية ابن السعود .

وسرعان ما فوجيء العالم بالصلح غير المنتظر الذي عقد في الطائف في حزيران عام ١٩٣٤ ، وهي بلدة تقع في واحة-جيلة ، ولا تبعد كثيراً عن مكة . واتضح آنذاك أن القتال كان جزءاً من مرحلة الكفاح في طريق الوحدة العربية . وقد حافظت المعاهدة على استقلال اليمن ، وأعيدت المناطق المحتلة إليها . أما منطقة عسير المتنازع عليها ، فقد غدت جزءاً نهائياً من المملكة السعودية . وأعلن الفريقان عن عدم وجود أية مناطق يتنازعان عليها ، بعد ذلك التاريخ .

وتلا عقد هذا الصلح معاهدة لمدة عشرين عاماً للصداقة الإسلامية والأخوة العربية بين الدولتين . فقد اعتبرت الدولتان نفسيهما من ذلك الوقت ، وهذا شيء مهم للغاية ، بلداً واحداً ، وتعهدتا بأن تؤمنا « السعادة والسلام والطمأنينة لشعب هذا البلد المتحد » .

وهكذا تم خلق جبهة مشتركة ضد أي غزو قد تتعرض له شبه الجزيرة العربية . ولكن هذا الصلح ، وتلك المعاهدة ، لم يكونا إلا فاتحة للوحدة المشتهاة منذ أمد طويل للبلاد العربية . فقد خيل للدول الغربية الظافرة بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، أن بوسعها أن ترسم خريطة الشرق الأدنى على النحو الذي تهواه ، وان تجعل منه مجموعة من الدول التي تخلقها . فجاءت تركيا الجديدة التي قضت على هذه الخطة في مجموعها . وها هي البلاد العربية تحذو الآن حذوها . وقد أصبح الملك القوي ابن سعود ، الرئيس الأعلى المعترف به لهذا الاتحاد الائتلافي (الفيدريشين الناشيء . ولا ريب في أن الهدف النهائي لهذا الاتحاد هو أن بلاد العرب للعرب .

وغدت اليمن بعد عام ١٩٤٦ ، دولة من دول الجامعة العربية . وتوفي الملكان اللذان عاشا متخاصمين في البداية ثم تحالفا في النهاية . وبينما توفي ابن سعود وفاة طبيعية ، لقي الإمام يحيى حتفه مع ثلاثة من أنجاله ، قتلاً على أيدي الثوار عام ١٩٤٨ في قصره في صنعاء ، من الثائرين الذين حرّضهم أمير الحديدة . وكان الإمام قد تجاوز الخامسة والثمانين من عمره . وخلفه على العرش ، ولي عهده ، الأمير سيف الإسلام أحمد ، وأصبح إمام اليمن وملكها .

ولم يحدث كبير تبدل في عهد الإمام الجديد ، إذ ما زالت اليمن بلاداً محرمة ، كما كانت في عهد نيبور[1] ، الذي أفلح بعد الكثير من المتاعب في أن يكون أول رجل يتسلل إلى داخل البلاد قبل مائتي عام . ويحافظ الملك الجديد على إغلاق حدود بلاده في وجوه الأجانب ولا يقيم أي تمثيل أجنبي مع أي دولة من الدول الأوروبية[2] . وتمكنت بعثة طبية يقودها عدد من الأطباء الفرنسيين من العمل في العهد الجديد في اليمن في ظل صعوبات شاقة . وقد توفي الدكتور فيفرير ، أحد أعضاء البعثة في صنعاء بعد وصولها في عام ١٩٤٧ . ولم يتمكن الجنرال ريبوليه ،

---

(١) كارستين نيبور (١٧٣٣ ـ ١٨١٥) سائح الماني ومؤلف ولد في هنوفر . انضم في عام ١٧٦١ الى بعثة ارسلها ملك الدانمارك للقيام بالبحوث العلمية في مصر وسوريا والجزيرة العربية وقد عاد نيبور عام ١٧٦٧ ، الحي الوحيد من اعضائها ، وكتب عدداً من الكتب عن رحلاته في البلاد العربية .

(٢) اقامت اليمن في السنوات الأخيرة ، تمثيلاً سياسياً مع عدد من الدول الأجنبية من شرقية وغربية .

(المعرب)

بي عهد له بانشاء مستشفى في اليمن من كسب ثقة الملك الجديد ، فمات في عادن عام ١٩٥١ ، متأثراً من مرض أصيب به في اليمن .

ولم يكن حظ البعثة الأثرية الأمريكية المسماة بعثة « المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان » والتي نالت تصريحاً بعد مفاوضات طويلة وغير منقطعة من الإمام احمد بالتنقيب عن الآثار في دائرة نصف قطرها خمسة عشر ميلا حول بلدة مارب ، حسناً أبداً . فقد اضطرت البعثة التي يقودها الدكتور فرانك البرايت إلى الإنحلال في عام ١٩٢٥ ، واضطر افرادها إلى الفرار من اليمن ، تاركين كل معداتهم خلفهم .

ولا يريد اليمانيون اليوم ، العزلة عن العالم الخارجي بأسره عزلة كاملة . فبعد قيام دلائل على احتمال وجود الزيت في اليمن أيضاً ، وبعد أن رأوا الثروات الطائلة التي حبي بها غيرهم من الحكام والأمراء من الزيت ، طمعوا في شيء من الرخاء . وأرادوا أن لا يحرموا منه ، إن وجد في بلادهم على الإطلاق .

وتم التعاقد في نيسان عام ١٩٥٣ ، بين حكومة اليمن ، وبين شركة المانية تدعى شركة (سي دينمان بيرغباو- بتنهايم) ، على استغلال الزيت استغلالاً مشتركاً في اليمن ، ان وجد ، على أساس الشراكة . وينص الاتفاق على تقاسم النفقات والأرباح المقبلة بين اليمن وبين شركة ديلمان على أساس ٧٥ في المائة لليمن و ٢٥ في المائة للشركة . وستتولى الشركة الألمانية جميع الأعمال والبحوث الجيولوجية والجغرافية الطبيعية ، كما تتولى أيضاً عمليات الحفر والتنقيب . وفي حالة العثور على الزيت فيما بعد ، في كميات صالحة للاستغلال الاقتصادي ، فإن إدارة الانتاج ستكون في أيدي شركة ديلمان .

ويشمل الاتفاق البلاد بأسرها . ولكن ثمة اتفاقاً مشتركاً على البحث عن الزيت أولاً في السهل الساحلي . إذ أن اليمانيين يترددون كثيراً في السماح للأجانب بالوصول إلى المناطق الجبلية . ولقد شرع المهندسون الألمان بالعمل فعلاً . وإذا لم تستطع الشركة العثور على الزيت في غضون خمس سنوات ، اعتبر الاتفاق لاغياً [1] .

(١) فشلت الشركة الألمانية في العثور على الزيت في المدة المحددة . وقد حصلت بعدها شركة امريكية على امتياز التنقيب . (المعرب)

أما إذا عثر على الزيت وأمكن استغلاله على أساس تجاري ، فإن عملية الاستغلال المشترك ستمتد عشرين عاماً .

وعلينا أن لا نخلط بين هذا الاتفاق وبين معلومات الامتياز التي عقدت سابقاً بين الشركات الانكليزية والأمريكية ، وبين البلاد العربية . فهذه الشركات تتولى التنقيب عن الزيت وحدها ، وبمواردها الخاصة ، وتتولى جميع النفقات . بينما تشترك اليمن ، في اتفاقها مع الشركة الألمانية منذ البداية في المغامرة وفي النفقات والأرباح المحتملة ، بنسبة واحد إلى ثلاثة .

وأرى لزاماً علي بعد هذا الاستطراد في شرح التطورات التاريخية والاقتصادية التي وقعت في اليمن ، حتى اليوم ، أن اعود إلى سرد قصة رحلاتي في أرضها .

- ١١ -

حِصن الاسلام في الشرق

استطيع القول صادقاً ، ان المقابلة التي اتيحت لي مع الامام والتي كانت استهلال اقامتي الأولى في صنعاء ، قد انتهت نهاية مرضية بالنسبة إليّ وإليه . فالامام الذي كان دائم الشك في الاجانب بدا مقتنعاً ، بأنه لم يلحظ فيّ ما يوحي اليه ، بوجود مشاريع سرية ، كالقيام بالتجسس على بلاده لمصلحة دولة اجنبية . ولم تبق هناك إلا نقطة واحدة تحتاج إلى بلاده لمصلحة دولة اجنبية . ولم تبق هناك إلا نقطة واحدة تحتاج إلى ايضاح . فقد ذكرت في طلبي الترخيص لي بالدخول ، انني أحمل جهازاً للتسجيل ، وكان مثل هذا الجهاز شيئاً سرياً وجديداً بالنسبة إلى التفكير اليمني . يضاف إلى هذا ان كلمة « جهاز » توحي بوجود شيء اوروبي خفي ، لا يعرف عنه الامام شيئاً .

ولايضاح هذه النقطة ايضاحاً مرضياً ، أوفد الامام الي بعيد المقابلة ، ولي عهده الذي جاء لزيارتي ومعه صديقه ورفيقه الدائم محمد الهجري . كان الامير يرتدي الزي اليمني المعهود ، اللباس الطويل المخطط بالخطوط السوداء والصفراء والبيضاء . والمشدود الى الخصر ، بحزام موشى بالذهب والفضة ، وقد بانت فيه « الجنبيّة » أو الخنجر المعقوف ، بغمده الذهبي الثمين . ولم يكن الحذاء الاسود الذي يحيط المطاط بجوانبه ، والمصنوع في اوروبا والذي لبسه الامير منسجماً مع هذا اللباس الجميل الذي يليق بأمير شرقي . ويبدو أن هذا الطراز من الحذاء ، الذي غدا قديماً بالنسبة إلى أوروبا . قد لقي قبولاً حسناً لدى جمهرة أفراد البيت المالك في اليمن . كما أن رفيق الامير ، كان يرتدي حذاء مماثلاً ، إلى جانب لباسه الوطني .

ويسمى الامير ، سيف الاسلام محمد ، وهو لقب يطلق على ابناء الامام . ويرمز إلى واجبهم في الدفاع عن الاسلام والذب عن حياضه . وكان سيف الاسلام محمد ، آنذاك في نحو العشرين من عمره ، وكان والياً لابيه في تهامة . وهي الامارة الساحلية التي تقع حول الحديدة . وكان الأمير ضئيل الجسم ، ويعرض خصائص شعب قديم قدم القرون والاجيال في وجهه الضيق ، الذي تبدو فيه طلائع لحية سوداء ، وعينان سوداوان مغرقتان في السواد وفي اعضائه الدقيقة . وبدت في مخائله ، سيماء التحرر والانطلاق ، التي عرفت لدى الشعوب ذات الحضارات العريقة والتي تتوافر في الجزيرة العربية أكثر من أي مكان آخر . وكانت للامير طبيعة سمحاء محبوبة ، وعقل متفتح للعالم الخارجي . ولقد كان بالفعل الوحيد بين افراد البيت المالك ، الذي قضى بعض الوقت خارج حدود بلاده ، والذي عرف أوروبا . فلقد زار ايطاليا وحل ضيفاً على موسوليني ، في الوقت الذي بدأت فيه رومه تهتم اهتماماً مباشراً باليمن . وعلى الرغم من أن ولي العهد لم يكن محارباً بطبعه ، بل كان ميالاً اشد الميل الى العلوم والفنون ، فإن الشعب كان يحبه حباً جماً . ولكنه غرق لسوء الحظ في البحر الاحمر ، كما ذكرت من قبل . ولو تولى هذا الأمير الحكم ، لانطلقت اليمن من عزلتها ، ولأمكن للعالم ، التعرف على الكنوز الدفينة لحضارة تليدة مجيدة .

أما أخوه الاصغر سيف الاسلام أحمد ، الذي غدا ولياً للعهد بعد وفاة اخيه محمد ، فكان اقوى بنية ، وقد اطلق عليه اسم الامير المحارب ، بالنظر إلى طبيعته . وكانت البلاد تعتبره اسداً ضارياً . لما عرف عنه من صلابة عود ، وشخصية تولع بالمظاهر ، ولما عهد فيه من رغبة في قضاء حياته كلها في حملات الغزو والمعارك ، كأي فارس من فرسان البدو في الصحراء . وعلى عاتقه يقع عبء شن الحروب التي يخوضها والده . وهذا العبء يبقيه دائم الانشغال . وقد رأينا في فصل سابق . كيف ادى انتصاره في حرب الحدود الشمالية الى الاحتفال بعيد عظيم في العاصمة . في الوقت الذي كنت فيه أسير السجن في مكتب رئيس الشرطة . ولكن الحظ خانه في معاركه الاخيرة مع خصم قوي مشهور ، كابن سعود ولم يستطع ، الحصول على أي من أكاليل الغار الجديد .

وهكذا فقد جاءني الامير الشاب الدمث ، محمد ، الذي كان على عتبة حياة

الملك ، ليرى جهاز التسجيل بنفسه . وكنت قد سجلت على الجهاز بعض الاغاني والاناشيد . وتمكنت من اسماعه بعض اغاني بلاده محفورة على شريط بأمر من الملك . وقد فرح الامير بالجهاز والاغاني ، وبعث الي فيها بعد بعدد من الجنود الذين كانوا يعتبرون من خيرة المنشدين ، والمغنين ، لأسجل لهم بعض الاغاني ، واحملها معي الى اوروبا .

ولا ريب في ان تقرير الأمير للامام كان مرضياً ، إذ تقرر أن أظل في صنعاء ، لمدة اشاؤها . وهو عطف لم يضفه الامام إلا على نفر قليل جداً من الأجانب ، ولكنني كاوروبي معروف في كل مكان من مظهري ، ظللت دائماً تحت الرقابة . وكانت تحصى علي كل خطوة أخطوها ، ولم يكن يسمح لي مبغادرة المدينة وضواحيها إلا باذن خاص غن الامام . ولكن كان ثمة الكثير من الأمور التي اود رؤيتها في العاصمة ، بحيث لم ارغب في مغادرتها منذ البداية .

وصنعاء ، من طراز المدن ، التي لا يمنى فيها الانسان بخيبة الأمل اذا ما تعرّف عليها معرفة وثيقة . فباحاتها واسعة ، وشوارعها مستقيمة وعريضة ، وتحيط بها سلاسل متتالية من القصور التي ترتفع إلى أربع أو خمس أو ست طبقات ، ولا تشترك في شيء مع هذه المدن العربية المعروفة بدروبها الضيقة . وبجدرانها القبيحة المصنوعة من الطين ، والتي تخفي وراءها قصور الأثرياء . يضاف إلى هذا أن صنعاء من أقدم المدن في العالم ، وكانت في ذروة امجادها ، في العهد الذي ازدهرت فيه بابل ، على الرغم من أن معظم آثارها القديمة ما زالت دفينة في باطن الارض .

ومما يجدر ذكره أيضاً أن أول ناطحة سحاب في العالم قد شيّدت في مدينة صنعاء . فقد كتب المؤرخ العربي القديم الهمداني عن قصر غمدان الذي بنى في عهد ملوك سبأ القدماء . ووصفه وصفاً رائعاً .

ويقع قصر الملك في الزاوية الجنوبية الشرقية من صنعاء في ظل جبل النقم . وهو الجبل الذي بنيت المدينة المقدسة في طرفه . وكان يتألف كما يقول الهمداني من عشرين طبقة ، وارتفاع الطبقة الواحدة منها عشرون قدماً . وعندما تم بناء الطبقة العشرين ، صعد المعماري الى سطح البناء في ساعات الصباح الباكر ، ورأى أن ظل

البناء يمتد إلى جبل « عصر » البعيد . ومضى المعماري يقول : « ان هذا الارتفاع يكفي لتخليد الملك وتأمين سلامته » ، ثم أمر عماله بوقف البناء . ولم يضف إلى البناء بعد ذلك الا شرفة مكشوفة اقامها فوق الطبقة العشرين ، وغطّى سقف بعضها بالواح من المرمر . وكان من المعتقد ، أن هذا القصر الاسطوري ، اربع واجهات تختلف في مادة صنعها وألوانها ، فقد كانت الاولى منها رمادية والثانية بيضاء والثالثة سوداء والرابعة من الحجر الاحمر . وكان اسد من الحجر يقف في كل زاوية من زوايا القصر ، وقد شيّد بحيث يردد رجع صفير الرياح ، عندما تهب من الناحية الصحيحة .

وأقام الملك عرشه في الشرفة العليا ، كما تقول قصة الهمداني . وكان في وسعه أن يرى من هذا المكان المرتفع اية قافلة إذا كانت متجهة في سيرها إلى المدينة ، او أي جيش معادٍ اذا كان يقترب منها . وعندما يكون الملك مستريحاً و« مستلقياً على ظهره » ، كان في وسعه ايضاً أن يرى الحمامات البيضاوات والرمادية ، وهي تطير فوق القصر عبر السقف المرمري الشفاف .

ويتحدث الينا الهمداني في قصته الرائعة أيضاً ، التي لا تخلو بالطبع من الاساطير ، عن أن المهندسين والعمال الاجانب الذين وفدوا الى البلاد ، هم الذين قاموا ببناء هذا القصر . ومثل هذا الحديث هام كل الاهمية ، إذ يتفق مع بعض الاساطير التي لا تزال منتشرة بين الناس حتى يومنا هذا . فهناك اسطورة تقول ، بوجود شعب هبط اليمن وأقام فيها قبل العرب . وهم يسمون هذا الشعب بني عاد ، ويقولون ان أرواح افراده ما زالت تطوّف في الوديان النائية التي يتجنب العرب الوصول اليها ، والتي يعتقد أنها تضم آثاراً تعود الى العصور القديمة . وتقول الاساطير العربية أن بني عاد كانوا من خيرة بناة المدن . وأنهم كانوا هم الذين شيدوا معظم الابنية الرائعة في القرون القديمة . وتتحدث احدى هذه القصص عن مدينة سحرية قديمة رائعة كانت تسمى إرم ذات العماد وعن أن قصورها كانت من الفخامة بحيث تشير إلى ما عرف عن قوم عاد من فن معماري رفيع . أما اسطورة الهمداني ، التي تقول ان الجن الاغراب ، هم الذين بنوا قصر صنعاء الملكي ، فتمت إلى هذه الاساطير القديمة .

ويروي الاساطير القديمة ، انه في العصور التي سبقت التاريخ ، كان هناك عنصر يختلف عن العرب تمام الاختلاف يقيم في الجزيرة العربية ثم جاءت الهجرات العربية المتلاحقة بعد ذلك ، فتعلمت من تلك الاقوام القديمة فن العمارة ، والحضارة . وإذا ما تذكرنا أقواماً أخرى عرفها التاريخ واشتهرت بفنها المعماري المتطور وهم السومريون ، الذين كانوا يعيشون إلى الشمال من الجزيرة العربية ، كان في وسعنا القول بأن قوم عاد جاؤوا من الشمال ، وأنهم هم والسومريون ، جاؤوا معاً . ولكن هذه الاقوال لا تخرج عن حدود التكهن والرجم بالغيب ، إذ أن كل شيء يضيع في ضباب التاريخ وظلامه .

ومهما قيل عن أصل هذه الاقوام ، فمن المؤكد أن فن العمارة القديمة في الجنوب العربي ، قد ظل على حاله دون تبدل حتى يومنا هذا . وما زال أهل اليمن يبنون اليوم على نفس المنوال الذي كان يتبعه اجدادهم قبل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة . ويبنى الجزء الاسفل من المنزل من الحجر ، الغرانيت أو البازلت الاخضر أو الحجر الرملي الاحمر أو الاصفر . أما الجزء العلوي ، الذي يرتفع عادة الى ست طبقات ، فيبنى من الطين . ولا ريب في أن المهارة في البناء ، تدعو الى الذهول ، إذا اخذنا بعين الاعتبار ، أن هذه الأبنية السامقة ، لا تستند إلى دعائم من الحديد أو الاسمنت المسلح . وهناك شرفة مغطاة بالنحاس الاصفر ، ومفتوحة من جميع جنباتها ، تقوم عادة فوق السطح الحقيقي للمنزل . وهذا هو المكان المفضل ، الذي يقضي معظم الناس اوقاتهم فيه ، عندما يكون الطقس حاراً للغاية . ولا تلطفه إلا الليالي الباردة . وتقع صنعاء على نفس خط العرض الذي تقع فيه بناما ، ولكنها ترتفع ستة آلاف قدم فوق سطح البحر . وتتألف النوافذ عادة من قسمين ، ويمتد الجزء الاسفل إلى الارض ، ولا تغلقه إلا الدرفات الخشبية . وفوق هذا الجزء ، تقوم نافذة مدورة الشكل ، يغطيها لوح صقيل من البلّور . وهي مادة تستخدم هنا بدلاً من الزجاج منذ اقدم العصور . وإذا ما اغلقت الدرفات الخشبية لمنع اشعة الشمس المحرقة من الدخول ، فان ضوءاً ناعماً يشبه الشفق يتسرب الى الغرفة عبر اللوح البلّوري . وتشبه زخرفة البيوت على البلور العربي ، والفسيفساء والنقوش على الخشب في فنها الرفيع ، الى حد كبير نماذج الزخرفة الموجودة في قصر

الحمراء في الاندلس . وهذا يؤيد القول بأن هـذا الاثر الرائع لفن العمـارة العربية الذي يعود في جذوره إلى عصور ما قبل التاريخ العربي ، قد نشأ في الجنوب العربي ، وأن معماريي هذا الجنوب هم الذين بنوا قصر الحمراء في الاندلس .

وكـانت صنعاء ، مـدينة القـدر العريقـة ، في يوم من الايـام ، المركـز الامامي الابعد للديانة المسيحية . فقد انتشرت النصرانية في عهد القائـد أبرهـة الحبشي الذي كـان يقيم في صنعاء في الجنـوب العربي ، عـلى الرغم من مقـاومة الـطائفة اليهـودية العنيفة ، التي كانت تتمتع بالقوة والجبروت في ذلـك الوقت . وزحف أبـرهة بجيشه الى وسط الجـزيرة العـربية لينشر النصـرانية فيهـا ايضاً ، ولكن هـذه المحاولـة الاولى باءت بالفشل . ولكن بدا في تلك الايام أن تعاليم السيـد المسيح ستنتشر في الجـزيرة العربية بكاملها . وكان في الامكان أن تنتشر النصرانية أيضاً من الجنوب العربي الذي كان مركز المواصلات العالمية آنذاك ، إلى الهنـد والشرق الأقصى ، كـما انتشر الاسلام فيما بعد . ولكن النبي محمد ، ما لبث أن ظهر بعد عهد ابرهة ، فأحلّ الاسلام محل النصرانية لا في البلاد العربية فحسب ، بل في موطنها الأصلي فلسطين ايضاً .

ويقال أن ثمة بقايا إحدى الكنائس لا تزال توجـد في صنعاء ، وقـد بني فوقها مسجد كبير . ولكنني لم استطع التثبت من هذه الرواية ، ذلك لأن من المحظور على الاجنبي أن يقوم بزيارة أماكن العبادة الاسلامية . ويملك الامام مجموعة من العاديات التي عثر عليها في صنعاء وفي جوارهـا ويقال ان بـين هذه العـاديات تمثـالاً صغيراً من الخشب للعـذراء . ولكنني أشك في أن يكـون هـذا التمـال إن وجـد حقـاً ، قديماً ويرجـع في عهـده إلى تلك الحقبـة التي سيـطرت فيهـا المسيحيـة عـلى اليمن . ومن المحتمل ، أن يكون قد جاء مع التجار فيما بعد من الحبشة .

ولقد ظلت صنعاء عدة قرون الحصن الشرقي المنيع للاسلام ، تماماً كـما كانت فاس حصنه المنيع في المغرب العربي في افريقيا . ويشير إلى هـذه الحقيقة العـدد الذي لا يحصى من المسـاجد بمنـاراتها المـرتفعة الى السـماء ، والتي تعلو عـلى جميع القصـور والبيوت ذات الطبقات العديدة . وتمثل هذه المساجـد ، السيطرة التي لا تتغير للفكر الـديني . فجميع دروب الحياة وسبلهـا في أدق تفـاصيلهـا ، وأحـداثهـا اليـوميـة ،

وعلاقاتها بالماضي والمستقبل ، تتقرر على ضوء فلسفة التوحيد الدينية ، التي يقف الله ، الخالق الخلاق لكل شيء ، في قمتها ، تماماً كما هي الحالة في مملكة ابن سعود الكبيرة . ولا ريب في ان هناك جلالاً وعظمة في هذا ، بل وقوة أيضاً في بعض الظروف ، ولكن ثمة خطراً مماثلاً فيها أيضاً . فالعالم دائم التطور ، والمشكلة التي تقوم ، هي ، كيف يمكن لأهل هذه البلاد أن يطوروا أنفسهم وفقاً لمقتضيات التقدم ، دون أن يفقدوا الأسس التي يقوم عليها وجودهم ، والتي تجد جذورها في ارواحهم[1] . ولا ريب في أن العثور على هذا الحل ، كما عثرت عليه اليابان مثلاً ، هو المشكلة الرئيسية التي تواجه العرب في مستقبلهم .

ويثير يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة الدينية ، بعض الانطباعات التي أرى لزاماً علي أن اتحدث عنها . فالامام وهو الرئيس الروحي ، يغادر قصره ، الذي يؤلف مع مسجده الخاص به ، ومدافنه الملكية ، وبعض الابنية الاخرى المجاورة أيضاً ، ما يشبه القلعة الصغيرة ، ويمضي في ساعة الصلاة المقررة ، الى الجامع الكبير حيث تقام صلاة الجمعة . ويشق الامام طريقه في موكب ضخم يحيط به النبلاء بملابسهم الزاهية المشرقة ، ويرافقه الجنود الذي يتلون الاناشيد ، عبر الشوارع الى الساحة الكبيرة التي تفصل صنعاء عن حي اليهود ، ومنها إلى الجامع الواقع في قلب صنعاء . ويكون جميع أهل المدينة في هذه الاثناء يمشون على اقدامهم . ويجد بعض المصلين أماكن لهم في الجامع لاداء الصلاة ، بينما يقف الباقون في الساحات والشوارع المجاورة خاشعين يستمعون الى تلاوة آي الذكر الحكيم ، ويصغون الى خطاب الجمعة . ويرى بعض الاغراب أو الاجانب في هذه الصلاة مظهراً حربياً يتفق مع طبيعة الاسلام النضالية ، فالامام وأفراد بطانته ، يصلون إلى المسجد على ظهور الجياد وقد تمنطقوا بأثمن السلاح وأجوده ، الذي يبرق في الشمس التي تنعكس أشعتها على ما فيه من أحجار كريمة ، وهو مما يختلف تمام الاختلاف عن المواكب الكاثوليكية التي تسيطر عليها الوداعة والحزن .

(١) لقد اثبت الإسلام أنه دين متجدد يصلح لكل زمان ومكان .

ويقال ان جامع صنعاء الكبير، بني في أيام الرسول العظيم. أي في القرن السابع للميلاد. وهو منتهى البساطة، ويفتقر إلى الزخرف والزينة. ويبدو غريباً وسط ما في فن العمارة في الجنوب العربي من زخارف وأناقة وهناك خط واضح من الداخل، على جدران الباحة الخارجية للمسجد وقد بهت البياض القائم الى أسفل هذا الخط. وهناك قصة صغيرة سمعتها في صنعاء، تتعلق بهذا الخط، وأرى لزاماً علي ان أرويها هنا. إذ يقال ان ابن فضل زعيم القرامطة (وهو من الخوارج)، عندما احتل صنعاء عام ٩١١ ميلادية، أمر بأن تملأ باحة الجامع الكبير بالماء إلى ارتفاع قدمين أو ثلاثة. وان يؤتى بجميع نساء صنعاء، إلى هذه البحيرة الصناعية، لاجبارهن على الاستحمام فيها عرايا. وتقول القصة أن ابن فضل، اتخذ مجلسه على إحدى منارات المسجد، وأخذ يرقب المستحمات منها، لينتقي منهن من يروق له، ليضمهن الى حريمه بحق الفتح.

وتستخدم مساجد صنعاء التي لا تعد ولا تحصى، كمؤسسات لتعليم الصغار ايضاً. وكان الاتراك بعد ان وطدوا أقدامهم في البلاد، قد أقاموا عدداً من المدارس العلمانية الرسمية، ولكنها سرعان ما أغلقت بعد انتهاء الحكم التركي في البلاد. ويسير أطفال اليمن في تعليمهم على نمط واحد. فالقرآن وكتب الشريعة، هي الكتب الوحيدة التي يدرسونها، والتي تؤمن لهم غذاءهم الفكري. ولم يظهر في اليمن حتى الآن أي حد فاصل بين العلم والدين، ولكنني أود القول ان هذه المدارس لا تهمل التعليم الرياضي أيضاً. ويعتبر الامام نفسه من خيرة العلماء، ومن أكثرهم فهماً للشريعة والتاريخ الاسلاميين. وتقول طريقة تفكيرهم، بأن الحاكم يجب أن لا يقل في ميدان العلم والمعرفة. عن أكبر العلماء من رعاياه. ومكتبة الامام مشهورة كل الشهرة، ويعتقد أنها من أكبر المكتبات في البلاد العربية. ويهتم الامام بجمع المخطوطات العربية القديمة. ويقال بأن مكتبته تضم عدداً لا بأس به من نفائس المخطوطات. وبينها المجلدات العشرة التي وصفها المؤرخ المشهور «الاكليل» عن تاريخ اليمن القديم. ولكن الامام لم يسمح حتى الآن لأي أجنبي بمشاهدة هذه الكنوز الثمينة من آثار العلم والمعرفة.

والدين هو أساس الشريعة والقانون. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما هي علة

حياة اليمانيين من أحكام وتلاصق تبين لنا أن هذا أمر لا مندوحة عنه . فالقرآن هو القانون . والرئيس الروحي للدولة ، هو في الوقت نفسه القاضي الأعلى . أما تطبيق العدالة ، ففي منتهى البساطة التي لا يستطيع تصورها انسان ، إذ لا يحتاج إلى أي شكليات أو وثائق ، أو عرائض وما شابه ذلك من لوائح . إذ يجلس الامام في أيام معينة للقضاء والفصل في الشكاوى ، اما في باحة قصره ، أو تحت شجرة في إحدى ساحات المدينة العامة . ولا يرافقه في مثل هذه الجلسات أكثر من كاتب أو كاتبين بينما يحافظ بعض الجنود على النظام بين الجموع الحاشدة من الاهلين . وفي وسع كل انسان أن يتقدم الى الامام وأن يعرض عليه شكواه ، وبعد ان يستمع الى أقوال الفريقين يصدر قراراً موجزاً ، لا يعدو بضع كلمات ، يتضمن العميق من التجارب وبعد النظر ، لا سيما وأن ليست هناك قوانين مكتوبة ، باستثناء تعاليم القرآن وشرائعه .

ولا يمكن أن تسمى العقوبات التي تطبق جزاء للجرائم الخطيرة ، هيّنة أو ليّنة . فعقوبة الافتراء والوشاية قطع اللسان[1] ، وعقوبة السرقة قطع الأيدي . أما عقوبة الزنى فالرجم بالحجارة . وقد حدث قبيل وصولي ، أن شخصاً يونانياً سمح له بصورة خاصة بالوصول إلى صنعاء ، بلغ به الحمق ، أن اتصل بعلاقة غير مشروعة مع امرأة عربية . وسرعان ما ذاع أمر العلاقة . وقيّدت يدا المجرم ورجلاه بالاغلال الحديدية ، ثم نقل فوراً الى الحديدة مربوطاً الى ظهر بغل ، حيث نفي نهائياً من البلاد . ولم أعرف ما حل بالمرأة المنكودة الحظ .

وهناك أمر غريب آخر بالنسبة إلى مفاهيم العدالة عندهم واعتقد أنه جدير بالذكر . ففي صنعاء ، أطلق شخص النار على آخر ، أهانه أمام الامام فقتله وأصاب جنديين كانا يقفان خلفه بجراح خطيرة بنفس الطلقة . ومن المدهش أن القضاء قد حكم ببراءة الرجل لسبب واحد ، وهو أنه أصاب الرجال الثلاثة بطلقة

---

(١) لم يرد ذكر مثل هذه العقوبة عن قطع اللسان في أي كتاب آخر ، وقد سألنا بعض الذين يعرفون اليمن ، فنفوا وجودها .

(المعرب)

واحدة . فهناك عقيدة قديمة ، تقول أن الرجل الذي يستطيع أن يصرع عدداً من الرجال بضربة واحدة ، وقد غدت طلقة واحدة في المقاييس الحديثة ، يكون محبواً من الله بقوة خارقة ، ومثل هذه النعمة الالهية ، يجب أن تكون موضع الاحترام .

ومما يجدر ذكره ، أن الاسلام اتخذ في الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين ، طريقة صارمة في الحياة تبلغ حدود التقشف . لم تكن معهودة من قبل وفي العصور السابقة . ومن السهل شرح هذه الحقيقة على اعتبار انها حركة دفاعية ضد التأثيرات الاجنبية ، الوافدة من الخارج . وتظهر هذه الحالة عينها في مملكة ابن سعود ، كما في الجنوب العربي ، منذ أن تولى الامام السلطة المطلقة في اليمن . وهكذا فقد منع مد شبكات الهاتف والسكك الحديدية ومشاريع المياه والمطابع في اليمن ، كما منع استيراد السيارات . ولم تكن في اليمن في ذلك الوقت أكثر من سيارتين أو ثلاث سيارات . وهي ملك الامام ، ويمكن استخدامها في حالات خاصة معينة ليس إلا . ولم يكن الامام يستقل السيارة ابداً . وإنما كان يستخدم العربة المطهمة الجياد . وكنت أرى في كل يوم ، مظهراً جديداً من مظاهر تدخل الامام في الحياة اليومية للناس إلى الحد الذي يشبه تدخل ناظر المدرسة في شؤون طلابه . وأرى أن أقدم مثلاً واحداً ، عن ما أقول ، فقد أفلح تاجر يهودي بعد الكثير من المتاعب في الحصول على ترخيص من الامام باستيراد عدد من أجهزة الحاكي إلى صنعاء ، مع اسطواناتها العربية ليس إلا . وقد تمكن من بيعها إلى لفيف من المسلمين الاغنياء . وأخذ هؤلاء يديرون أجهزتهم طول النهار ، حتى ساعات متأخرة من الليل ودون انقطاع ، وقد أشغلتهم هذه الهواية الجديدة عن كل شيء حتى عن الصلاة . وعندما سمع الامام بذلك ، أمر بمنع هذه الاجهزة المدمرة للارواح ، فاختفت من الوجود في الحال .

وينطبق هذا النظام الدقيق الصارم على جميع طبقات الشعب العالية منها والخفيضة ، والغنية والفقيرة . وعلى كل حال . فهناك تمييز واضح بين النبلاء والرجال العاديين ، في المدن الذين يطلق عليهم اسم « العرب » . وبينما يتميز النبيل أيضاً بتقاطيعه العربية ، إلا أن هذه التقاطيع لا توجد عند « العرب » هذا إذا حكمنا عليهم من مظهرهم ، وفي وسع المرء ، أن يحمل الانطباع بأن هذه الطبقة من

السكان قد تكون الى حد ما من ذرية الاقوام التي أقامت في البلاد قبل مجيء العرب . على كل حال ، هناك فرق واضح بين الطبقتين . فالنبلاء يحملون لقب « الشريف » أو « السيد » ، ويتوقف هذا على تسلسلهم إما من ذرية الحسن أو الحسين حفيدي الرسول . ولكن هذا الانتماء إلى الرسول ، نابع على الغالب من دوافع دينية . فأغلبية النبلاء ، يسلسلون أنسابهم إلى العديد من الأمراء القبليين ، الذين كانوا يقيمون في الجنوب العربي قبل محمد ، والذين كانوا كما يؤكد التاريخ يتمتعون بسلطات اقطاعية كبيرة ، تمكنهم من التحكم بمصير البلاد .

وقد كبح الامام اليوم جماح النبلاء ، فمنعهم بصورة خاصة من جمع الثروات التي قد يستخدمونها في الوصول الى السلطان . وقد حدد لهم الامام السير العام لسلوكهم . فمثلاً يحظر عليهم الرقص والغناء ، ولا يسمح لهم إلا بانشاد أغاني الجنود . وعلى النبيل أن يخدم في أيام الحرب ، أما في أوقات السلام ، فعليه أن يمارس التمرن على السلاح ، وان يدرس الشريعة . ويسمح له أيضاً بقرض الشعر ومن الطبيعي أن النبيل محروم من شرب الخمر ، اسوة بغيره من المسلمين ، أما يهود صنعاء ، فيصنعون نبيذاً من أجود أنواع النبيذ المصنوع من العنب . وقد استخدمني أحد النبلاء ، اثناء اقامتي في صنعاء ، في نقل زجاجة سرية كنت اجهل محتوياتها الى بيته . وقد علمت فيما بعد أنه فرح باستلامها وأنها كانت تضم العصير المحرم . ولا يحقق منع الخمر هدفه في الجنوب العربي على الاقل ، إذ أن العادة الشائعة باستعمال القات اضر بالصحة على المدى الطويل من تعاطي القليل من الكحول .

ولا يسع الانسان الا الاعتراف بأن « العرب » وهم يؤلفون غالبية سكان المدن ، يحيون حياة من التعاسة ، وفي أوضاع في منتهى الفقر . ومن المعروف أن مقاييسنا العادية في المقارنة لا يمكن أن تنطبق على أهل تلك البلاد ، لان الشرقي لا يحتاج إلى ما نحتاج إليه نحن ، ولكن الانسان لا يخلص على كل حال من الانطباع ، بأنه ليس بالسعيد ، لانه يستطيع الحياة بدون الاشياء التي نرى نحن أنها ضرورية للحياة . واعتقد أنني لم أر قط في حياتي مثل ذلك العدد الضخم من المتسولين الذي رأيته في صنعاء . والتسول في هذه البلاد وسيلة في كسب الاود ، ولا يعتبر ممتهناً

وضيعاً في رأي الأخرين . وبالطبع فإن عدداً من هؤلاء المتسولين اما من العجز ، أو الـذين لا يستطيعـون عملاً ، ولكنهم يستطيعون العثور على وسائل العيش بهذه الطريقة السهلة والمريحة .

والعربي عامل مجد ونشيط ، ويشتغل في ساعات الصباح الباكر ، حتى ساعات المساء المتأخر . ولما كانت الملابس التي يرتديها أهل اليمن والمعدات التي يستعملونها ، والاسلحة البدائية ، والمجوهرات ، كلها تصنـع من المواد الأوليـة التي تنتجها البلاد نفسها ، فإن أهم الواردات تقتصر على الاسلحة الحديثة . ولكن معظم الصناعات ، على الرغم من تطورها الرفيع ، من النوع اليدوي ، وفيها الكثير من الـذوق الفني . وفي وسعنا أن نصنف انتاج الصاغة ، وصناع الاسلحة ، بين فئات الانتاج الفني ذي التخصص . لا سيما وأن منتجيها لا يستعملون إلا ابسط الآلات . وصناعة الاحجار نصف الكريمة ، متطورة تمام التطور في اليمن ايضاً . ويعثر على مثل هذه الاحجار في الجبال القريبة من صنعاء ، ومعـظمها من العقيق وأحجـار القمر والاحجـار البيضاء التي تشبه الحليب والتي تسمى « المجدجة » التي اذا ما قـطعت ، كشفت عن بلورات صغيرة متحجرة ذات اشكال رائعة . وعنـد القطع ، تـربط الاحجار من طـرفيها إلى عصى طولها قدمان . وتـدار العصى آنذاك بسـرعة هـائلة على حجـر القطع ، براحة اليد . إنها طريقة بدائية ولا ريب ، ولكن الفرصة تتاح لعين القاطع ، وفي وسعه أن يقرر شكل كل قطعة واللون الذي يريدها فيه .

ويحيط بصنعـاء ، وهي مدينـة العرب الـذين تحدثت عنهم بـالتفصيـل ، سور دائري الشكل ، له ثمانية ابواب . وعلى كل مدخل من مداخل المـدينة حرس يتولى مراقبة الداخلين والخارجين . وتغلق جميع الابـواب عند مغيب الشمس ، ولا يسمح لاحد بالدخول والخروج طيلة الليل . أما القوافل التي تصل في ساعة متـأخرة فيجب أن تقضي الليـل في خارج المـدينـة . وتقـع الثكنـات الفسيحـة الـرحبـة التي تسمى « الاوردي » خارج الاسوار . وإلى الشرق تقوم قلعة حصينة في وسط جبل النقم ولا ريب في أنها تضم في أرضها ، أثار قلعة سبأية قديمة . وكان الاتـراك العثمانيـون هم اللذين بنوا هذه القلعة الجديدة ، وعلوا ابراجها بـالمدافـع ، لأنها تسيطر سيطرة تامة

على المدينة . وقد اهتم الامام منذ مجيئه إلى الحكم ، بالابقاء على هذه المدافع في موضعها .

وتحيط بأسوار المدينة حدائق فيحاء . يبرع العرب كل البراعة في انشائها واقامتها . وتضم هذه الحدائق الكثير من الفواكه ، كما تنتشر فيها الورود والازاهير ، وصفوف طويلة من اشجار السرو المرتفعة . وفيها ينابيع اصطناعية من النوع الذي يحبه الشرقيون اشد الحب ، وهي تطلق الماء الذي يتراقص فيها . ومثل هذه الخصوبة لا يمكن الحفاظ عليها إلا بالري الاصطناعي ، وبدوران عجلات الآبار ، التي تعمل ليل نهار ، ويديرها رجل واحد . مع بعيره ، وهي أثر خالد من آثار الحضارة الخالدة في صنعاء التي يعيها التاريخ . ويقوم في احدى هذه الحدائق ، قبرا الطيارين الألمانيين اللذين هوت بهما الطائرة على مقربة من صنعاء قبل عدة سنوات .

ويمتد حي اليهود معزولاً عن المدينة العربية باتجاه الغرب ، على الطرف البعيد من الساحة الكبيرة التي سبق لي ذكرها . والقريبة من القصر . والحي محاط بسور خاص ، والدخول اليه يتم من بوابة واحدة . وهناك نحو من خمسين ألف يهودي في اليمن ، اقاموا في الجنوب العربي منذ الايام التي سبقت الاسلام ، طبقاً لشهادة التاريخ . ويعيش في حي اليهود في صنعاء نحو ستة آلاف منهم .

ويعتبر العرب ، اليهود من طينة ادنى من طينتهم ، ولذا فهم لا ينظرون اليهم نظرة الاحترام ، مع أن الشعبين يمتان الى الاصل السامي الواحد . ولهذه الاسباب فإن هناك قيوداً خاصة مفروضة على اليهود في اليمن . ويبدو أن اليمانيين لا يريدون من اليهود ، الارتقاء في حياتهم . وهناك نظام يفرض عليهم ان لا يركبوا جملاً أو بغلاً مما يوضح أنه لا ينظر اليهم بعين المساواة . والدابة الوحيدة التي يستطيعون ركوبها هي الحمار ولا يسمح لهم بحمل السلاح . كما لا يسمح لهم بالانضواء في سلك الجندية[1] وإنما يدفعون البدل الى الامام . الذي يضفي عليهم حمايته ، كما

(١) يبدو أن المؤلف قد نسي أن مثل هذه المعاملة ، كان يتعرض لها اليهود في جميع انحاء اوروبا حتى عهد قريب . وأن اليمن ما زالت متأخرة في ركب الحضارة .

(المعرب)

كان بعض امراء المانيا يفعلون مع اليهود في اماراتهم منذ زمن بعيد . ويعمل اليهود في جميع المهن الحقيرة ، ويسمح لهم بالاتجار ، ولكن لا يسمح لهم بالجلوس في حضرة النبلاء من العرب . ويجب أن لا يرتفع البناء في قاع اليهود (حارة اليهود) على الطبقتين ، كما ان الكنس اليهودية لا تختلف في هندسة بنائها عن الابنية العادية . هكذا تبدو شوارع الحي اليهودي رتيبة وحقيرة بالنسبة الى شوارع المدينة العربية . ولكن بيوتهم نظيفة في داخلها . وسمعت احد السادة اليمانيين يقول : « على اليهود أن يدفعوا الجزية ، حتى لا ينسوا اصلهم ، وحتى يعترفوا دائماً بما اظهره الرسول نحوهم من تسامح وعطف » .

ويطلق يهود اليمن على انفسهم اسم « التيمونيم » ، وهم ينتمون الى اليهود الشرقيين (السفاراديم) . وفي وسع الغريب أن يعرف اليهودي فوراً من ملابسه ومظهره ، فهو لا يسمح له بارتداء الملابس الحريرية . كما أن جدائل شعره تنساب على كتفه . ويضع اليهودي في عنقه اسورة من الحديد ، يتدلى منها حجاب يضعه في كيس جلدي . والنساء اليهوديات سافرات ، ولكنهن يغطين شعورهن . ويرتدين ملابس سوداء ، تظهر تحتها الجوارب المزركشة باللونين الاحمر والفضي . ويضفن على رؤوسهن طرحات سوداء ، تحتها « طواق » فضية اللون تتدلى منها كرات صغيرة . ويرتدي أطفال اليهود مثل هذه الطواقي تحت القلنسوات التي يلبسونها .

ويصنع اليهود من الزبيب ، بالاضافة الى النبيذ الذي سبق لي الحديث عنه ، خمراً قوياً ، لاستعمالهم . وتجتمع العشيرة كلها في أيام الاعياد في غرفة واحدة . ويتحلقون حول جبال عالية من اللوز والحلويات . ثم يأخذون في انشاد الاغاني اليهودية القديمة ، ويشربون كميات كبيرة من هذا الخمر الذي يصنعونه بأيديهم .

ولم يسمح الامام قط ليهود بلاده بترك اليمن ، أو باقامة أي اتصال بينهم وبين يهود فلسطين أو الحركة الصهيونية ، كما لم يسمح بمجيء الدعاة والمعلمين من فلسطين . ولكن الكثيرين منهم كانوا يفرون عبر الجبال ، فيصادر الامام املاك الهاربين . ولكنني واثق من أن عدداً كبيراً من يهود صنعاء ، ينعمون بالرخاء والثراء . رغم جميع القيود المفروضة عليهم ، ولذا فلا يرغبون في مغادرة البلاد .

وسألت أحد الحاخامين ، إذا كان اليهود في اليمن قانعين بالعيش فيه ، فرد علي قائلاً ، « إننا نعيش في أمن واطمئنان ، ونحن نأمل في قيام ملك من اليهود بحكم اليمن . ونحن نصلي لتحقيق هذا الأمل كل يوم » .

ولكن الامور اتجهت اتجاهاً مغايراً . فمنذ قيام اسرائيل بعد الحرب الكونية الثانية ، لم يبق عدد كبير من اليهود في اليمن . وقد اطلقت حكومة اليمن الجديدة ، بعد وفاة الامام يحيى لليهود الحرية في مغادرة البلاد على أن يتخلوا عن ثرواتهم فيها . وتحققت نبوءة يهودية جديدة بأن « يهود اليمن سينتقلون إلى أرض الميعاد في يوم ما على بساط الريح » . وليس هذا البساط ، لا الطائرات الحديثة التي ظهرت في افق الصحراء ، والتي حملت يهود اليمن الى فلسطين . وقد اهتمت حكومة اسرائيل ، بتسهيل هجرة يهود اليمن ، لاسباب عملية ، إذ كانت في حاجة إلى صناعاتهم الفنيّة . إذ كان هؤلاء خير الصاغة وصناع الاحذية والخياطين في اليمن .

وبينما كنت أجلس في نافذة سجني في مركز الشرطة ، متذكراً اقامتي السابقة في اليمن ، عندما كان الامام لا يزال يعاملني معاملة طيبة ، واستعرضت في فكري جميع الحوادث التي مرت بي ، أخذ لهيب المشاعل التي اضسئت احتفالاً بالنصر يضؤل شيئاً فشيئاً . إلى أن لم يبق في السماء إلا نور النجوم الخافت . ورأيت السكون يلف المدينة المقدسة المسوَّرة ، التي حرمت من زيارتها . وشعرت باحساس قوي من الكآبة لم يكن ناجماً عن سجني بقدر ما كان ناجماً عن عدم تثبتي من مصيري ، إذ أن الدخول بصورة سرية إلى الأرض المحرمة ، يعتبر جناية خطيرة لدى الامام . ولم يكن هناك ممثل للجمهورية الالمانية في صنعاء ، استطيع اللجوء اليه طالباً المساعدة . كما لم يكن هناك أي قنصل أو سفير لأية دولة اوروبية لأن الإمام كان راغباً عن انشاء أي اتصال مع الأجانب . لكن هذا الشك الذي كان يلفني ، سرعان ما انتهى بصورة لم أكن اتوقعها .

- ١٢ -

شيعة غامضة

عهد الإمام بسبب مرضه في ذلك الوقت بتسوية موضوعي الى القاضي عبدالله . وهو من الشخصيات المهمة في العاصمة . وبعد أن قضيت خمسة أيام في عزلة تامة صارمة ، تحطم جدار الصمت الذي يحيطني ، للمرة الأولى ، وتلقيت رسالة رسمية تقول ، إنني سأنقل في اليوم التالي ، وبدون أي تأخير ، إلى ميناء الحديدة على البحر الأحمر ، بأسرع سبيل ممكن . وبالطبع لم اكترث كثيراً بهذا القرار ، إذ استحال علي بعد التطورات التي مررت بها ، أن أقوم بأي مشروع جديد في اليمن ، إبان رحلتي الراهنة . وقد حبطت خطتي في مواصلة التجول في المناطق المجهولة الباقية من البلاد .

واستعدت البغال ، والبغالون ، ورجال الحرس العسكري ، في الساعة المعينة ، على الرغم من أن الإهتمام بالمواعيد ليس كبيراً في هذه البلاد ، ثم نقل متاعي إلى ظهور البغال . وكان حشد كبير من الناس ، قد اجتمع أمام دار الشرطة ، كما هي العادة كل يوم ، ولكن عدد المجتمعين اليوم كان أكبر من المعتاد ، ليروا الفصل الأخير من المسرحية . فقد غدا « الأجنبي الغامض » حديث المدينة كلها .

وتكرمت السلطات فسمحت لي بوداع مواطني الألمانيين في صنعاء . وقد استمرت عملية الوداع حتى الصباح التالي تقريباً . وعندما وصلنا الى القصر الفخم الذي يعيش فيها الهر هانسن ووكيله ، قدمت لرجال الحرس كمية كبيرة من القات ، اخمدتهم تماماً ، فاضطروا إلى الاستراحة والنوم ما تبقى من النهار ، بعد

المتاعب العديدة التي مروا بها . وهكذا تمكنت من النوم في سرير حقيقي لأول مرة منذ عدة أسابيع ، ومن التمتع بالكرم الحاتمي الذي اغدقه علي مواطناي ، وبالجو المريح الذي يسود بيتهما ، بكل ما فيه من متع ومباهج .

وكان الهر هانسن يعتزم العودة الى الحديدة بالسيارة في غضون بضعة أيام ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها ، ليستحصل على اذن لي بمرافقته ، إلا أن جهوده منيت بالفشل . وتوصلنا على كل حال ، إلى ترتيب معين ، فبعد خمسة أيام أو ستة ، سأكون في قرية عباد الصغيرة في تهامة ، وهي النقطة التي تلتقي فيها طريق السيارات بطريقي . وتقرر أن يصل هانسن إلى عباد في الوقت نفسه تقريباً ، ويحملني معه في سيارته ، فأقطع الجزء الأخير والمضني من الرحلة في السيارة ، متخلصاً من الأراضي الواطئة التي تنتشر فيها الحمّيات . وهكذا تحركت قافلتنا متأخرة أربعاً وعشرين ساعة عن موعدها المقرر ، رغم الأوامر الصارمة . وخرجنا من الباب الغربي ، وقطعنا السهل الخصيب الفسيح الذي يحيط بصنعاء . ثم وصلنا بعد بضع كيلومترات ، الى صهريج كبير محاط بالأسوار ، أشبه ما يكون بالبحيرة الإصطناعية ، تجمع فيه مياه الأمطار الغزيرة ، للانتفاع منها في فصول الجفاف . وشهدت نشاطاً جماً في هذه المنطقة تماماً كما هي الحالة في أماكن المياه المماثلة وهناك فاصل بين أماكن سقاية الحيوانات ، وشرب الناس ، ولكن الجميع يشربون من نفس الماء . وهناك عدة درجات تهبط من طرف الصهريج ، ورأيت شخصاً يتوضأ بالماء ، بينما وقف آخر الى جواره يشرب من الماء ، بيديه . ولا ريب في أن أي اوروبي سيصاب بالأوجاع لو شرب من هذا الماء الأجاج الاصفر ، الذي تملؤه الجراثيم ، ولكن يبدو ان اجساد الأهلين هنا اكتسبت مناعة طبيعية ضد الأمراض .

وتوقفنا بدورنا عند الصهريج ، لنقضي فترة استراحة قصيرة . وشرب المرافقون والحيوانات من الماء ، وتبودلت بينهم وبين البدو القادمين من الحديدة بضع كلمات . وسرعان ما واصلنا السير والبغّالون يهتفون « جدّة جدّة . مي - مي - مي » . ودفعوا بالحيوانات في طريق الرحيل .

وأخذنا في الصعود منذ تلك اللحظة باستمرار . ووصلنا في الساعات المتأخرة

من بعد الظهيرة ، الى مكان مرتفع ، ألقينا منه نظرة اخيرة على سهل صنعاء الرائع . وكانت ثمة زوبعة تهب على جبل نقم فتبعث الحياة في ذلك المنظر الساحر . والزخات القصيرة من المطر ، ليست بالأمر النادر في مثل هذا الفصل من السنة . وارتفعت وسط الحدائق الخضر الغنية ، المدينة المقدسة بقصورها ، وقباب مساجدها ، ورأيت المدينة القديمة التي صمدت لأعاصير التاريخ فأذبلتها ، وسجلت انتصارها على الزمان . وقد قدمت الحضارات والديانات والتقاليد ، التي نبتت جذورها في هذه الأرض ، جزيتها ، لحكم الزمان ، ولكنها لم تذعن لإرادته كل الاذعان ، ولم تختف من الوجود . وقد تركت روح سبأ ، وحضارة الفرس ، ونصرانية الأحباش التبشيرية ، آثارها في حجارتها ، وما زال الزائر يحس بها في شوارعها ، ويراها حية في دماء سكانها .

وبدت الى اليمين منا روضة الإمام ، وهي القصر الصيفي الأبيض اللون الذي يحل فيه ، والذي انعكست أضواؤه على السحب السوداء الزاحفة . وانتهت الى مسامعنا ، من مسافات بعيدة ، أنغام أغاني البدو ، التي اصبحت الآن آلفها أشد الفة .

واختفى سهل صنعاء الخصب وراء ظهرنا ، وأصبحنا نسير في أرض جبلية قاحلة . ولم نر الخضرة ، إلا على شكل مبعثر مفترق ، في الوديان والأخاديد العميقة ، تماماً كعلامات الوشم ، على وجه الأرض . « أو كباقي الوشم في ظاهر اليد » كما يقول الشاعر العربي . وواصلنا السير في طريق قديمة مطروقة ، طالما مرت بها القوافل ، تسير على أنغام رنين جرس الحيوان القائد ، وأناشيد البدو وحدوهم . وكان الأتراك العثمانيون هم الذين بنوا هذه الطريق لأغراض عسكرية ، ولكنها تنتهي بصورة مفاجئة في متنة .

ووصلنا الى متنة عند المساء . ولقد كانت لهذا الأسم أهمية خاصة عند الجنود الاتراك ، إذ كانت هذه القرية تمثل المرحلة الأخيرة من رحلتهم الطويلة من الحديدة الى عاصمة اليمن . وكانت الألوية العسكرية التركية ، أو ما يتبقى فعلاً منها ، تصل الى متنة بعد رحلتها في جو الأراضي المنخفضة الشديدة الحرارة والكثيرة الحميّات ،

وسألت أحد الحاخامين ، إذا كان اليهـود في اليمن قانعين بالعيش فيهـا ، فرد علي قائلاً ، « إننا نعيش في أمن واطمئنان ، ونحن نأمل في قيام ملك من اليهود يحكم اليمن . ونحن نصلي لتحقيق هذا الأمل كل يوم » .

ولكن الامور اتجهت اتجاهاً مغايراً . فمنذ قيام اسرائيل بعد الحرب الكونية الثانية ، لم يبق عدد كبير من اليهود في اليمن . وقد اطلقت حكومة اليمن الجديدة ، بعد وفاة الامام يحيى لليهود الحرية في مغادرة البلاد على أن يتخلوا عن ثرواتهم فيها . وتحققت نبوءة يهودية جديدة بأن « يهود اليمن سينتقلون إلى أرض الميعاد في يوم ما على بساط الريح » . وليس هذا البساط ، لا الطائرات الحديثة التي ظهرت في افق الصحراء ، والتي حملت يهود اليمن الى فلسطين . وقد اهتمت حكومة اسرائيل ، بتسهيل هجرة يهود اليمن ، لاسباب عملية ، إذ كانت في حاجة إلى صناعاتهم الفنيّة . إذ كان هؤلاء خير الصاغة وصناع الاحذية والخياطين في اليمن .

وبينما كنت أجلس في نافذة سجني في مركز الشرطة ، متذكراً اقامتي السابقة في اليمن ، عندما كان الامام لا يزال يعاملني معاملة طيبة ، واستعرضت في فكري جميع الحوادث التي مرت بي ، أخذ لهيب المشاعل التي اضيئت احتفالاً بالنصر يضؤل شيئاً فشيئاً . إلى أن لم يبق في السماء إلا نور النجوم الخافت . ورأيت السكون يلف المدينة المقدسة المسوَّرة ، التي حرمت من زيارتها . وشعرت باحساس قوي من الكآبة لم يكن ناجماً عن سجني بقدر ما كان ناجماً عن عدم تثبتي من مصيري ، إذ أن الدخول بصورة سرية إلى الأرض المحرمة ، يعتبر جناية خطيرة لدى الامام . ولم يكن هناك ممثل للجمهورية الالمانية في صنعاء ، استطيع اللجوء اليه طالباً المساعدة . كما لم يكن هناك أي قنصل أو سفير لأية دولة اوروبية لأن الإمام كان راغباً عن انشاء أي اتصال مع الأجانب . لكن هذا الشك الذي كان يلفني ، سرعان ما انتهى بصورة لم أكن اتوقعها .

- ١٢ -

شيعة غامضة

عهد الإمام بسبب مرضه في ذلك الوقت بتسوية موضوعي الى القاضي عبدالله . وهو من الشخصيات المهمة في العاصمة . وبعد أن قضيت خمسة أيام في عزلة تامة صارمة ، تحطم جدار الصمت الذي يحيطني ، للمرة الأولى ، وتلقيت رسالة رسمية تقول ، إنني سأنقل في اليوم التالي ، وبدون أي تأخير ، إلى ميناء الحديدة على البحر الأحمر ، بأسرع سبيل ممكن . وبالطبع لم اكترث كثيراً بهذا القرار ، إذ استحال علي بعد التطورات التي مررت بها ، أن أقوم بأي مشروع جديد في اليمن ، إبان رحلتي الراهنة . وقد حبطت خطتي في مواصلة التجول في المناطق المجهولة الباقية من البلاد .

واستعدت البغال ، والبغالون ، ورجال الحرس العسكري ، في الساعة المعينة ، على الرغم من أن الإهتمام بالمواعيد ليس كبيراً في هذه البلاد ، ثم نقل متاعي إلى ظهور البغال . وكان حشد كبير من الناس ، قد اجتمع أمام دار الشرطة ، كما هي العادة كل يوم ، ولكن عدد المجتمعين اليوم كان أكبر من المعتاد ، ليروا الفصل الأخير من المسرحية . فقد غدا « الأجنبي الغامض » حديث المدينة كلها .

وتكرمت السلطات فسمحت لي بوداع مواطني الألمانيين في صنعاء . وقد استمرت عملية الوداع حتى الصباح التالي تقريباً . وعندما وصلنا الى القصر الفخم الذي يعيش فيها الهر هانسن ووكيله ، قدمت لرجال الحرس كمية كبيرة من القات ، اخدتهم تماماً ، فاضطروا إلى الاستراحة والنوم ما تبقى من النهار ، بعد

المتاعب العديدة التي مروا بها . وهكذا تمكنت من النوم في سرير حقيقي لأول مرة منذ عدة أسابيع ، ومن التمتع بالكرم الحاتمي الذي اغدقه علي مواطناي ، وبالجو المريح الذي يسود بيتهما ، بكل ما فيه من متع ومباهج .

وكان الهر هانسن يعتزم العودة الى الحديدة بالسيارة في غضون بضعة أيام ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها ، ليستحصل على اذن لي بمرافقته ، إلا أن جهوده منيت بالفشل . وتوصلنا على كل حال ، إلى ترتيب معين ، فبعد خمسة أيام أو ستة ، سأكون في قرية عباد الصغيرة في تهامة ، وهي النقطة التي تلتقي فيها طريق السيارات بطريقي . وتقرر أن يصل هانسن إلى عباد في الوقت نفسه تقريباً ، ويحملني معه في سيارته ، فأقطع الجزء الأخير والمضني من الرحلة في السيارة ، متخلصاً من الأراضي الواطئة التي تنتشر فيها الحمّيات . وهكذا تحركت قافلتنا متأخرة أربعاً وعشرين ساعة عن موعدها المقرر ، رغم الأوامر الصارمة . وخرجنا من الباب الغربي ، وقطعنا السهل الخصيب الفسيح الذي يحيط بصنعاء . ثم وصلنا بعد بضع كيلومترات ، الى صهريج كبير محاط بالأسوار ، أشبه ما يكون بالبحيرة الإصطناعية ، تجمع فيه مياه الأمطار الغزيرة ، للانتفاع منها في فصول الجفاف . وشهدت نشاطاً جماً في هذه المنطقة تماماً كما هي الحالة في أماكن المياه المماثلة وهناك فاصل بين أماكن سقاية الحيوانات ، وشرب الناس ، ولكن الجميع يشربون من نفس الماء . وهناك عدة درجات تهبط من طرف الصهريج ، ورأيت شخصاً يتوضأ بالماء ، بينما وقف آخر الى جواره يشرب من الماء ، بيديه . ولا ريب في أن أي اوروبي سيصاب بالأوجاع لو شرب من هذا الماء الأجاج الاصفر ، الذي تملؤه الجراثيم ، ولكن يبدو ان اجساد الأهلين هنا اكتسبت مناعة طبيعية ضد الأمراض .

وتوقفنا بدورنا عند الصهريج ، لنقضي فترة استراحة قصيرة . وشرب المرافقون والحيوانات من الماء ، وتبودلت بينهم وبين البدو القادمين من الحديدة بضع كلمات . وسرعان ما واصلنا السير والبغّالون يهتفون « جدّة جدّة . مي . مي . مي » . ودفعوا بالحيوانات في طريق الرحيل .

وأخذنا في الصعود منذ تلك اللحظة باستمرار . ووصلنا في الساعات المتأخرة

من بعد الظهيرة ، الى مكان مرتفع ، ألقينا منه نظرة أخيرة على سهل صنعاء الرائع ، وكانت ثمة زويعة تهب على جبل نقم فتبعث الحياة في ذلك المنظر الساحر . والزخات القصيرة من المطر ، ليست بالأمر النادر في مثل هذا الفصل من السنة . وارتفعت وسط الحدائق الخضر الغنية ، المدينة المقدسة بقصورها ، وقباب مساجدها ، ورأيت المدينة القديمة التي صمدت لأعاصير التاريخ فأذبلتها ، وسجلت انتصارها على الزمان . وقد قدمت الحضارات والديانات والتقاليد ، التي نبتت جذورها في هذه الأرض ، جزيتها ، لحكم الزمان ، ولكنها لم تذعن لإرادته كل الاذعان ، ولم تختف من الوجود . وقد تركت روح سبأ ، وحضارة الفرس ، ونصرانية الأحباش التبشيرية ، آثارها في حجارتها ، وما زال الزائر يحس بها في شوارعها ، ويراها حية في دماء سكانها .

وبدت الى اليمين منا روضة الإمام ، وهي القصر الصيفي الأبيض اللون الذي يحل فيه ، والذي انعكست أضواؤه على السحب السوداء الزاحفة . وانتهت الى مسامعنا ، من مسافات بعيدة ، أنغام أغاني البدو ، التي اصبحت الآن آلفها أشد ألفة .

واختفى سهل صنعاء الخصب وراء ظهرنا ، وأصبحنا نسير في أرض جبلية قاحلة . ولم نر الخضرة ، إلا على شكل مبعثر مفترق ، في الوديان والأخاديد العميقة ، تماماً كعلامات الوشم ، على وجه الأرض . « أو كباقي الوشم في ظاهر اليد » كما يقول الشاعر العربي . وواصلنا السير في طريق قديمة مطروقة ، طالما مرت بها القوافل ، تسير على أنغام رنين جرس الحيوان القائد ، وأناشيد البدو وحدوهم . وكان الأتراك العثمانيون هم الذين بنوا هذه الطريق لأغراض عسكرية ، ولكنها تنتهي بصورة مفاجئة في متنة .

ووصلنا الى متنة عند المساء . ولقد كانت لهذا الأسم أهمية خاصة عند الجنود الاتراك ، إذ كانت هذه القرية تمثل المرحلة الأخيرة من رحلتهم الطويلة من الحديدة الى عاصمة اليمن . وكانت الألوية العسكرية التركية ، أو ما يتبقى فعلاً منها ، تصل الى متنة بعد رحلتها في جو الأراضي المنخفضة الشديدة الحرارة والكثيرة الحميّات ،

وبعد مرورها بالمضائق الضيقة والوديان السحيقة ، حيث كان الموت دائماً في انتظارها وراء كل كمين ، كان الجنود يهتفون ويملأون الجو بهتافاتهم فرحين ، إذ ان صنعاء الهدف الذي طالما تاقوا للوصول اليه ، غدت على بعد ساعات قليلة منهم . وكثيراً ما كان الجيش التركي في حملاته على اليمن . يمنى بنفس المصير الذي مني به جيش الرومان اللجب الذي حاول مرة الوصول الى صنعاء من الشمال ، هادفاً السيطرة على الجنوب العربي ، ولكنه مزّق شذر مذر ، وضاعت بقاياه في صحاري اليمن الشمالية ، ولم يتبق منه إلا نفر قليل من الأحياء عادوا لابلاغ رومه بما حل بالجيش من كارثة .

وقضينا الليل في متنة في احد الخانات التي تؤمها القوافل في العادة والتي يطلق عليها في اليمن اسم «المكاية» ، وهي التي يستعاض بها عن الفنادق في تلك البلاد . ولا يتعدى الواحد منها ، بيتاً عارياً من الحجر ، ينام الناس والحيوانات معاً في غرفه الواسعة . وهناك في الطبقة الأولى عادة ، غرفة صغيرة ، لها نافذة قميئة تخصص لكبار المسافرين ، ولكنها تخلو من كل أثاث . وقد تمكنت من النوم في تلك الغرفة مع حراسي من الجنود ، وقد زودنا صاحب الخان بموقد معدني من النحاس الأصفر . صنعنا عليه الشاي ، وكان علينا أن نعثر على ما نحتاج اليه من طعام ، بأنفسنا .

ومررنا في اليوم التالي ببوغان ، وهي مشهورة بسوقها ، ولا يعيش فيها السكان بصورة دائمة . ويجتمع اليها البائعون والشارون مرتين كل أسبوع ببضائعهم وحيواناتهم ، قادمين من جميع المناطق المجاورة ، ويحتلون البيوت الحجرية البدائية المبنيّة في طرف الجبل . وعندما ينتهي السوق ، يفرنقع الناس عائدين الى ديارهم ويظل المكان خالياً حتى يحين موعد السوق التالي .

وارتقينا طريقاً جبلية وعرة ، تجتاز احد المضائق ، من بوغان ، حتى وصلنا الى سوق الشمس عند الظهيرة . وكان قد سبق لي التعرف على مدير البريد فيها اثناء رحلتي الأولى الى صنعاء . فهناك خط برقي يمتد من الحديد الى صنعاء ، وكان الأتراك قد أقاموه . وظل عاملاً بعد ذلك . وفي سوق الشمس . مكتب فرعي للبرق ، وفيه موظف واحد هو مدير البريد ، مع جهاز « مورس » للاستقبال

والارسال ، موضوع في غرفته الوحيدة . وعندما وصلت الى القرية في ساعة متأخرة من الليل في طريقي من الحديدة ، حللت ضيفاً على هذا الموظف ، على أن ادفع له نفقات الضيافة . وكان الموظف ، رجلاً طويل القامة ، مجعّد الوجه ، شاحبه ، من جراء ادمانه على القات ، فألقى علي خطاباً لا يخلو من الإصطناع ، موضحاً لي ، أن الواجب يقضي عليه بالابراق إلى الإمام دون إبطاء ، على ما جرت عليه العادة في البلاد ، ومؤكداً لي ، أن الإمام سيبعث الي بسيارته الفورد القديمة لتستقبلني - وكانت السيارة الوحيدة في البلاد آنذاك - إذ أنه كان يضع هذه السيارة تحت تصرف كبار الضيوف في المرحلة الأخيرة من الرحلة . وذكر المدير أن البرقية لا تكلفني أكثر من اربعة دولارات « ماريا تريزا » ، أي نحواً من ستة شلنات . ولما كنت لا أعرف شيئاً عن عادات البلاد آنذاك فقد وافقت على ما طلبه الرجل . وبالطبع لم تصل سيارة الفورد ، كما اني أشك في ان يكون الامام قد تسلّم مثل هذه البرقية . وعلمت فيما بعد أن البرقية لا تكلف أكثر من ربع ريال ، وتبينت أن الموظف قد ابتز مني الفرق الكبير الذي طلبه . وأنا لا أهتم اهتماماً بالغاً بمثل هذه الأمور . إذا أنها تحدث في اليمن، كما تحدث في غيرها من البلاد التي لا أريد الإساءة اليها . ولكن لم يكن في وسعي إلا أن اؤنب مدمن القات العجوز على ما صنعه معي ، عند عودتي من صنعاء ، كصديق للامام وأن أقول له ، انه سيفقد وظيفته ، إذا عاد الى الاحتيال على الغرباء الابرياء مرة ثانية بمثل هذه الطريقة .

وعلى الرغم من أن اسم القرية ، يحمل كلمة الشمس . إلا أن الشمس غير موجودة مطلقاً في بيوتها الحقيرة المبنية من الحجارة أو من الطين . وفي وسع الإنسان أن يتصور نفسه فيها ، وقد انتقل الى الأجواء الشمالية الباردة . ويرتدي أهل القرية ، ومن يعيش حولها من البدو عادة ، معاطف من جلود الغنم ، يقلبونها بحيث يكون الشعر من الداخل ، ويكون الجلد الأصفر اللون في السابق والذي حرقته الشمس الى الخارج . ومن المناظر الغريبة في هذه المناطق ، أن ترى قادة القوافل الذين يرتدون المعاطف الجلدية ، يمرون ، وقد حملوا في أيديهم مصابيح زيتية لاستخدامها في الليل في الأراضي التي يخيمون فيها .

وتقع سوق الشمس على ارتفاع نحو من (٨٥٠٠) قدم فوق سطح البحر

وعندما وصلت الى ذروة المنطقة ، وتطلعت حولي . حبست أنفاسي مكرهاً من الدهشة للمنظر الساحر الذي رأيته . تصورت مارداً من الشياطين ، يحمل في يده مطرقة هائلة ، ويضرب بها ذات اليمين وذات اليسار دون وعي ، مخلفاً وراءه حطاماً مضطرباً من المرئيات ، وفوضى لا نظام فيها من قنن الجبال وذراها . وأخاديد الوديان ومضائقها . من كل ناحية واتجاه ، وأبصرت جنادل عالية من الصخور ، ترتفع كالابراج الشاهقة ، فوق هوىً متثائبة . ولم يسبق لي ، في أي مكان آخر في العالم ، ان رأيت مثل هذا المنظر ، من استحالة الوصول ومن العداء للانسان . فهو المدخل الرئيسي لقلب اليمن .

ولعل المفارقات التي يراها الانسان في هذا المكان متلاحقة متتالية ، تدعو الى المزيد من الإهتمام . فهذا الجدار المرتفع من الجبال ، يهوي فجأة إلى بضعة ألوف من الأقدام . وبينما يسيطر في الذرى جو شمالي بارد ، تحتشد الوديان العميقة التي تمتد تحت أقدام الإنسان ، بالهواء الحار ، وتغطى بأشجار المنطقة الإستوائية التي تشبه الأدغال . ولكن وراء ذلك الوادي السحيق يرتفع من جديد جدار هائل من الجبال إلى علو تسعة الآف قدم . وعلى قمته الضيقة تبدو بلدة مناخة وهي أكبر المدن الواقعة على الطريق بين صنعاء والحديدة . وفي هذا الوادي ، انتشرت قبور الألوف من الجنود الأتراك ، الذين لقوا حتفهم أثناء معارك اليمن . فليس باستطاعة أية قوة حتى ولو زودت بأحدث الأسلحة أن تمر في هذا الوادي إلا إذا سمح لها أهل الجبال بالمرور . وهكذا يبدو أن الطبيعة نفسها تشاء أن لا تسمح بأي اختراق للأرض المحرمة .

وبدأنا بعد الظهيرة في الهبوط درجة درجة ، ومنحدراً منحدراً ، وكأننا نهبط أحد المدرجات . وتختار ساعات الغروب من النهار لمثل هذا الهبوط ، إذ تكون حدة الشمس المحرقة قد انحسرت قليلاً ، وإلا فإن الحرارة الشديدة في هذا الوادي الذي يشبه القدر ، تفوق كل احتمال . وكلما أوغل المرء في الهبوط ، كلما انتشرت حوله الخضرة ومعالم الحياة في وادي الموت السحيق هذا . فهناك نباتات العنجد (Spurge) الطويلة ، وهناك نباتات اليتوع(Euphonbias) ، وهناك التفاح البري ، وأشجار الصبير . وتنتشر الطيور الزاهية الألوان طائرة في كل مكان ، كما

تكـثر الببغاوات التي تتحـدث وسط الأجمات ، والقـرود التي تتطلع الى المـارة بفضول وبساطة ، من أماكنها عـلى فروع الأشجـار . ووصلنا في المسـاء الى « مفحق » ، التي تقـع في قعر الـوادي ، والتي لا تضم أكثر من قلعـة قديمـة توجـد نظائـرها في مختلف أنحاء البلاد ، ومن خان تنزل فيه القوافل ، وكان علينا أن نقضي ليلتنا فيه .

وقضينا يوماً كاملاً ، في ارتقاء التسعة آلاف قدم الى مناخة من جديد . وكانت هـذه الطريق رائعـة ، وان كانت غـير مرصـوفـة ، تنثني وتتلوى ، عـلى الجبـل ، في سلسلة لا تنتهي من المنعـطفات والمنحنيـات . وعندمـا وصلنا الى منـاخة في الليـل ، رأينا الشوارع مكتظة بالقوافل التي اخلدت الى الراحة . فهناك صناديق و « بـالات » منتشرة في كل مكان ، حتى كان من المتعذر على المرء أن يشق طريقه في وسطها ، كما كـانت اذناه تعجـان بما يسمعـه من أصوات البـدو ، وهم يدعـون إبلهم إلى النوم . وكانت الخانـات ملأى تمـاماً ، ولكن جنـودي عثروا بعـد الكثير من البحث عن بيت خاص نستطيع أن نقضي فيه ليلتنا .

وكنت قـد مررت بنفس الـطريق قبـل نحـو من عـام ، بعـد زيـارتي السـابقـة لصنعاء . وقد استقبلني آنذاك عامـل البلدة « كضيـف من ضيوف الإمـام » وأنزلني في البيت المخصص لكبـار الضيوف . ولكنني أسـأت للعامـل آنـذاك بعمـل لا يخلو من الحمق ، سأذكره الآن للقراء كما حدث .

كنت قد قررت في زيارتي الأولى لصنعاء ، أن ازور مأرب ، وهي عاصمة سبأ القديمة ، إذا امكنني القيام بهذه الزيارة . ولكن الإمام لم يسمح لي ، إلا بـالتجول في ضواحي مأرب ، مثل غيري من السـائحين السـابقين . فقـد رجوتـه ، أن يسمح لي بالخروج من صنعاء ، وتلقيت الأذن بالخروج . وكنت أعرف النهـاية المؤلمـة التي لقي فيها بورشارد حتفه في عام ١٩٠٩ ، على أيدي البدو المتعصبـين في مخا ، وأدرك ، ما في أي مشروع من نوع مشروعه من خطورة ، ومع ذلـك فقد حـاولت القيام بمغـامرة من نوع آخر ، وقد أفلحت فيها .

فقد تعرفت في صنعاء إلى إسماعيلي ، ينتمي الى شيعة اسلامية من البـاطنية . يقـال انها تنتمي في أصلها ، إلى أعـالي جبال منـاخة . وقـد مضيت معه الى هنـاك .

ولاتمكن من الوصول الى بلاد الاسماعيليين ، أرخيت ذقني ، وارتديت الملابس البدوية ، ووضعت علي معطفاً من جلد الغنم ، وقبعة يمانية من الفراء ، إذ أن الطقس شديد البرودة في هذه الجبال في الشتاء . وعثرنا في مناخة على دليل كان على استعداد لنقلنا إلى البلدة التي يقيم فيها الإسماعيليون . وكان الشهر شهر رمضان ، والناس صائمين . ويقضون معظم النهار في النوم ، الى أن يحل المساء . وهكذا تمكنا من مغادرة البلدة في ساعات الصباح الباكر دون أن يرانا احد ، لأن العامل وجنوده وأهل البلدة كانوا نياماً .

وكان علينا أن نزحف زحفاً بين الصخور ، في أضيق الممرات التي لا تعبرها إلا البغال ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نواجه أول أماكن الإسماعيلين الصخرية في جبل حراز . وتنقسم سلسلة الجبال هنا الى عدد لا يحصى من القمم ، التي تقوم في ذراها السامقة بعض القرى المحصنة التي لا يمكن الوصول اليها . فإذا ما اقترب خطر ، أو ظهر غرباء ، تناقل سكان هذه القرى الأنباء من قلعة جبلية إلى أخرى ، بلغة خاصة من الهتافات ، التي لا يفهمها أحد سواهم . وهكذا يحذرون بعضهم بعضاً ، ويقيمون المتاريس وراء أبوابهم ونوافذهم ، بحيث لا يستطيع أحد أن يلحق بهم أي أذى ويعيش ثلاثة آلاف من الإسماعيلين في منطقة مناخة « كخلايا أصيلة » . لهذه الشيعة السرية الغامضة التي ينتشر اتباعها في الهند وما بين النهرين وسوريا والتي يتمتع شيوخها بسلطات دينية سماوية . وكان هؤلاء الإسماعيليون يعارضون سلطة الإمام في اليمن على أسس دينية منذ أقدم العصور ، ولم يقم أي رجل أبيض بزيارة منطقتهم من قبل ، لأن الإمام لا يسمح بذلك مطلقاً .

ويعود الفضل إلى دليلي الذي كان يتحدث بلغتهم ، ويترجم لي أقوالهم ، في أنني كنت أول اوروبي تمكن من الدخول إلى بعض قراهم . وكانت « حاطب » ، وهي أهم هذه القرى ، ففيها مدفن مؤسس الإسماعيلية . ولما كنت قد تظاهرت بأنني من المسلمين ، فقد سمح لي بزيارة مسجدهم . ومن الصعب حتماً بالنسبة إلى غير المسلمين ، أن ينفذوا الى أسرار عقيدتهم وأن يحضروا صلواتهم . وهناك طقوس احتفالية محدودة ومعينة تتعلق باغتسالهم ، إذ أن الأذرع والاقدام يجب أن تغسل إلى

ارتفاع معين ، كما يجب أن تقص اللحية بطريقة خاصة ، أما الأعمال اليومية الرتيبة فيجب أن تتبع بطريقة مناسبة .

ويقوم المسجد فوق ضريح ناشر الإسماعيلية في اليمن وهو حاتم بن إبراهيم الحميري ، وله قبة بسيطة في بنيانها ، وقد طليت باللون الأبيض من داخلها . وفي مؤخرة المسجد يقوم ضريح مؤسس الإسماعيلية وقد أحيط بدربزينة من الشباك .

وكان زعيم الإسماعيليين في اليمن في هذا الوقت الشيخ عبدالله المصري . ومضت الأمور حتى هذه اللحظة على ما يرام ، ولكن رحيلي المفاجىء والذي تم بصورة سرية من مناخة ، قد لوحظ . واشتد الهياج بالاهلين . وكانت أوامر الإمام صريحة إلى عامل مناخة بأن علي أن أسافر إلى الحديدة بالطريق المباشر . ولهذا عندما عدنا لم يكن استقبالنا ودياً ، وأودعنا السجن بادىء ذي بدء . وأخيراً أغمض العامل عينه وسمح لي باستئناف الرحيل في اليوم التالي تحت الحراسة الشديدة .

ولكن العقاب الذي كان ينتظرني كان مخيفاً على الرغم من أنه لم يكن جزءاً من نوايا العامل . فالاربع والعشرون ساعة التي قضيتها رهن الإعتقال كانت من أسوأ ما شهدت في حياتي ، إذ ما كاد يغلق باب الزنزانة علي ، حتى انسابت الهوام والحشرات تمتص من دمي بشراهة مبالغة ، وكأنها لم ترتو من دماء البدو . واستحال علي تدبير الأمر ، كما لم استطع الخروج ، إذ كنت رهن السجن . وهكذا فقد قضيت ليلة مرعبة ، أرقص فيها رقصاً هندياً محموماً داخل الجدران الأربعة . وكانت قفزاتي ووثباتي مصحوبة بقفزات ووثبات من جانب الحشرات التي رافقتني الحياة في الزنزانة ، وشعرت بنفسي وكأنني « جليفر » أعيش بين الأقزام [١] . ولو قضيت أربعاً وعشرين ساعة أخرى في هذه الزنزانة ، لفقدت عقلي حتماً .

وانتهت عقوبتي أخيراً . وقبلتها كثمن لا بأس به ، مقابل تعرفي الى أفراد تلك الشيعة السرية .

---

(١) رحلات جليفر لمؤلفه جوناثان سويفت من الكتب المشهورة في الأدب الانكليزي . والتي تشبه إلى حد ما رحلات السندباد في الأدب العربي في قصص الف ليلة وليلة .

(المعرب)

- ١٣ -

جبل حراز وتهامة

تقع مناخة على ربوة ضيقة تمتد بين مسيفين جبليين شامخين . وتنحصر بيوت البلدة على هذه الرابية التي تشبه حد السيف في ضيقها ، حتى ان في وسع المرء أن يتطلع من شوارعها ، إلى الهوات السحيقة ، التي تهبط بصورة عمودية في طرفي الرابية . ويقوم الامام على حراسة هذا الباب الامامي لمملكته ، بحامية قوية ، تقيم في البلدة . وفي القلعة التي تسيطر على الارياف المحيطة بها وعلى الطرق المؤدية اليها الى مسافات بعيدة .

ويرتفع المسيفان الجبليان الواقعان في طرفي الرابية ، الى عنان السماء ، وينقسم المسيف الشرقي إلى ثلاث قمم متشامخة تشبه الابر الدقيقة ، أو أعمدة الكاتدرائيات الهائلة . وتظهر في الافق البعيد ، بيوت ذات طبقات متعددة تؤلف قرية تقوم على إحدى هذه القمم . وترتفع هذه البيوت العالية الى عنان السماء ، متصاعدة من الصخور ، ومتحدة معها في اتساق رائع . ولا ريب في ان الانسان ينافس النسور في هذه الاوكار التي يعيش فيها هادئاً ناعماً مع الغيوم .

وواجهنا على الطرف البعيد من مناخة ، وبعد هبوط قصير في اتجاه البحر الاحمر ، مفارقة جديدة من هذه المفارقات العجيبة التي تزخر بها اليمن . فبعد تلك القنن الجرداء ، من أعالي الجبال ، التي ترتفع عمودية كالجدران ، أو تهبط منحدرة الى الوديان والمضائق السحيقة ، الملأى بالأشجار المتلاحمة ، وجدنا انفسنا في منطقة جبلية رائعة . إنها منطقة جبل حراز التي تعتبر من أجمل البقاع وأكثرها وفرة وخصباً في اليمن السعيد .

ولكن أكثر ما يذهل الانسان في هذه المنطقة هو تلك المدرجات المنتشرة في كل مكان بين الجبال القاحلة ، وبين الوديان الوافرة الخصوبة . وعندما وصلنا الى هذه المدرجات تبين لنا أنها حقول مقسمة على شكل « قطاعات » تفصلها جدران من الحجر بنيت على اطراف الجبال ، ويرتفع بعضها مئات الاقدام ، لتؤمن زراعة البن العربي المشهور فيها . ويصعب على المرء أن يتصور التعب والجهد ، والمشقة التي يتطلبها الحفاظ على هذا الطراز من الزراعة . ولا ترتفع السلاسل التي تفصل « القطانات » في عملية التجدير هذه ، عند السفوح ، أكثر من ثلاثة اقدام ، ولكنها تزداد في الارتفاع ، كلما علا المرء باتجاه القمة حيث يتراوح ارتفاع بعضها بين الستة اقدام والسبعة . وتكون الحقول التي تم خلقها بعملية التجدير هذه ، ضيقة لا تزيد في عرضها على ضعف ارتفاع السلسلة وقد تصاعد الحقل منها بعد الآخر . أما السلاسل فتشيد من الاحجار المكسرة ، التي تشد الى بعضها بالطين ، وهي دائماً في أحسن الاوضاع ، فاذا ما لحق الخراب بجزء منها سارع أصحابها الى اصلاحها بعزيمة لا تكل ولا تمل . وطريقة الري في منتهى الفن والابداع ، إذ تستخدم الانحدارات الطبيعية بصورة ماهرة ، وقد رأيت فيها بعد كيف يهبط السكان الى حقولهم من مجاثمهم الرابضة في قنن الجبال في الاصبحة الباكرة ، وكيف يعملون فيها بلا توقف حتى حلول المساء . وينحصر عملهم بين اشجار القهوة الخضراء القاتمة ، التي تبلغ في ارتفاعها قامة الانسان والتي تنتشر فيها الازاهير ، كأزهار الليمون . ويزرع الفلاحون بين هذه الاشجار اعشاباً ذات روائح ذكية ، كنبتة المر أو البخور أو أعواد الند ، كما يزرعون أشجاراً عالية ، كالنخيل والاكاسيا والاشجار الشوكية على الاطراف لحماية أشجار القهوة من أشعة الشمس المحرقة . ولا يمكن لاشجار البن ، أن تحمل أية ثمرة لولا هذه الاشجار الظليلة ، إذ ان ثمارها سرعان ما تحرقها الشمس .

وحتى لو صح ما يقال من أن شجرة البن ، ليست أصيلة في اليمن بل دخيلة عليها ، وقد جاءت إليها من بلاد الحبشة القريبة ، فإن اوروبا وبلاد العالم الأخرى ، لم تعرف هذا الشراب المسمى بالقهوة إلا عن طريق اليمن . ويروي جان دي لاروك في كتابه « رحلة في العربية السعيدة بين بحر الشرق والبحر الاحمر » ، ان شركة

تجارية فرنسية ، أعدت حملة كاملة في أعوام ١٧٠٨ و ١٧١٠ ، للحصول على أدق التفاصيل المتعلقة بزراعة البن في اليمن ، ولايجاد علاقات تجارية بين اليمن وفرنسا وقد سمعنا في هذا الوصف الرائع لزراعات البن في اليمن ، أن اشجاره كانت تظلل بنوع من اشجار الحور . ويقول هذا الكتاب ، ان « بذور البن تزرع اولاً في أحواض نباتية ثم تنقل الشجيرات الصغيرة فيما بعد من مكانها في هذه الاحواض لتزرع اولاً في أحواض نباتية ثم تنقل الشجيرات الصغيرة فيما بعد من مكانها في هذه الاحواض لتزرع في الاماكن التي تختار لزراعتها . وتصلح سفوح الجبال وظلال التلال اللطيفة والاماكن الرطبة لزراعة البن . ولكن الري هو أهم عامل في نجاحها ، ومن الواجب أن يصل الماء إلى جذور الاشجار . وعندما تبدأ ثمرة البن في النضوج يجب ابعاد الماء عن الأشجار » . ولا ريب في أن ما قاله جان دي لاروك ، قبل أكثر من ثلاثمئة عام ، لا يزال ساري المفعول حتى يومنا هذا . ويقول المؤلف ان جني الثمار يتم على كل حال في شهر أيار . ولا تلتقط ثمار البن التقاطاً وإنما تهز أشجاره هزاً لتتساقط الثمار على أقمشة تبسط تحتها . وآنذاك تظل الثمار معرضة للشمس حتى تجف وتقسو قشرتها الخارجية .

قد جاءت أشجار البن الاولى التي زرعت في جاوة من اليمن . فقد جاءت بعض الشجيرات الصغيرة ، مع أول شحنة من البن صدرت من جاوة إلى شركة الهند الشرقية في امستردام . وسرعان ما قامت الشركة بزراعتها في مستنبتات المتاحف النباتية في هولندة ، حتى أينعت وحملت الثمار ، ثم نقلت الاشجار من هولندة إلى امريكا الجنوبية ، وهذا مما يقيم الدليل ، على أن جميع أشجار القهوة العربية في العالم ، تعود إلى أصل واحد . والفروق العديدة في طعم القهوة التي تباع في أسواق العالم اليوم ، لا تعود الى خلاف في « الفصيلة النباتية » . وإنما ترجع الى اختلاف الاساليب التي تتبع في جني الاثمار في المزارع ، والى التباين في المناخ ، وفي التربة التي ينمو فيها البن .

لكن المعضلة الكبرى لا تزال قائمة تفتقر الى الحل . فهل تعود القهوة العربية في أصلها ، الى افريقيا ؟ واذا صح هذا القول ، فكيف تمكنت هذه النبتة من تكييف نفسها لتلائم مناخ الجنوب العربي الذي يختلف عن مناخ افريقيا كل الاختلاف .

وهذه البلاد أشبه ما تكون بالحديقة الكبيرة ، والهواء فيها عالق بأريج النباتات والازاهير المختلفة ، كالورود الالبية ، والبيلسان البري ، والبلسم ، والريحان ، والارجوان اليهودي الذي يسمى بهذا الاسم ، نسبة الى يهوذا الاسخريوطي ، الذي قيل بأنه شنق نفسه على شجرة منه ، وشجرة الواحد والنصف ، ذات الثمار الشهية .

والمنطقة غنية بحياة الطير ايضاً ، ففيها مختلف أنواع الطيور كالطائر النسّاف الذي يسمى ايضاً « ابو قران » ، والطائر الخيّاط ، وآكل العسل (وهو من الطيور الاسترالية المتعددة الالوان الزاهية) . ويعيش في هذه المنطقة ايضاً عدد كبير من القرود ، التي تلحق ضرراً كبيراً بالمزروعات . وهنالك فصائل عدة من السعادين التي تعيش في جماعات كبيرة . وينصح السائحون ، بعدم ازعاج القرود . وبعدم اطلاق النار عليها ، وإلا تعرضوا فوراً ، لقذائف ، لا عد لها ولا حصر ، من الحجارة تنهال من كل جانب ، ومن مهاجمين لا يظهرون ، ويستحيل عليهم الخلاص من ضررها . إلا بالاسراع في الفرار . وتنتشر الفهود في هذه المنطقة ايضاً . والفهد هو الحيوان الوحيد الذي يسمح الامام بقتله . والثعابين قليلة ولكن الافاعي كثيرة الانواع ومنتشرة ، وهناك أيضاً أنواع عدة من الزواحف الالفية ، وهي حشرات سامة ، ويخشاها الاوروبيون أشد الخشية . وهناك نوع من الزواحف السامة يطلق عليه العرب اسم « ام سبعة وسبعين » .

وبعد ان ظللنا نجول في هذه الحديقة الفسيحة التي تمتد في طول البلاد وعرضها ، طيلة النهار ، لم نجد في قرية « وصيل » التي تقرر ان نقضي الليل فيها ، إلا بيتاً واحداً ، يضم غرفة حقيرة ، اكتظت برجال القوافل التي سبقتنا في الوصول . ورأيت في وسط هذا الحشد الزاخر من الناس والحيوانات والمتاع ، مسافراً عربياً اصيب بالملاريا ، كنت قد اعطيته بعض حبوب « الكينا » في مناخة . ولكن نوبة شديدة من الحمى ما لبثت أن داهمته . وشممت مع هذا العدد الضخم من الناس ، رائحة دهن الجمال النافذة الذي يستخدمه العرب وقوداً . ومن عادة البدو أن يغلقوا جميع الابواب والنوافذ ، عندما يأوون الى مضاجعهم في الليل . وخيل إلي أن هذا الوضع يلائمهم تمام الملاءمة ، على الرغم من مخالفته لكل ما نعرفه من قوانين

الصحة وتعاليمها . فهم ينامون نوماً عميقاً في مثل هذا الجو ، ولا تزعجهم أصوات القوافل الوافدة ، أو المسافرة ، لا في قليل ، ولا في كثير .

ولم استطع النوم في هذه الغرفة ، فآثرت ان أقيم سريري على المنحدر في الهواء الطلق . وقد ضايق هذا الاختيار من جانبي ، افراد الحرس ، فالتعليمات الصارمة الصادرة اليهم ، أن لا يفارقوني لحظة واحدة ، ولكنهم لا يستطيعون النوم في العراء معي . فالاجواء الاستوائية قد اضعفت دماءهم ، وهم يعانون أشد عناء من برودة الليل . وفي وسعي ان اقول ان الاوروبيين يعانون نفس هذه الحالة بعد قضاء فترة معينة في المناطق الاستوائية .

ولم تفلح معارضتهم العنيفة في اقناعي بالعدول عن خطتي . وظل احدهم يواصل القول ، بأن من الخطورة بمكان عظيم ، أن اقضي الليل في العراء . فالفهد قد يهاجمني . كما ان الناس في القرية قد شاهدوا افعى ضخمة في هذه البقعة بالذات . وعندما رأى الجندي ، أن حججه لم تفلح في اقناعي ، اخذ يبتهل الى الله ، أن تنقضي تلك الليلة على خير . وأخذ يتلو بعض الدعاء عدة مرات ، ثم كتبه على قطعة من الورق ، واعطانيها لأضعها على صدري طيلة الليل . والمعروف أن هذا الدعاء ، يدفع عنهم اذى الحيوانات المفترسة التي تعيش في الجبال . وقد احتفظت بهذه الورقة ، ولكنني لم استطع أن اكتشف معنى ما كتب في تلك التعويذة .

وعندما عاد الجندي في الصباح التالي ، وجدني سليماً معافى ، أغط في نوم عميق . وقد أبلغني متحمساً وقوع مصيبة ، فبغل الرجل المصاب بالملاريا والذي كان قد غادر المكان مع قافلته في الصباح ، قد هوى مسافة ستين قدماً ، ولكن من حسن الطالع ان الرجل لم يكن قد استقله بعد ، وقد تدحرج الحيوان المسكين عدة مرات ، ثم استقر في احدى منعطفات الطريق ، دون ان يصاب بأذى كبير ، مما يعتبر معجزة حقاً ، وقد عزا الجندي هذه المعجزة الى تعويذة سحرية ، قد يكون صاحب البغل ، علقها على حيوانه .

وكانت الطريق التي سرنا فيها الآن ، هابطين الجبل ، ومتجهين الى السهل ،

من أسوأ ما رأيت في حياتي . كانت تهبط في منطفات عمودية ، وتبدو وكأن صخوراً ضخمة قد نسفت من مكانها كل عشر ياردات ، وانتشرت قطعها في المكان كله .
ولعل من الغريب حقاً ان يكون الانسان تحت رحمة البغل في مثل هذه الطرق ، إذ أن لهذه الحيوانات في اليمن ، شأناً فريداً من نوعه . فالبغال ، تميل الى السير على الطرف البعيد من الممر الجبلي على مقربة من حافة الهوة ، ولا يمكن الحيلولة بينها وبين اتباع هذا السلوك إلا بضربها بالعصى ، دون ان تؤثر فيها الكلمات الودية . ولما كان سطح الطريق غير مستقر دائماً . فكثيراً ما يحدث ، ان تزل رجل الحيوان ، وأن يهوي مع الأرض الرخوة الى الاعماق . وكثيراً ما تضيق البغال ذرعاً براكبيها ، وترى أن الواجب يدعوهم الى السير على اقدامهم ، فترة من الزمن ، بقصد الاستراحة ، وعندما تسيطر عليها هذه الفكرة تتوقف عن السير فجأة ، وتأخذ في الرفس بأرجلها الخلفية ، حتى أن راكبيها الذين يباغتون بهذه الحالة ، يجدون انفسهم على الارض . وتفضل البغال أن تقوم بهذا المزاح المخيف في اللحظات التي تصل فيها الى مقربة من هوة سحيقة تفغر فاها لابتلاع كل شيء . ومن الغريب ان البغال تكره الهبوط ، بينما لا تمل من الصعود مطلقاً . وقد تضع مختلف أنواع العراقيل في طريق النزول ، فتشرع في التعثر باستمرار في سيرها ، والتوقف بين الفينة والفينة ، مما يرغم راكبيها على النزول عن ظهرها ، واقتيادها بخطامها ، فتأخذ في الهرولة وراءهم فرحة جذلة . ومع ذلك فان السفر على ظهور البغال في هذه المناطق الجبلية أكثر راحة وأمناً من السفر على ظهور الابل . أو لا تستخدم البغال إلا في جبال اليمن . وهي لا تربّى فيها ، وإنما تستورد من الحبشة ، طبقاً لحاجات السكان .

وعندما وصلنا الى حجيلة التي ألقينا عصا الترحال فيها ، وجدنا أنفسنا في نهاية المنطقة الجبلية . وكانت القرية قد تعرضت للدمار الشامل في القتال الذي نشب للسيطرة على المنطقة الساحلية في عام ١٩٢١ . ولا ينتظر ان يعود الناس الى بنائها بالنظر الى الهبوط المستمر في عدد سكان الاراضي السهلية . وأردت أن أقوم بزيارة عامل حجيلة الذي استقبلني استقبالاً رائعاً في العام الماضي ، عندما قمت بزيارة صنعاء اول مرة . وكنت قد حملت اليه تلك المرة ، دجاجة مشوية من الحديدة ، فرح بها أبلغ الفرح ، إذ أن الفقر يبدأ من هذه المناطق . ولكن حراسي حالوا بيني وبين

هذه الزيارة . فأنا ، على الرغم من كل شيء ، اوروبي مشكوك فيه . وقد يعرض حديثي الى احد موظفي الامام أمن الدولة الى الخطر .

وعندما يهبط الانسان من المناطق السحرية في جبال اليمن ، الى السهول الواطئة ، يكون وكأنه قد انتقل من أعالي سويسرا الى اطراف الصحراء الكبرى . ولعل هذه من مفارقات البلاد الكبرى . فالمنطقة الساحلية التي تمتد أمام جبال اليمن الى عمق لا يقل عن خمسين ميلاً ، تسمى تهامة . وتشير التسمية الى الجمع بين الحرارة الشديدة وبين الروائح القبيحة . ويقول ادوارد غلاسر أشهر جامعي آثار سبأ وحمير ، ان هذا النطاق الساحلي قد تألف من الصخور والجنادل المرجانية . وارتفع من البحر في تاريخ متأخر ، بنفس الطريقة التي ما زال فيها الساحل العربي على البحر الاحمر ، آخذاً في الارتفاع حتى اليوم . وتهامة هي اقرب الى السهوب منها الى السهول . ولذا فالخضرة فيها غير متوافرة ، أما المراعي فقليلة . وتزرع الذرة ايضاً في البقع الرطبة من السهوب . أما اشجار النخيل التي تنمو فيها ، فلا تحمل الثمار . وتهامة مزعجة كل الازعاج بحرارتها الشديدة . وكثيراً ما تصل الحرارة في الظل الى المائة والاثنتين والعشرين درجة فهرنهايتية ، وتظل على ذلك عدة ايام ، ولا يجرؤ البدو على الرغم من أنهم قد ألفوا مختلف أشكال المناخ ، على عبور هذه المنطقة الساحلية بين البحر الاحمر وجبال اليمن إلا بعد مغيب الشمس . وتهبط درجة الحرارة في فصل الامطار في شهري كانون الثاني وشباط الى ثمانية وستين وهي درجة عالية إلى حد ما ، ولكن السكان يرتعدون مع ذلك من القر . ومياه تهامة الجوفية شحيحة ، وهي مالحة المذاق ، ولا تصلح للشرب ، للاوروبيين بصورة خاصة . ولهذا فان مياه الشرب في الحديدة ، تنقل على الحمير ، من الجبال ، التي تقطع مسافة ثمانين ميلاً . ومناخ تهامة من أسوأ أنواع المناخ ، وأكثرها ضرراً بالصحة ، في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وتنتشر فيها الملاريا الحادة ، التي تحطم صحة الاهلين بصورة تدريجية . ولم يتمكن حتى الاطباء الايطاليون الموجودون في الحديدة من مكافحة هذا الوباء . و « الكينا » لا يستورد كثيراً لغلاء ثمنه ، ولأن الامام لا يؤمن كثيراً بجدوى العقاقير الاوروبية .

ولا يرى الانسان في هذه المنطقة الساحلية شيئاً من حضارات المناطق الجبلية بمدنها النبيلة العالية الابراج . وتتألف القرى من أكواخ حقيرة من الخوص ، أشبه ما تكون بخلايا النحل ، وتخلق الانطباع لدى الزائر ، بأنه موجود في مكان ما من افريقيا . والسكان في المنطقة من ذوي البشرة السوداء ، مما يوحي بامتزاجهم عرقياً امتزاجاً شديداً بالزنوج .

والسفر في تهامة ليس بالمهمة السهلة . فالسائح لا يرى فيها شيئاً إلا السهوب التي جففتها الشمس ، والا الرمال تلو الرمال ، والاعشاب الشوكية القصيرة . وفجأة تتراءى أوراق شجرة نخيل تبدو في الأفق ، وهي تهتز في الهواء ، وكأنها مروحة مفتوحة ، متجهة إلى السماء . وهناك كوخان أو ثلاثة من القش ، وزريبة للحيوانات ، وفي داخل الاكواخ أثاث ضئيل حقير ، وحصيرة من قصب النخيل . ورأيت رجلين اسودين يقودان الحيوانات بعيداً . واسترحنا فترة قصيرة تناولنا ابانها القهوة الممزوجة بالزنجبيل الحاد ، ثم استأنفنا رحيلنا بعد حلول الظلام . وتعود الدنيا الى الحياة في الليل ، ولكن الليالي في تهامة ايضاً ، فظيعة للغاية ولا تقل في حرارتها وتبلدها عن النهار .

وقد اتيحت لي الفرصة هذه المرة للتمتع بكل ما في تهامة من متاعب حتى الثمالة ، على الرغم من أن المشاق التي عانيتها في عبور الربع الخالي ، والفترات التي قضيتها في السجن ، كانت قد وصلت بي الى نهاية الاحتمال ، وحطت من وزني الى حد كبير . ولم يكن وزني ليزيد على ثمانية وتسعين رطلاً عندما غادرت الحديدة .

وتوقفنا في عباد . ويسميها البعض « عبال » ، وهي قرية صغيرة تضم اكواخ القصب ، وكان من المقرر ، ان تحملني السيارة القادمة من صنعاء من هذه القرية . واقيم لي سطح من الحصير بين كوخين على أربعة أعمدة ، واستلقيت هناك طيلة النهار . وأنا عاجز عن الحركة ، وكل همي أن اتجنب اي بصيص من أشعة الشمس الحارقة ، التي قد تنفذ من سقف الملجأ الذي أويت إليه . وكنت على الرغم من ذلك أقفز من مكاني عندما اسمع اية نأمة ، آملاً بأن تكون السيارة قد وصلت ، وأن تحملني من هذا الجحيم ولكن قدر لي أن انتظر فيه يومين كاملين .

وهذا القسم من منطقة تهامة مأهول بقبائل الزرانيق ، السمر الوجوه والبشرات ، وتمتد بلادهم على طول الساحل الى بيت الفقيه وزبيد . وهم قوم مضيافون ، وطيبو النوايا ، ولا يحملون أية ضغائن تعصبية ضد الاجنب ويحبون بلادهم الفقيرة وغير الصحية ، ويدافعون عنها بضراوة وعزم ، وقد لقي الامام مشقة كبيرة في اخضاعهم لسلطانه ، وكثيراً ما ثاروا عليه . وهذا هو السبب الذي يحمل جنود الامام ، على مضايقتهم واضطهادهم بصورة خاصة ، واغتصاب ماشيتهم ، وسلبهم بيوتهم . وقد رأيت اربعمائة شخص من الزرانيق في سجن الحديدة ، وبينهم الرجال والاطفال ، وهم أهل قرية كاملة ، وقد صفدوا جميعاً بالاغلال . وكانوا قد ذبحوا فصيلة من الجند ، كانت مرابطة في قريتهم ، تسومهم خسف العذاب ، فقضوا عليها عن بكرة أبيها .

وشهد أهل هذه القرية التي حللنا فيها مسرحية عظيمة في الساعات المبكرة من صباح اليوم الثالث . فقد وصلت السيارة التي طال انتظارها . ولكنها كانت مكتظة بالركاب لسوء الحظ . فبالاضافة الى الهر هانسن ، كان فيها أحد أقرباء الامام ، واحد التجار ، « وساقي الماء » الذي جلس الى جوار السائق . ولا يسافر أي سائق عربي ، إذا لم يكن مساعده الى جانبه ، ومهمة هذا المساعد الاساسية ، اغراق جهاز الاشعاع « الراديتور » بالماء ، الذي كثيراً ما يؤتى به من مسافات بعيدة . ويبدو ان الرحلة بالسيارة مشقة ما بعدها من مشقة في اليمن ، إذ ان قريب الامام كان في حالة سيئة ، وتحتم علي أن الجأ الى ما لدي من عقاقير ، لمعالجته .

ولكن هبة هذه العقاقير الاساسية ، ورجاء الهر هانسن الملح ، لم يفلحا في اقناع السائق بأن يحملنا معه في السيارة . فقد توقفت السيارة معه في الطريق عدة مرات ، وسيسعده أن تتمكن من الوصول الى الحديدة . ولكنها على أي حال لا تستطيع أن تحمل أي عدد اضافي آخر . وأضاف السائق ان الساحل لا يبعد اكثر من خمسة واربعين ميلاً ، وأن الطريق اليه تسير باتجاه النزول طول الوقت .

وكنت قد ذكرت سابقاً ، ان طريق السيارات ، كانت تدور دورة كبيرة باتجاه الجنوب من صنعاء . لتتمكن من الافادة من الطريق القادمة من عدن ، وذلك بالنظر

الى استحالة مرور السيارات في المناطق الجبلية المريعة .

ومن الممكن أن أضيف هنا بعض التفاصيل عن هذه الطريق . إنها تمتد من صنعاء نحواً من خمسة وثلاثين ميلاً الى الجنوب حتى تصل معبر ، عبر هضبة مسطحة متناسقة ، لا تحدها إلا سلسلة جبلية واحدة ، وتقيم فيها قبيلة « بني مسلم » التي تعيش في أماكن ترتفع نحو من الف قدم عن الهضبة . وتقسم التلال الهضبة كلها تقسيماً جزئياً ، وتجعل منها أرضاً صالحة للزراعة ، ومأهولة بالسكان . وتستمر الطريق جنوباً من معبر مسافة أربعة عشر ميلاً ، حتى تصل نهاية الهضبة ، ثم تنحدر نحواً من ٣٦٠٠ قدم باتجاه الوادي ، عابرة مسافة لا تقل عن اربعة اميال ونصف الميل من جبل مسنة وبلدة « مسنة » نفسها . وبعد ان تمضي الطريق عشرة اميال جنوباً ، تستدير الى منطقة أنس ، عبر مدينة العبيد . وتقع حمامات معدنية ساخنة خارج مدينة العبيد ، يقوم الامام بزيارتها باستمرار . وتمر الطريق عبر الوديان وعلى السفوح مسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين ميلاً متجهة نحو الغرب ، ثم تأخذ في الانحناء تدريجياً حتى تصل عباد ، بعد اجتياز سلسلة من الوديان .

ووافق السائق بعد نقاش طويل ، على أن يحملني وحدي الى الحديد . وسرعان ما حمل متاعي إلى ذيل السيارة ، وحشرت نفسي في داخلها ، وكنا على وشك الشروع في المسير . ولكن الجنود اعترضوا في اللحظة الاخيرة . وأعلنوا أنني لا استطيع مطلقاً مواصلة السير وحيداً ، وان أحدهم على الاقل ، يجب أن يرافقني . وكان هذا أمراً متعذراً ، حتى ولو اظهر السائق منتهى حسن النية ، إذ أن السيارة القديمة ستنهار حتماً بنا . وتبع ذلك نحو من نصف ساعة من الصراخ العنيف ، والتجاذب والدفع ، ولكن دون جدوى . وسحبت اخيراً سحباً من السيارة ، ووقفت من جديد ساكناً خانعاً بين متاعي ، بينما واصلت السيارة طريقها بدوني ، واختفت بسرعة عن ناظري الباكيين .

وشعرت بأسوأ الحالات النفسية ، فزحفت من جديد ، الى المأوى الذي أعددناه . واستلقيت تحت ظله ، طيلة النهار ، اعيش في حرارته التي تشبه حرارة الفرن . وعندما حل المساء ، كنا نواصل رحيلنا كالمعتاد .

- ١٤ -

وصلتُ إلى البحر الأحمر

وخيم الظلام على الصحراء . ويبدو الليل طويلاً لا ينتهي للرجل المتعب المنهوك ، الذي يقعي كدمية على ظهر بغله ، الذي يواصل السير الى الامام . جاساً طريقه في حلكة الدجى . ولم يكن القمر قد ارتفع في كبد السماء بعد ، ولم تكن خطوط الجبال لتبدو لنا إلا شاحبة تتراجع باستمرار الى مؤخرة الصورة ، حتى تختفي نهائياً عن النظر . وتصبح نسياً منسياً . ويلفنا الصمت المطبق من كل جانب ، باستثناء ما يصل إلى مسامعنا أحياناً من خفقة طائر ، أو نأمة حيوان . وعبرنا وادي سهام ، ثم وادي حجيلة ، الذي كان يضم بعض الماء ، خلافاً لما هو مألوف في الصيف . ووصلنا الى قرية البهي التي تضم العديد من الأكواخ ، ثم تابعنا السير بعد استراحة قصيرة .

ووصلنا قبيل الفجر الى هدف رحلتنا تلك الليلة ، وهي باجل . وكانت هذه من القرى الكبيرة القليلة في تهامة ، ومن الأسواق التي يؤمها الكثيرون . وعثرنا على مأوى لنا في كوخ من القصب وقد ضم أربع فرش من خوص النخيل ، ولما كنت مفرطاً في التعب والإنهاك ، فقد غرقت في سبات عميق فوراً . ولكن هذه الراحة التي نشدناها ، سرعان ما اضطربت ثانية ، فقد بدأت الديكة تصيح ، وأخذت الأغنام تسير وسط فراشنا ، ورغاؤها يتعالى ، كما أوقد صاحب الكوخ ناراً ضخمة في وسط الغرفة ، حتى تعذر علينا التنفس بسبب الدخان الذي تحلق فيها .

وقفزت من موضعي . وكانت أعصابي قد اشرفت على النهاية . واتخذت قراراً

خطيراً ، بأن أطلب من الحديدة سيارة ، تقلني ، أدفع لها كل ما تبقى لدي من مال . وتحتم علينا على كل حال ، أن نوقظ مدير البريد في باجل من نومه . وبدا لي أنه كان مغرقاً في نومه . إذ انقضى وقت طويل قبل وصوله . ووجهت البرقية إلى الأمير الحسين ، والي تهامة ، وهو أحد انجال الإمام . ويحتكر في الحديدة عدداً من السيارات التي تعمل لحسابه . ونجحت المغامرة ، وجاء الرد بعد وقت طويل ، يقول ان السيارة ستصل ، كما علمت ايضاً ، أن هناك باخرة ترسو في ميناء الحديدة في ذلك الحين ، وانني إذا اسرعت بالمجيء ، فقد ألحق بها .

وجلت في بلدة باجل الصغيرة جولة طويلة . وفي البلدة قلعة خشنة تضم عدداً من أبراج المراقبة الضخمة ، ويحيط بها سور عال من الآجر ، وتعتبر هذه القلعة ، المكتظة بالجنود ، آخر ما للامام من مراكز أمامية في تهامة . وعثرت في السوق على بعض من أعرف من الناس منذ رحلتي الأولى ، وبينهم جنديان ، كنت قد اخذت لهما صورة في صنعاء . وسائق بغلي القديم ملوكي . الذي عانقني عناقاً حاراً ، عندما رآني من جديد .

ووصلت سيارة فورد قديمة حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر . وحملنا متاعي الى السيارة ، ثم اخذت مقعدي فيها وانتظرت فرحاً أن تبدأ السير ولما كان السائق ومساعده يجلسان مع الأسف في المقعد الأمامي ، لم يكن هناك مكان في السيارة الصغيرة ، إلا لجندي واحد من حراسي الثلاثة . وكان من المهم لكل واحد من الثلاثة ، أن يستقل السيارة ولو مرة واحدة في حياته . وسرعان ما شهدت مهزلة حقيقية . إذ ما كاد أحد الجنود ، يجلس إلى جانبي ، حتى سارع الجنديان الأخران إلى اخراجه منها بالقوة ، وهما يصرخان صراخاً عالياً . وقفز جندي آخر بسرعة مغتنماً الفرصة . فجلس إلى جانبي . ولكن الجنديين الآخرين عادا فاتفقا وأخرجاه منها بالقوة . ومر الثالث بالتجربة نفسها ، ثم عادت المسرحية تمثل من جديد وسط صرخات غاضبة متعالية . ودام الوضع على هذه الحال ، مدة طويلة ، وجماهير النظارة من الناس الذين تحلقوا حولنا يتطلعون إلى هذه المهزلة .

وتحرك السائق أخيراً ، ولو لم يتحرك ، لكنا حتى هذه اللحظة لا نزال في

أماكننا على الغالب . فعندما قفز أحد الجنود إلى الداخل . وسارع رفيقاه إلى ضربه ، تحرك السائق بسيارته . فقذف بالجنديين الآخرين الى الأرض . ومضت بنا السيارة في طريقها . وأبصرنا بالجنديين الثائرين اللذين خلفناهما وراءنا يركضان وراء السيارة ، وقد جرحا في كرامتهما ، يشتمان ويلعنان ، وقد انتصبا خنجريهما في أيديهما . ودل هذا الوضع ، على ما يتمتع به السائق العربي من حكمة . إذ حمل معنا أحد الجنود ، وإلا لتحتم علي أن أعدل عن السفر بالسيارة من جديد . ولكننا لسوء الحظ ، لم نحسن اختيار الجندي الذي حملناه معنا ، وشاء سوء الطالع ، أن يكون هذا الذي اخترناه اسوأ الجنود الثلاثة ، كما سيبدو عما قريب .

وهكذا بعد مشية الجمل البطيئة وسير البغل الهادىء اللذين الفتهما ، مضيت بسرعة كنت قد نسيتها . وهبّ علينا هواء كالنار ، وكأنه متصاعد من أعماق الجحيم ، يحرق جلودنا ويخزها بألوف الأبر . ولكن هذه المتاعب تهون ، إذا وصلنا إلى الباخرة في الوقت المعين . وواصلنا السير عبر الرمال مسافة ثلاثين ميلاً ، مررنا إبانها بقريتين مأهولتين توقفنا فيهما لنلطف من حرارة محرك السيارة . ومن العجيب حقاً أن هذه الآلة المصدورة تمكنت من الصمود للرحلة .

وبدأنا نرى أمامنا في الأفق البعيد ، ضباباً شاحباً كثير الحركة ، ظهرت وراءه ، بعد ثلاث ساعات من السير ، أبراج عالية بيضاء . وأخذت تهب علينا نسائم مالحة قوية ، وسرنا بمحاذاة الشاطىء مسافة ما ، وأبصرت هياكل بيوت بيضاء ، ومجموعة من أشجار النخيل العطشى . ها نحن في الحديدة على البحر الأحمر ، التي وصلتها أخيراً بعد رحلة قطعت فيها سبعمائة وخمسين ميلاً ، بادئاً إياها من ساحل بحر آخر ، هو المحيط الهندي ، وعابراً فيها الجنوب العربي .

ومضيت اولاً ، إلى احد معارفي القدماء وهو ليغيراتو اليوناني . الذي كان قد استقبلني استقبالاً ودوداً في المرة الماضية . وكانت الباخرة لا تزال في مكانها ، ولكنها ستغادر الميناء بعد ساعة واحدة . وهكذا لم يتوافر لدي إلا بعض الوقت لتهيئة نفسي للعودة إلى العالم الغربي ، وتحية صديقي ، ثم توديعه . وأسرعت بعد ذلك إلى الميناء ، يرافقني الجندي الذي لم ينقطع عن اصطحابي لحظة واحدة .

وأمرت بالوقوف في مدخل الميناء . وطلب مني الموظف المختص ابراز إذن الخروج الصادر عن الإمام ، والذي لا استطيع مغادرة البلاد بدونه . أجل أين هي الوثيقة التي لا مفر من إبرازها ؟ لقد ظهر أنها ما زالت مع احد الجنديين اللذين خلفناهما وراءنا في باجل . وضاعت جميع توسلاتي ورجائي عبثاً . فأوامر الإمام مقدسة . وأخذت أرقب بقلب حطمه الحزن ، الباخرة ، وهي تتجه إلى الشمال ، ثم تختفي عن ناظري . أما الباخرة التالية فلن تصل قبل عشرة أيام . آه . يا للقدر الساخر ! لقد اضاع علي فرصة الرحيل في اللحظة الأخيرة . وسمح لي بالبقاء في بيت صديقي ليغييراتو ، على أن لا اغادره دون حراسة .

ووصل الجنديان الآخران في اليوم التالي ، وقد هدأ غضبهما ، يحملان رسالة الإمام معهما . وكانت الرسالة تقضي بأن اغادر الحديدة في أسرع وقت ممكن ، وعلى ظهر أول باخرة . ولكن ارادة الله شاءت غير ذلك .

ولا يعيش في الحديدة إلا عدد قليل من الأوروبيين ، من إيطاليين ويونان وروس . وقد نشط الإتحاد السوفياتي في هذا الوقت في إقامة علاقات تجارية مع الجنوب العربي ، وكانت روسيا ، ويا للغرابة ، الدولة الوحيدة التي حظيت بعطف الإمام . ولا يسمح للاوروبيين في الحديدة بحرية الحركة كثيراً . فالأمير الحسين ، الذي يحكم المنطقة الساحلية يكره الأجانب ، وكان يوالي اصدار الأنظمة التي تتدخل في حياة الأوروبيين الخاصة . فهم مثلاً ، ممنوعون من السير خارج البلدة . كما حظر عليهم الخروج الى عرض البحر في الليل ، أو عزف الحاكي . ويبدو أن العرب يكرهون كرهاً خاصاً هذا الجهاز . إذ أن الملك سعود قد حظر استعماله في مملكته أيضاً . وكان لعب كرة المضرب ، هو التسلية الوحيدة للاوروبيين ، ولكن هذه الرياضة في مثل هذا الطقس الحار المزعج لم تكن دائماً بالشيء المريح .

والحديدة هي المستودع الرئيسي للقهوة العربية . والتجار اليونانيون هم الذين يحتكرون تصدير البن . وهناك شركتان كبيرتان . وهي مؤسسة ليغييراتو ، التي ما زالت على قيد الوجود منذ افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، ولها مكاتب للاستيراد والتصدير في الحديدة وفي عدد من المدن على ساحل افريقيا وفي الحبشة ،

وشركة اثناسكوبولو ومقرها الرئيسي في عدن . وقد نفيت من أصحاب هاتين الشركتين ، وهم من اليونانيين ، أنا الألماني الغريب الذي لا يعرفونه كل عطف ورعاية .

ويعرف العرب القهوة من أيام الرسول ، وقبل الإسلام أيضاً ولكنها كانت شيئاً نادراً يفد من اليمن الى مكة . ويطلق العرب عليها أيضاً اسم البن ، كما يسمون قشورها « بالقشوة » ، وهو اسم يطلق كذلك على خمر العنب أو التمر . والخمر حرام على المسلمين ، ولهذا فإن المؤمنين الصارمين ، الذين يفسرون كلمة « القشوة » تفسيراً حرفياً ، لا يشربون القهوة أيضاً . وهكذا فهناك عدد من الكتب التي صدرت عن القهوة وتحليل شربها أو تحريمه . ولكن من يحللونه اكثر ممن يحرمونه ، لان العربي ، يحب القهوة حباً يفوق ما يحمله لها الغربي . ويعدونها اعداداً خاصاً ، يتفننون فيه كل التفنن .

واليمن بمينائها القديم في المخا ، هي الموطن الأصلي القديم للقهوة . ومن المعترف به اليوم أن العالم يعتمد كثيراً على أصناف البن الرخيصة المستوردة من جنوب امريكا . ولكن أياً من هذه المستوردات لا يضاهي في جودته ونقائه ورائحته ، البن العربي الأصيل ، حتى ولا البن المستورد من الحبشة المجاورة .

وجبال اليمن ، هي البلد العربي الوحيد الذي يعرف الأمطار بمعناها الصحيح طيلة السنة ، لا في فصول محدودة معينة . وفي هذه الأوضاع الجغرافية السائدة ، أصبح في الامكان زراعة البن فيها . ويزرع البن في « القطانات » الاصطناعية ، في اليمن منذ قرون عدة ، ولا سيما على السفوح الجنوبية لجبالها ، التي ترتفع الى علو تسعة آلاف قدم . وتوجد أجود الأنواع في منطقة صنعاء ، على ارتفاع نحو من ٧٢٠٠ قدم، وفي منطقة جبل حراز . ويجري جني المحصول في معظم فصول السنة . على الرغم من اختلافه في الجودة بحسب الفصول ، إذ ان خير ما يجني منه ، هو ما يقطف في شهر أيار . وتعلّب حبوب البن في سلاسل من القصب وفي البالات . ثم ترسل الى تهامة وإلى ميناء الحديدة على البحر الأحمر ، على ظهور الابل . وقد حلت الحديدة محل المخا ، إذ غدت الميناء الرئيسي لتصدير البن ، على الرغم من أن قهوة

« المخا » ما زالت تحتل مكان الصدارة في الأسواق العالمية .

وظلت المخا طيلة العهد العثماني ، وحتى أواسط الحرب الكونية الأولى ، مدينة مزدهرة كل الإزدهار ، وتجتذب اليها جميع تجارة البلاد الفعلية . أما اليوم فقد جفت ينابيع المياه فيها ، وهجرها معظم سكانها السابقين ، واختفت قصورها وبيوتها الشاهقة البيضاء ، وراء ضباب النسيان ، وهواء البحر الرطب المالح ، والعواصف الرملية المحرقة . وظلت الحديدة ، هي الميناء الصالح الوحيد للبلاد .

وإذا ما سرت في شوارع الحديدة ، سمعت همسات خافتة داخل بيوتها وأصواتاً كالحفيف . فالنساء يهززن حبات البن على حصر كبيرة ومدورة من القش هي الغرابيل لإخراج الغبار منها ، ولفصل الحبات غير السليمة عن السلمية . ويطلق على النساء اللائي يقمن بهذا العمل ، واللائي ينتمين الى أحط الطبقات الإجتماعية اسم « الخادمات » وهن يسرن في الشوارع سافرات ، ويتمتعن بجمال يفوق جمال النساء اليمانيات الأصيلات . وتقوم هذه الخادمات ، بالعمل مقابل اجور خفيفة ، في المستودعات ، حيث يفرزن حبات القهوة ، تبعاً لأماكن انباتها ، فقهوة جبل بوران وجبل « ريمة » هي من النوع الأفضل ، كما يفرزنها تبعاً لحجم الحبات . ثم يعبئنها في بالات تزن الواحدة منها مائة وسبعين رطلاً ، وتصدر الحديدة نحواً من ثمانين ألف بالة في العام ، يذهب معظمها إلى امريكا ، أما ما تبقى فلايطاليا وفرنسا ومصر ، حيث تخلط مع أنواع القهوة المستوردة الأخرى . أما المانيا وبريطانيا فتفضلان القهوة المستوردة من جنوب أمريكا .

وها أنا استلقي على سطح مشغل شركة ليغبيراتو ، الذي هو في نفس الوقت البيت الذي تعيش فيه الأسرة . وقد توقف حفيف غرابيل النسوة الخادمات ولكن رائحة البن ، ما زالت تتصاعد من الباحة التي تغطيها الحصر . ويهب نسيم لا برودة فيه مطلقاً من البحر . ونسترخي في مقاعدنا المريحة دون أن نتحدث . وتطير فوق رؤوسنا مئات الوطاويط بل ألوفها في نفس الإتجاه في كل ليلة . واعود بذاكرتي الى المرة الأخيرة التي كنت فيها في الحديدة . كنت قد وصلت اليها ايضاً من صنعاء . وأخذت أرقب وصول الباخرة . ولكني كنت آنذاك حراً مطلق السراح . وكان ولي

العهد الأمير سيف الإسلام محمد لا يزال حياً وهو من أصدقاء الغرب وقد أقام حفلة عظيمة سأتحدث عنها في الفصل التالي .

- ١٥ -

عيـــدٌ في الحُـــدَيدة

تقـرر أن يقوم الامـير سيف الاسلام محمـد ، الذي لقي حتفـه فيـما بعـد ، في حادث مريع ، بزيارة الحديدة زيارة رسمية . وكنت قد تعرّفت الى الامير في صنعاء ، ولكنني سبقته في الرحيـل عنها الى الحـديدة ، ولـذا فقد تمكنت من رؤيـة الاعدادات التي اتخذت في المدينة لاستقباله .

وقمت بجـولة في البلدة ، فمضيت من بيت ليغبيـراتو الى البحـر ، عبر شـارع ضيق . وعـلى شاطىء البحـر تقوم بيـوت التجار ، وبيـوت الروس ووكـلاء الشركـة الملاحية الهنـدية ، وقصر عـامل الحـديدة . ويـوحي بيت العامـل ، بـانـطبـاع يثـير الاعجـاب ، فهو يـرتفع عن غيـره من البيوت ، ولـه أبراج وشـرفـات مـدورة فـوق المدخل ، الـذي وقف الى جانبـه ملاذان « كشكـان » للحرس ، مبنيـان من الطين . والبيت مدهون باللون الابيض ، ويمكن رؤيته من البحر البعيد . ويقوم السجن وراء بيت العامل مبـاشرة ، وهـو مكتظ دائماً بـأفراد قبيلة الـزرانيق ، من المساجـين الذي ينقلون الى ساحل البحر مرة كـل يوم عنـد المساء . ويسـتطيع الانسـان رؤيتهم وهم يستحمـون في البحر وقـد تدلت منهم الاصفـاد الحـديـديـة ، إذ ان السجن يخلو من الوسائل الصحية .

وتتألف الحديدة من قسمين مختلفين ، أحدهما البلدة الأصلية بأبنيتها الدائمة ، وبيوتها ، ومساجدها وأسواقها ، وثانيهـما القريـة الواقعـة الى الجنوب ، والتي يعمـل أهلهـا في صيد الاسمـاك . وتتألف القـرية من أكـواخ من البوص والقصب ، تشبه

اكـواخ البدو في تهـامة . وإذا مـا سرت عـلى الشاطىء في الصبـاح ، رأيت الصيادين عـائدين من رحـلات صيـدهم ، وقـد حملوا حصـاد صيـدهم ، الـذي يجـرونـه من قواربهم . وفي وسع المرء أن يرى اسماكاً من مختلف الاشكال والانواع ، من أسمـاك التونة » ، الصغيرة والكبيرة ، وأسماك الطوربيد ، والاسماك المكهربة ذات الاذنـاب الطويلة . ولكن كلاب البحر ، هي الصيد الـرئيسي ، بمختلف أحجامـه واشكالـه . ويأكل أهل الساحل العربي لحم كلاب البحر . ويحمـل الصيادون عـادة هذه الكنـوز التي حصلوا عليهـا ، على عصي ، يحمـل كل واحـدة منها رجـلان من طرفيها . ومن أضخم أسماك البحر الاحمر وأكثرهـا خطراً سمـك المنشار ، الـذي يصيده أهـل هذه البلدة عادة بكميات كبيرة .

وهناك طرق واسعة تقوم بين بلدة الحديدة نفسها وبـين قريـة الصيادين ، وهي تمتد من البحر الى باب المدينة القديمة ثم تستمر عبـر مختلف البيوت التي تحيط بهـا إلى بيت سيف الاسلام ولي العهد . وقد تحوّل هذا الشارع ، الى طـريق احتفالي . فقـد اقيمت على جانبيه الاعمدة وأقواس النصر التي تحمل سعف النخيـل ، وارتفع العلم اليماني فوق كل مكان وهو يضم سيفاً أفقياً وثلاث نجوم بيضاء على أرض حمراء .

وسيحتفل بدخـول الامـير الى البلدة يـوم الجمعـة عنـد وقت الصـلاة احتفـالاً كبيراً . وقد مضت قوات الفرسان والمشاة الى تهامة لاستقباله أو السير في ركابه ، وهو يستقـل جواده المـطهم الابيض في طريقـه الى البلدة . وينشد الجنـود أناشيـد الحـرب اليمانية ، بينما ترقص فصائل اخرى حول جواد الامير ، ويقوم آخرون بقذف بنادقهم عالياً في الهواء ، ليعودوا الى التقاطها من جديد .

ويبدأ يوم الاحتفـال في السـاعـات المبكرة من الصبـاح ، وقد تجمـع المحاربـون اليمـانيون البـواسل في أحـد دروب البلدة الضيقة ، يـرتدون مـلابسهم العاديـة التي تتألف من قميص أبيض يمتد حتى الركبة ، وسترة قصيرة حتى الخصر ، وعمـة زاهية الالوان ، وانتشرت روائح الاعشاب الزكية في شعورهم وتعزف المـوسيقى العسكريـة النحاسية بعض المقطوعات العسكرية التركية ، كمقدمة للاحتفالات العامة . ويجلس الناس هادئين على الأرض يمضغون القات . وسرعان مـا تنطلق العيـارات الناريـة ،

فقد ظهر العامل ، ومضى في موكبه الى المسجد يحيط به الجنود لاداء صلاة الجمعة .

ويبدأ بعد ذلك العرض الفعلي ، ويمر موكب الاحتفال عبر المدينة المزدانة ، فتفد أولاً قوات الهجانة، ثم المماليك يرقصون ، ووراءهم العامل بجرسه الخاص ، وأخيراً ما تبقى من القوات العسكرية ، ويسير الموكب سيراً حثيثاً ، والجنود ينشدون . إنهم يغنون أغانيهم على الطريقة الشرقية التي تنهك الجندي ، وتجعله عاجزاً عن السير إلا ببطء متناه . وهو يضغط بإحدى يديه على حنجرته ويرفع خياشيمه وشفته العليا ، بحيث ينتج عن ذلك نغم صوتي صادر عن الحنجرة . ويتراوح النشيد بين النغمات العالية والخفيضة ، ولا يصدر أخيراً إلا بعد جهد بالغ ، وتؤثر موسيقى البدو غير المتحضرين والقادمين من الجبال ، لاداء الخدمة العسكرية هنا ، على الجميع لما فيها من تأثير مباشر على العواطف والاحاسيس . إنها تعبير حقيقي عن شعب أصيل يعيش على طبيعته وسجاياه الاصلية . والاداء الموسيقي متعدد الجوانب في تأثيراته حتى ان اللازمات التي يكثر فيها الطنين ، لا تختلف كثيراً عن أغاني القوزاق في حوض الدون في روسيا .

ويهبط الليل . إنها ليلة من تلك الليالي الاستوائية الرتيبة التي لا تختلف والتي لا تنتهي فيها السماء لصفائها ، وامتلائها بالنجوم ، وبرودة الصحراء مفقودة ، والهواء رطب وشديد الالتصاق بالانسان ، وليس ثمة أية نأمة لريح أو نسيم .

ويدور احتفال بالمشاعل أمام بيت سيف الاسلام ، فالجنود يذرعون البلدة وهم يرقصون ، ثم يعودون ، ليحتلوا الاماكن المخصصة لهم . وينظم السكان الذين جاءوا من الشمال الشرقي للبلاد العربية الى الحديدة في هذه الآونة ، احتفالاً كبيراً ، خاصاً بهم ، وهناك عدد من القوارب التي جاؤوا بها من الخليج العربي راسية في الميناء . إنهم سود الوجوه للغاية ، وأكثر سواداً من أهل اليمن ، ويفتقرون الى الجاذبية ، إذ أن اجسامهم غليظة ، وقد ارتدوا سراويل بنية قاتمة ، لها أذرع طويلة تمتد الى اقدامهم . ويحملون في أيديهم الرماح الطويلة ، ويؤدون رقصات تمثيلية وهم يغذون السير . ويحمل بعضهم الدروع ، ويؤدون مباريات حقيقية في الضرب بالسيف . ويهبط أحدهم على ركبتيه . ويعتقد الجميع أنه اصيب فعلاً . ثم سرعان ما يثب على قدميه ثانية ، ثم يسقط على الارض ، فيحمله شخص ثان ، يدافع عنه

محارب ثالث . وتدور كل هذه الحركات التمثيلية على ايقاع الموسيقى المصحوبة بعدد من الطبول .

ويبدأ الاحتفال الفعلي . وتنتشر المقاعد في صف طويل لضيوف الشرف . وفي الوسط أريكة أمامها منضدة صغيرة ، ويجلس الامير سيف الاسلام محمد على الاريكة وقد ارتدى الملابس الحريرية المترفة ، والعمة على رأسه ، تمتد منها ذؤابتان واسعتان ، تشير الى مرتبة الامارة التي يحتلها ، ويقف زنجي فارع العود وراء ظهره ، حاملاً « سيف الاسلام » بصورة رئيسية فوق رأس الامير ، وهو في غمده الفضي .

ويعود أهل عمان ، فيعرضون رقصاتهم أمامه ، ثم يفد الجنود ، الذين ينشدون أغانيهم الحربية ، ويؤدون رقصات دائرية في الوقت نفسه ويقف الزرانيق في مراكزهم في صف طويل للغاية . ولا يرتدي الواحد منهم شيئاً إلا مئزره من الكتان ، وربطة فضية على الذراع ، وقبعة من القش على الرأس مربوطة برباط فضي . ويبدأ الزرانيق في اداء رقصة واحدة رتيبة على انغام موزونة . ولا تعدو هذه الرقصة أكثر من مجرد حركة في الاجزاء العلوية من أجسامهم ، وقد ترابطت ايديهم وتشابكت ، ثم تأخذ هذه الحركات في النشاط ، شيئاً فشيئاً . ويزداد الاهتزاز ، ويشرعون في الانحناء معاً الى مستوى الخصر ، عدة مرات ويهبطون الى الركبة فجأة ثم يقفزون واقفين من جديد . وكان منظر هذه الاجساد السمراء العارية ، وهي تهتز في ضوء المشاعل ، رائعاً كل الروعة . أما الحداء فمغرق في الابداع ، وجو الاحتفال بالعيد يلف كل شيء ، ويصخب بالايقاع الموسيقي .

ويقفز زرانقيان من الصف ، وتنقض أربعة خناجر ، بالغة الزخرف وبراقة اللون . فكل منهما يحمل خنجرين . في كل يد خنجر واحد ، ويقف البدويان متقابلين ، ويرفعان الخناجر فوق رأسيهما ، ثم يهبطان على ركبتيهما وهما يرقصان ويضعان اثناء هذه الحركات الخناجر بصورة بطيئة امام صدريهما ، ثم يبدأ الواحد منهما في تحريك يديه ، وإدارتها بصورة متعارضة ، حتى تبدو الخناجر ذاهبة آيبة .

ويبدو أن لا نهاية لعامل الزمن في هذا المكان . فالانسان يفقد كل اعتبار للوقت أمام هذه المناظر الرائعة . ولا ريب في أن من مصادر الالهام ، أن يستطيع

المرء، مراقبة هؤلاء الناس البدائيين ، وهم يؤدون حركاتهم الرتيبة الجميلة . وتأخذ الموسيقى في الخفوت شيئاً فشيئاً ، وتبدأ صفوف الرجال بمغادرة ساحة الاحتفال ، راقصة تماماً كما جاءت . ولا تصل الى مسامعنا الا أصوات قرع الطبول ، وحداء الرجال . وهي آخذة في الضعف شيئاً فشيئاً ، إلى أن تختفي وراء الاطلاقية .

وانتهى حلمي عن ذلك العيد الذي شهدته ، وانتهت بانتهائه ذكرياتي .

فأنا اليوم سجين في الواقع ، أقضي أيامي على ظهر مسكن ليغيبراتو ، وقد ارتفعت فوق رأسي الحصر . لتقيني وهج الشمس الحارقة . وعندما يقترب المساء ، أمضي في مسيرة في شوارع البلدة مصحوباً بحرس من الجنود . ولا أرى في البلدة أية معالم للزينة ، وإنما أراها وكأنها راقدة على أشعة شمس المغيب ، وأزور المكان الوحيد في البلدة الذي يستحق الزيارة ، وهو حديقة الحيوان الصغيرة ، المحاطة بالاسوار من جميع جوانبها ، والتي يتولى الجنود حراستها . ويتسلح احد هؤلاء الجنود بقضيب حديدي ، ويقوم بدور الدليل ، ولا ريب في أن حديقة الحيوان في الحديدة مخيبة للامل تماماً . ففيها بعض بنات آوى ، والضبع ، وقد عاش الفهد فيها مدة ، ولكن لم تطب له الاقامة في قفصه ، فتمكن من الخلاص منه ، ومضى يتمشى في شوارع البلدة ملقياً الرعب في قلوب الاهلين ، إلى أن تمكن عيار ناري صائب ، من القضاء عليه .

وهكذا لم أجد في الحديقة إلا الضبع وبنات آوى ، ولا يكتفي اليمانيون برؤية هذه الحيوانات وديعة في اقفاصها ، بل يريدون ان يروها شرسة مهتاجة . وهنا يلعب القضيب الحديدي دوره . ويقوم الجندي بادخاله في القفص بين الفينة والفينة ، مشفعاً حركته بهدير مخيف ، وتحاول الحيوانات المسكينة الدفاع عن نفسها باتجاه القضيب المخيف ، ولكن الجندي يتلذذ ، بعذابها وارهابها ، بل انه يتقاضى بعض الاجر من النظارة على ذلك .

وأصل الى الميناء ثانية . ولا يستحق هذا الحوض الصغير أن يسمى ميناء ، فقد بني حاجزان للامواج ، يتوغلان في البحر ، أحدهما بصورة مستقيمة والثاني بصورة عمودية ، دون أن يكون هناك ترابط بين الحاجزين . وإذا ما جاءت باخرة

ضخمة الى الحديدة ، وهذا أمر نادر ، فإنها تظل في عرض البحر ، خارج الصخور المرجانية ، وقد تبعد عنها مسافة سبعة اميال ، بحيث لا يمكن الوصول اليها من البر . وتسارع المراكب الشراعية إلى الميناء ، بل ترسو خارجة امام حاجز الامواج . ثم تمضي الزوارق الشراعية الصغيرة ، فتنقل ما حملته تلك المراكب من بضائع . وتدخل الزوارق الى الميناء ، ولكنها لا تقف الى جانب الحاجز . وتقوم قوارب التجذيف التي تسمى « بالزمبوق » بالمهمة الآن ، فتحمل الاكياس الى رمال الشاطىء . ويجيء الحمالون ومعظمهم من العبيد ، فينتقلون الاكياس على اكتافهم عبر الماء الضحل ، وهنا تكون الشحنة قد غدت في منجى من الخطر . وتستخدم هذه الطريقة الطويلة ، حتى لا تحرم أية فئة من الحمالين والعبيد وأصحاب الزوارق من العمل . وإلا فإن الثورة واقعة لا ريب فيها ، وتريد السلطات ان تتجنب الثورة بأي ثمن .

ووصلت الباخرة التي كنت انتظر وصولها بعد عشرة أيام ومضيت الى الميناء ، وقد قام على حراستي الجنود الثلاثة الذين لم يتخلوا عن اداء مهمتهم لحظة واحدة . وعندما وضعت قدمي على القارب الذي سينقلني الى الباخرة ، انتهت مهمتهم وغدوت حراً مطلق السراح . وقف الرجال الثلاثة صفاً واحداً على الشاطىء ، وأدوا لي التحية ، وكانت التحية الاخيرة من هذه البلاد الغريبة والرائعة ، والتي وقعت تحت سلطان سحرها عدة أسابيع ، قضيتها أذرعها من طرف الى آخر ، والتي ما زالت تنطوي على الكثير من الاسرار التي تحتاج الى الاستكشاف عندما يزول هذا الحاجز العدائي من التحفظ الذي يلفها من كل ناحية . وها قد غدت هذه البلاد الفريدة في نوعها ، وراء ظهري .

وقد حانت لحظة الرحيل . . .

وبدأت الباخرة العجوز الصغيرة « افريقيا » سيرها ، متحركة ببطء شديد . . . . وأخذت الارض تبتعد عن ناظري شيئاً فشيئاً ، وتختفي وراء الأفق . . . وأخيراً ، رأيت خيطاً أصفر ، يمثل الساحل . بانت فيه بعض البيوت البيضاء ، يعوم في الهواء الخفاق ، على الافق البعيد . . . كان كل شيء خيالاً ، أما الحقيقة ، فقد

ظلت قائمة في مجموعات الصور والافلام والاسـطوانات التي أحملهـا الآن معي متجهاً الى اوروبا .

الفهرس